

أغبياء يدخلون النار

تأليف
أ.د / مبروك عطية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون، والصلاة والسلام على من شرفه بخاتمة رسالاته سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم يبعثون.

وبعد،،

فقد تفكرت فى قول الله تعالى عن أصحاب النار، حيث قالوا: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ**﴾ ورأيت أن هذا دليل الغباء الذى ذهب بأصحابه إلى النار، وقول الله- تبارك اسمه (فاعترفوا بذنبهم) دليل على أن الغباء ذنب، بل هو أبو الذنوب؛ لأنه لولاه لسمع هؤلاء وعقلوا، فآمنوا وعملوا الصالحات، واهتدوا، ورأيت أن قوله - عز وجل- في سورة الروم: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ دليل على أن المرء قد تصفه بالعلم والنبوغ فى شتى مجالاتهما ومع ذلك هو غبى غافل إن لم يكن عالماً بصيراً بآخرته، وحسن عاقبته، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**﴾.

فمن أراد الآخرة سعى لها سعيها بشرط أن يكون مؤمناً؛ فإنك ترى أعمالاً صالحة لغير المسلمين يمكن أن تصفها بأنها أعمال تنفع أصحابها يوم الدين وما هى بنافعة، بل هى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، أو كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، فلابد من العمل الصالح والإيمان معاً.

وقد رأيت أن الله - عز وجل- يسر الدين، بمعنى يسر الطريق إلى رحمته، ودخول جنته، فمن الغباء أن يكون الأمر ميسراً ولا نجاح، وأن يكون الطريق ذلولاً، ولا مسار، وأن تكون الجنة مفتحة الأبواب، ويصر

المرء على دخول النار، فما أشبه ذلك المرء بمغفل يجد النهر والظل الظليل وهو على ظمأ وتعب، فيتركها وينأى إلى حرور المكان وجفاف الصخور.

ورأيت أن الغباء موطنه سوأة النفس التى تنكشف عن عورة دميمة أشد من سوأة البدن الدميم، فالمرأة تدخل النار بسبب هرة، فلا هى أطعمتها ولا هى أفسحت لها الطريق لتأكل من خيرات الأرض وبقايا البشر فلو أطعمتها ما كلفها ذلك إلا الفتات، ولو تركتها لتأكل من رزق الله الواسع ما كلفها ذلك إلا فتح الباب، أليس ما صنعته دليل غباء، وانكشاف عن سوأة نفس إن حاولت أن تجد فيها شيئاً من نضرة وجمال فلن تجد والحديث عن الغباء حديث ذو مرام مهمة، ومقاصد شريفة .

وقد رجعت إلى كتب اللغة فوجدت أن معنى الغباء قلة الفهم، وخفاء الخبر، يقال: غبيت الأمر، وغبيت عن الأمر إذا غاب عنى، فهو يتعدى بنفسه وبالحرف وما أكثر الأخبار الغائبة التى تخفى، وما أكثر الأخبار الحاضرة المتوفرة ونحن عن فهمها متخلفون، والعقل فى الإسلام مناط التكليف، فمن لا عقل له لا تكليف عليه قال تعالى: **﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾** وقال عز وجل: **﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** وقال تبارك اسمه: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾** وهذه الآية من سورة النساء تدل على ما ذكرته من أن الله – عز وجل- يسر الذكر للناس **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾** ومن تيسيره أنه نظم محكم، لا اختلاف فيه، ولا تعارض، ولو كان من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافاً كثيراً، من تعارض وتناقض وأساطير، وقال عز وجل فى سورة محمد: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**، ونحن فى حاجة إلى تدبر القرآن الكريم؛ لأنه منهج ربنا الذى ارتضاه لنا، والتدبر قد يكون، وقد نملك أدواته، ونحسن فهمه وتفسيره، ولكنا – مع الأسف لا نعمل بما

علمنا وفهمنا وتلك هى المفارقة بين العلم والعمل وهى من الغباء بمكان، وهو ما لم تذكره كتب اللغة فى تفسير الغباء إذ إنه فيها على قلة الفهم، وعذر اللغويين مقبول؛ لأنهم يطلقون الكلمة مع تضمينها مقتضى معناها، أى أن المرء إذا أحسن الفهم ولم يعمل كان كأنه لم يفهم، فلم يذل غبياً .

فقولهم: قلة الفهم معناه قلة الفهم التى تؤدى بالضرورة إلى عدم العمل بما هو مطلوب فهمه، وكذا عظمة الفهم التى لا يترتب عليها عمل بمقتضى المفهوم، وجودها كعدمها فمن لم يعمل بما فهم كان غبياً بين الغباء؛ لأنه لم يفهم الثمرة والخلاصة، فهو بمثابة من عرف كيف يجمع المال على عبقرية وعلم وحل، ثم هو فى النهاية يرمى به فى البحر، أو يحرقه، وقد ضرب الحق – تعالى- لنا مثلاً بامرأة كانت فى مكة تجمع فتياتها وتغزل معهن غزلاً نافعاً قوياً، فإذا انتهى النهار وغربت الشمس أمرتهن أن ينقضن غزلهن، فما أطيب ما فعلت أول النهار، وما أسوأ ما فعلت آخره، لذا قال الله – عز وجل-: **﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾**.

وبإجماع العلماء والمفسرين أن هذا مثل مضروب فى الحمق والغباء، وكذلك من يحسن الفهم حتى تظنه إذا تكلم من المقربين، فإذا نظرت إلى عمله وجدته من الأبالسة الشياطين .

وقد تلتمس العذر للغبى الجاهل، ولكنك لا تجد عذراً لمثل هذا الذى ملأ الدنيا علماً ودعوة إلى الرحمة والعفو والتسامح، وهو لا يرحم أحداً ولا يعفو عن أحد، ولا يتسامح مع أحد، لذا قال الله- عز وجل-: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** وعلى مذهب الزمخشرى – رحمه الله – فى التقدير معنى أفلا تعقلون أجهلتم وغبيتم فلا تعقلون .

وقد ورد فى حديث المعراج أن فى النار أمة تعذب، كان أفرادها فى الظاهر علماء، فتعجب أهل النار من وجودهم على أبشع صورة، فسألوهم

عن سبب دخولهم النار؛ فقالوا: كنا ندعوكم إلى الخير ولا نأتيه (نفعله)، وكنا ننهاكم عن الشر ونأتيه (نفعله)، وهذا دليل على غباء هؤلاء هؤلاء فكل من دخل النار غبى، علم وفقه، أو جهل وضل، إذ المحصلة فى النهاية عمل صالح ينفع صاحبه وغيره، ولذا جاء وصف طالما نسيناه للعلماء وهو العمل، يقال: عالم عامل، والعالم العامل هو العالم بحق، أما العالم فقط فمأساة، وشره أقرب من نفسه، وقد ألف الناس فى هذا مؤلفات خاصة وكل من تحدث عن شرف العلم وفضله يذكر ذلك هذا، وقد رأيت أن أقدم هذا الكتاب فى ثلاثة فصول:

الأول : فى فضل العقل وما دفع به الإسلام الغباء .

والثانى : فى هواة الفتيا .

والثالث : فى مظاهر الغباء عند الناس .

إذ إن الدين يرى العقل مناط التكليف والتشريف، وهواة الفتيا من أهم أسباب نشر الغباء، ولابد أن يكون حديث مستقرأ من حياتنا وواقعنا، تتم به الموضوعية ويشمل توصيف الحالة ووصف الدواء، والله يهدى إلى صراط مستقيم من يشاء، أسأله عن أن يكشف عنا الغبا والوبا والربا والزنا، وأن يسترنا بستره العظيم، وصلى الله وسلم – على الموصوف بالفطنة الهادى بإذن ربه إلى سبيل الرشاد، ،آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ. د. مبروك عطية

الأستاذ فى جامعة الأزهر

الفصل الأول

فى قيمة العقل وما دفع به الإسلام الغباء عنا

قيمة العقل فى الإسلام

العقل مادته اللغوية (ع ق ل) ومن معانيها ربط فهو زمام المرء، وملاك أمره، ولله در هذا الوزير الذى سأله الملك عن خير ما يؤتى به المرء فقال: عقل يعيش به .

فقال الملك: فإن لم يكن ذا عقل

قال: مال يستره

قال الملك: فإن لم يؤت عقلاً ولا مالاً

قال الوزير: صاعقة تريح منه العباد والبلاد

أى لا خير فى حياة من لا عقل له يعيش به، ولا مال عنده يستره فإن قيل: كيف يستره المال وهو بلا عقل، ومن كان بلا عقل ضيع المال، وضيع كل شىء؟

فالجواب: أن من ملك المال ولم يملك العقل ناب عنه وليه، ومن ثم شرع الحجر حتى لا يضيع السفيه ماله قال الله - عز وجل: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

ونهى ربنا - تعالى - أوصياء اليتامى عن إتيانهم أموالهم قبل اختبارهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ فكيف يأنس الوصى من اليتامى رشداً إن لم تبد آيات العقل جلية فى تعاملهم ومعرفتهم الجيد والردئ والربح والخسارة .

ومن قصص الماضى أن عجوزاً كان يعيش مع ولد له صغير، وكان للعجوز كنز من المال، أراد أن يسلمه ولده قبل أن يموت، فاختبره، وسأله:

- لو كان معنا مال كثير فماذا تفعل به؟

فأجاب: نشترى به حلوى

فقال العجوز: لم يزل ولدى سفيهاً

وبعد مرور عام سأله السؤال نفسه فأجاب الجواب نفسه وزيادة، لكنها إضافة إلى الحلوى من لعب الأطفال .

وسأله بعد عام السؤال نفسه، فقال:

يا والدى، من أين يأتينا المال الكثير

قال: هب أن عندنا مالاً كثيراً، فماذا نفعل به؟

فقال: لو كان عندنا مال كثير لرفعنا السقف الذى فوق رءوسنا حتى لا تتساقط علينا الأمطار، ولغيرنا كذا، واشترينا قطعة الأرض التى وراء بيتنا لنوسعه ونعمل كذا وكذا .

فاطمأن الرجل إلى أن ولده قد عقل، وسلمه ماله .

ولعلك تبتسم حين أقول لك أليس مثل هذا الصبى قبل نضجه ما لايحصى من الشباب والفتيات ترى وتسمع من يقول: لو كان معنا مال كثير لاشتركنا فى ناد، وشقة على البحر، وسيارة جديدة، ولاب توب، وحذاء ماركة، وهو فى حقيقة الأمر يحتاج إلى بيت واسع، وفراش طيب ودكان يعمل فيها فى زمن البطالة والكساد.

صحيح إن بعض ما يذكرونه لا يعد من قبيل الحلوى، ولكنه يعد من قبيل سوء الفكر؛ لأن حسن الفكر آيته أن يفكر المرء فى حاجته الضرورية، التى من أجلها أحل المحرم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وقد عرف العقلاء أن على المرء أن يبدأ بالأهم، ثم المهم، وهكذا على الترتيب، وقد صار كثير من الناس يرمى بتلك الأولويات وراء ظهره، أما سمعت أم عروس ذات يوم تقول بالحيانى: أنا المهم عندى الشبكة، ليس مهماً أن تكون شقتك فى أى مكان، ليس مهماً أن تفرشها أى فرش المهم الشبكة، فما الشبكة؟ وماذا تعنى؟ وهى شىء لا داعى إليه

أصلاً، ويكفى منها أى شىء، وأى وزن، لأنها حلية وقبل الحلية هناك أساسيات، وأول شىء أمر الله تعالى به موسى وهارون- عليهما السلام- أن يتخذا من مصر بيوتاً وأول شىء فعله سيدنا محمد-ﷺ- بناء مسجد، إلى جواره حجراته، قام بنفسه يبنى، فلما رآه الأنصار أنشدو:

لإن قعدنا والنبى يعمل	**فذاك منا العمل المضلل**

وساعدوه، لكن أم العروس هذه ومثلها كثير يريد أن يغيظ الناس أو يدخل على نفوسهم المسرة بأن الخاطب جاء بالأغلى، أو بالغالى من أجل الأغلى وكم فى الناس من حامل محمول وهو ليس فى حاجة إليه ناهيك بما يقتضيه من نفقات تقيم بيتاً، وبما ترى من استعماله ورناته وكل ذلك ليس رشداً، وإنما هو للسفاهة والغباء أقرب منه للرشد والعقل.

إنما يذكر أولوا الألباب

بإجماع العلماء: العقل مناط التكليف، فمن لا عقل له لا تكليف عليه وهذا لا يعنى أن التكليف شاق، ومن ثم يدعو الجاهل على نفسه بضياع عقله حتى يسقط عنه التكليف، أو يتمنى أن لو جاء إلى الدنيا بلا عقل حتى لا يكلف أصلاً ويدخل النار، يقول هذا بسبب ما يعلم من كثرة ذنوبه ومخالفته شرع ربه- عز وجل، وهذه الأمنية قد سمعتها من كثيرين فى مناسبات عزاء لأسرة فقدت طفلاً، يقولون: إنه من الأبرار، إنه لا حساب عليه، يا ليتنا متنا فى مثل سنه، قبل أن نعيش ونكبر، ونرتكب من المعاصى ما ارتكبنا، والله يلطف بنا، فهذه قضية من قضايا التخلف وضياع الوقت الغزير فيما لا خير وراءه، ولكن الكلام فى القضاء والقدر كما قال ابن عبد البر لا يحسن إلا عند العزاء .

فهناك فرق بين أن تعزى رجلاً مات ولده الشاب بسبب رعونته أو جهله بقيادة السيارة التى ذهبت وذهبت به، فنقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكل أجل كتاب .

وبين أن تقول لشاب ما زال حياً، ولا يحسن قيادة السيارة، انطلق حيث شئت، ولا يهمنك فإن لكل أجل كتاباً، ولن تموت ناقص عمر، وأن تتعلم قيادة السيارة أو لا تتعلم سواء، هذا ضرب من الجنون والعبث لأن هذا الشاب فى وسعه أن يتعلم القيادة قبل أن يقود، وأن يأخذ حذره.

لكن الذى هلك لا يملك تلك الفرصة، فقد ضاعت، وضاعت الحياة، فالكلام فيما مضى لا يفيد، وإنما قد يقتل أهله والله عز وجل يقول: **﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾** وليس ذو اللب بمن لا يستطيع التفريق بين المحال وبين الممكن، فغاية لبه هو معرفة الفروق، وإدراك ما بينها من مسافات ومساحات فهل يليق به أن يعزى الناس قائلاً:

- فى أى سن مات ولدكم؟
- فى الثانية والعشرين .
- لا إله إلا الله، شاب نضر، بلغ الغاية التى كنتم تعدونه من أجلها، يا خسارتكم فيه، ويا خسارة شبابه، بل يا خسارة الأمة كلها فى مثله .

ليس هذا عزاء، ولا دليلاً على أن المعزى من أولى الألباب إنه نار جديدة تشعل النار التى فى قلوبهم لفقده، إنما العزاء تقوية، والتقوية لن تتحقق بإشعال النار.

وفى عزاء أولى الألباب ورد أن متمم بن نويرة حزن حزناً شديداً على أخيه مالك بن نويرة الذى قتل فى حروب الردة، وأن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قد سأله أن ينشده ما قاله فيه من شعر، فأنشده مرثيته المعروفة والتى منها قوله:

وكنا كندمانى جزيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكاً ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا

فبكى عمر، وقد تذكر أخاه شهيد اليمامة زيد بن الخطاب وقال: لو كنت أقول الشعر لقلته فى أخى زيد .

فقال له متمم:

لو مات أخى كما مات أخوك ما حزنت عليه

فقال عمر: ما عزانى فيه أحد بمثل ما عزيتنى .

شهادة من عمر -رضي الله عنه- أن متمماً أحسن الناس عزاء لعمر؛ لأنه ذكره بالحالة التى مات عليها أخوه زيد بن الخطاب، وأنه مات شهيداً، ولو أن أخاه مالك بن نويرة مات شهيداً مثله لما حزن عليه، وهذا مما له أصل فى السيرة العطرة، حيث قالت الربيع بنت النضر أم حارثة بن سراقة الذى قتل فى بدر مع رسول الله -ﷺ- قالت للنبى -ﷺ- أنت تعلم مكانة حارثة منى فإن كان فى الجنة صبرت واحتسبت، وإن كان فى غيرها أريتك ماذا أفعل.

فقال عليه الصلاة والسلام، إنها ليست جنة واحدة، وإنما هى جنان، وإن ابنك فى الفردوس الأعلى، فهدأت نفسها وصبرت واحتسبت.

وحسن العزاء كما يكون فى الموتى، يكون كذلك فى النوائب وليس العزاء فى الإسلام كلمة، وإنما هو قول وعمل لقوله-ﷺ- اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فنهم شغلوا بميتهم، وعزى عمر -رضي الله عنه- رجلاً من الصحابة فقد بصره، فوهبه عبداً يقوده، ونحن فى حاجة إلى هذا العزاء الذى يرحمنا الله به من آفة الغباء، حيث تقول للناس كلاماً جميلاً وتتركهم دون أن تمدهم بما يقويهم ونحن قادرون على ذلك!

لو كان الإيمان فى الثريا لناله رجل من هؤلاء

فى حديث رواه البخارى سئل فى سياقه رسول الله -ﷺ-- عن معنى قول الله – تعالى- **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** وكان سلمان الفارسى - فى الحضور، فوضع -ﷺ- يده على يد سلمان وقال: لو كان الإيمان فى الثريا لناله رجل من هؤلاء.

معنى هذا الحديث أن هناك نفوساً عالية تنال الإيمان ولو كان فى عليا السماء، من هؤلاء سلمان الفارسى -﵁- الذى قرأ صفات النبى -ﷺ- وكان نصرانياً، فتثبت منها - قرأ أنه -ﷺ- يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فجاء بثمر، وقدمه إليه، وقال: هذا من الصدقة، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: كلوا، ولم يأكل منه، وجاء بعد ذلك بثمر، وقال: هذا هدية، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: كلوا، وأكل منه معهم، وكاتب نفسه فأعتقها، لا لينال حرية الأغبياء التى ينشدون فيها الأشعار، ويجلسون واضعى رجلاً على رجل، ولا يتحركون لإنجاز عمل ولا لتحقيق منفعة وكان صاحب فكرة الخندق، وجاهد فى الله حق جهاده، وكان يصنع الخوص، ويبيعه ويأكل من عمل يده وهو أمير على المدائن.

والشاهد فى الحديث دعوة الناس إلى إعمال العقل، وإشعال نار الفكر التى تسفر عن معادنه فإذا الموات حياة، وإذا العسير يسير، وإذا البعيد قريب وإذا كان الإيمان ينال بالعقل، قال سبحانه: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فإن هذا الحديث شهادة من رسول الله -ﷺ- لسلمان الفارسى بأنه مكتمل العقل قادر على تحقيق الإيمان فيه، ولا شك أنه سمع قول رسول الله -ﷺ- ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود -﵇- كان يأكل من عمل يده، وقد عمل سلمان بيده وأكل، وحين كتب إليه أخوه أبو الدرداء أنه نقل إلى الشام الأرض المباركة كتب إليه سلمان يقول: جاءنى كتابك وعلمت أنك نقلت إلى الأرض المباركة فاعلم أن الأرض لا تعمل لأصحابها"، أى لن تنفعك الأرض المباركة وأنت بلا عمل صالح، ومن اليقين أنه لم يكن يتهم أخاه بسوء العمل، وإنما هى النصيحة، تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، وهو يذكر أخاه بقيمة العمل، وأهميته بالنسبة إلى العبد المكلف فلن ينفعه أن يكون فى أرض مباركة وهو غير مبارك، ودليل ذلك قول الله - عز وجل- ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ

رَهِينٌ﴾ وقد روى البخارى أن أعرابياً قال للنبى -ﷺ- حدثنى عن الهجرة، فقال له -ﷺ- ويحك إن أمرها لشديد، هل لك من إبل؟ قال: نعم قال: هل تؤدى صدقتها؟ قال: نعم، قال: اذهب إلى بلدك، وارع إبلك، وأد صدقتها، واعلم أن الله لن يتركك عملك ولو كنت وراء البحار.

أى فى أى بلد تكون ما دمت تعمل وتؤدى ما عليك فلن ينقص عملك، فقد تكون فى المدينة المنورة والعياذ بالله وأنت على نفاق فلن ينفعك تعاملك بالمدينة المنورة، وكذلك لو كنت فى المسجد الحرام والعياذ بالله وفى صدرك شىء من إفساده بظلم فما زادك وجودك بالمسجد الحرام إلا عذاباً، ولو كنت فى أى مكان وعملت للآخرة فإن سعيك مشكور، وذنبك مغفور.

هذا من مقتضى الإيمان الذى يناله ذو اللب بعقله وهو قادر على فهم تعاليمه موفق لإدراك مقاصده، عامل بما يعمل.

وكثير من الناس يعتقد فى المكان أكثر مما يعتقد فى العمل، لا شىء عنده يعدل وجوده فى هذا المكان، حتى ولو ترك من أجله مصالح ومنافع، حتى ولو ضيع من أجله من يقوت، بأن ركن فيه، وتبرك به، ولابركة فيه فقد قال النبى -ﷺ- كفى المرء إثماً أن يضيع من يعول.

سمعت رجلاً يقول: الود ودى أن أعيش فى المدينة المنورة لكى أدفن بالبقيع، فقال له صاحبه: وأولادك الصغار؟ قال: يحرقون بزيت مغلى، إنهم لن ينفعونى يوم القيامة، وهذا غباء، فإنهم نافعوه بلا شك إذا رباهم وأحسن تربيتهم وأنفق عليهم، يكون ذلك كله فى ميزانه يوم تجد كل نفس ما أحضرت وما عملت من خير محضراً، لكنه الغباء الذى يذهب به إلى النار!

كيف يوصف المشركون بالغباء وهم متقدمون

قد يسأل سائل، فيقول: كيف يوصف المشركون بالغباء ونحن نراهم أذكياء، يضرب بهم المثل فى عبقرية الاختراعات، وتقدمهم العلمى عظيم ظاهر، لا يخفى على أحد، وخصوصاً ما وصلوا إليه فى هذا الزمان، حيث صاروا منتجين وصارت الأمة الإسلامية مستهلكة .

وقد طاروا فى الآفاق، ووصلوا إلى القمر والكواكب الأخرى، واكتشفوا الداء، ونجحوا فى وصف الدواء ونحن – ولله الحمد على كل حال– عرفنا كيف نمرض ولم نعرف كيف نتداوى.

والجواب عن ذلك يستفاد من قول العلماء إنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، لكنهم كما قال الله عز وجل فى آية الروم (٧): **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**.

قال المبرد – رحمه الله–: قسم كسرى أيامه فقال: يصلح يوم المريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب، واللهو، ويوم الشمس للحوائج قال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسته دنياهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

وهذا الظاهر من الحياة الدنيا هو كل ما من شأنه إصلاح الحياة الدنيا، من عمل وتجربة وطب، وهندسة، وعلوم مختلفة إنهم فى ذلك علماء، عباقرة، لكنهم فى الوقت نفسه غافلون عن الآخرة التى تتطلب سعياً على منهج الله عز وجل.

ومن هذا المنهج العلم بظاهر الحياة الدنيا، لأن الإسلام لم يدع الناس إلى الجهل بظاهرها، وإنما دعاهم إلى العلم بها، واتخاذ أطيب ما فيها، وأمر بالسعى من أجل تحصيل الرزق، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾**.

وقال –ﷺ– "أنتم أدرى بأمور دنياكم" وسره –ﷺ– أن عرف من عجوز أن زارع النخل مسلم، حين أعجبه بستان وارف الظلال، فسأل: من غرس هذا الزرع مسلم أم غير مسلم، فلما قالت: مسلم يا رسول الله فرح بذلك فرحاً شديداً .

وسره –ﷺ– أن أضاء غلام مسجده، ووضع فيه سراجاً، وسمى ذلك الغلام سراجاً باسم السراج الذى وضعه فى مسجده الشريف –ﷺ–.

وقال لمولى له رآه قد حمل أحمال الصحابة وخاض بها فى الوادى الذى امتلأ ماء: احمل فإنما أنت سفينة، وسماه سفينة.

وجمع –ﷺ– لسعد بن أبى وقاص يوم بدر، بين أبيه وأمه، فقال له: ارم بأبى أنت وأمى، وذلك حين رآه يجيد الرمى .

وقد ظن كثير من الناس أن الإسلام يلعن الدنيا، ويأمر بأن يطلقها الراغب فى الآخرة طلاقاً بالثلاث بائناً بينونة كبرى، أى لا رجعة فيه، وما أكثر القصص والروايات والتراجم والسير التى يذكر فيها أن فلاناً طلق الدنيا، وفلاناً عزف وزهد إلى آخر ذلك مما أخر الأمة ودعاها إلى التواكل والنوم.

لكنها المعادلة، التى قال الله عز وجل فيها **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** وقال سبحانه فيها: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**.

فمن أهمل الدنيا كان عاصياً، إذ إنه لابد أن يعيش فيها، كما قال محمد بن القاسم: "لو كانت الدنيا كلها حراماً لم يكن بد من العيش فيها" وهو حيث أهملها ويعيش فيها فسوف يكون عالة على غيره، وإنما يعيش عالة على غيره من كان عاجزاً، أما القادر على الكسب فعليه أن يعمل، وإلا كان عاصياً، وقد قال –ﷺ– كفى المرء إثماً أن يضيع من يعول، ومن أهمل الآخرة وأجاد العلم بظاهر الحياة الدنيا كان من الغباء بمكان وإن طار فى الآفاق، ووصل إلى ما لا يطاق، من أجل هذا كان الكافر غبياً؛ لأن مآله إلى النار، وكان بوسعه أن يزحزح عنها.

وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون

يقول الله – عز وجل-: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ معنى: يكشف عن ساق: أى يوم القيامة، الذى هو يوم الأهوال والمخاطر .

فى هذا اليوم يسجد لله – عز وجل- كل مؤمن ومؤمنة إلا من كان يسجد فى الدنيا رياء، يأتى ليسجد فإذا ظهره طبقة وحدة، أى لا يستطيع السجود، رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى.

والشاهد فى هذه الآية الكريمة ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أى من آيات الغباء ألا يؤدى العبد ما كلفه الله به وهو قادر عليه لقد كان الكافر فى الدنيا يدعى إلى عبادة الله – عز وجل- ومع وضوح الآيات البينات، ومع دلائل الكون التى تثبت عن يقين أن الله -عزوجل- واحد لا شريك له، ومع ما كلفه الله به من أمور، وهو قادر على أدائها، مع ذلك كله أبى واستكبر، وقال: لا

إنه اليوم يدعى إلى السجود، فلا يستطيع وكأن هاتين الآيتين مع كونهما كاشفتين عن حقيقة وهى يوم القيامة، وسجود الناس فيه لرب العالمين، مع ذلك هما كاشفتان عن معنى غباء الناس، الذين كانوا قادرين على أداء عمل فى وقت ما، فلم يعملوه، وجاء وقت آخر يدعون فيه إلى القيام بهذا العمل، فلا يستطيعون، ولو عملوه فى الوقت الذى كانوا قادرين فيه على عمله لكان خيراً، وكثير من الناس يفسد ما بينه وبين الناس بسبب ذلك.

وقد رأيت رجلاً أصيب بشلل، يدعو بنيه أن يحملوه إلى زيارة أخيه، شعر بالندم وتذكر وهو فى شدة مرضه رجاء أخيه أن

يزوره فقال له يومئذ: لو مت فلن أدخل دارك، ولو كان يومى قبل يومك فلا تدخل دارى.

وهذا أيضاً من المبالغة فى الفحش، وهى من آيات الغباء، كل هذه المبالغة بسبب أن ابنه ضرب ابنه قال الرجل الذى أصيب بالشلل: ما ضربه من تلقاء نفسه، إنما ضربه بوحى من أبيه وأمه، أنا أعلم أن أخى يكرهنى، وأن زوجته تبغض زوجتى، إنهما لا يحبان الخير لنا، وبما أن سيرة زوجته قد حضرت، وشمت منها أن (سلفتها) تكرهها فقد وافقته، وذكرته بما يؤكد فكرته، أتذكر يوم كذا، حيث كنت – لا أعادها الله- تعانى نزلة برد شديدة، وقد علم، وزارك كل الناس، الأباعد قبل الأقارب، ولم يأت هو ولا زوجته من أجل زيارتك!

وتذكر لو كنت أنسيت يوم اشترينا قطعة الأرض – أعطاك الله العمر حتى تعمرها، يومها فرح لك البعيد قبل القريب إلا أخاك وزوجته، لا أدرى أى سواد عندهما وما سببه، مع أنك صاحب فضل عليه، جاءت من عمق دارها، وصنعت حواشى غير ذات بهجة على ضفاف الغضب، فزادته رسوخاً فى الصدر، فلم يقبل اعتذار أخيه، ولا اعتذار ولده، وزوجته، ولم تسمع أذناه صوت "حقك على" و"قم واضرب ابن أخيك واضربنى معه، وافعل ما تشاء، فقط، لا تغضب" وزادته هذه الكلمات نفوراً، وحين قالت زوجة أخيه الذى عاد إلى بيته حزيناً: لا عليك، نحن نذبح له شاة، وهو يحب لحم الضأن، وكذا وكذا، ووجه إليه الدعوة يذهب ما فى نفسه، وأعد الرجل العدة وجهز صنوف الطعام الطيب، وغبرت أتربة الأرض قدميه، وسعى بجد إليه، وسكب عبرات الندم والرجاء عليه قال له: ولو!

لم يذهب إليه، ولم يجبر خاطره، والآن بعد أن أصبح فاقد الحركة يود من يحمله إليه، وبما أن الشلل كان مصحوباً بفقد الكلام فإن إشاراته لم تصل إلى بنيه، أو وصلت ولكن الذين يترجمون الإشارات يتظاهرون بالغباء وعدم الفهم؛ لأنهم ورثوا الغضب والسواد، لا أحد أجابه، أراد زيارة أخيه حيث لا يستطيع وكان بإمكانه زيارته وهو قادر!

ما زادهم إلا نفورا

هناك من الناس من إذا قلت له كلمة طيبة أقبل عليك، وقبل منك، وهناك من إذا قلت له الكلمة نفسها وزيادة من واديها الطيب ما زاده ذلك إلا نفوراً، أى غباء هذا؟

إنه وجه الشبه البغيض بين الكافرين وبين المسلمين الذين يصرون على الباطل، قال الله -عز وجل- فى الكاذبين فى سورة فاطر الآية (٤٢): **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا﴾**.

وقال سبحانه فى آية البقرة (٨٩): **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**.

وما أكثر الذين يتشبهون بهؤلاء، منذ زمان غير بعيد جلس رجل إلى ولده الذى فشل فى السنة الأولى من دراسته الجامعية، وقال له: إنى لم أقصر فى حقك، وهيأت لك كل أسباب الفوز والتفوق، لا شك أنك قصرت وأهملت، ماذا فيك يا ولدى؟ فقال بالنص: بصراحة يا والدى أنت السبب، وفزع الرجل وقد طاف مقتضى هذه العبارة برأسه؛ ففاضت عيناه فى لحظة، وقال: أنا! إنى لم أدخر وسعاً من أجلك، ومنتهى رجائى أن تكون أفضل إنسان فى الوجود؛ فأنت قطعة منى، كيف تقول هذا يا ولدى؟

قال: حدثت لى عقدة

قال أبوه: من أى شىء

قال: لأنك لم تشتر لى سيارة، وزملائى كلهم يركبون سيارات حديثة

قال: كل زملائك !

قال: الذين هم فى مستوى معيشتى يا والدى وأقل، والذين كانوا معى فى الثانوية، وأنت تعرفهم وتحامل الرجل على نفسه، ولم يملك إلا أن اشترى له سيارة فرح بها، وركبها، وفشل آخر الأمر.

وهذه شابة تزوجت فى بيت عائلة، كانت لها شقتها الخاصة، لكن حياتها كانت فى منتهى التعاسة، أتعست زوجها وهى من قبل وارثة تلك التعاسة، ولأنها ذات طفلة قال لها زوجها ذات يوم: أى شىء فيك، أى شيطان يعتريك، نحن فى نعمة ولله الحمد، فلم هذا الشقاء؟ قالت له: بصراحة أنا غير مرتاحة هنا، إخوتك وأمك وأبوك يهجمون على كما هجم التتار على بلاد المسلمين، نهبوها، وأحرقوا تراثها، وخربوها إن كنت غالية عندك فانقلنى من هنا، وسوف ترى سوف أجعلك أسعد زوج فى الدنيا، وسوف وسوف وسوف.

وقد كان بذل الزوج الغالى، وهان عليه أمر الديون، واشترى لها شقة فى مكان بعيد، وأقسم بالله أنها ازدادت سوءاً ورعونة، وقبحاً ودمامة كان نهارها ليلاً تنام فيه، وليلها نهاراً تصحو فيه أمام التلفاز، وحين ذكرها بوعدها القديم قالت له: أنت هكذا دائماً، صاحب من وأذى، تريد إذلالى بسبب الشقة، وعيرته بها، وقالت: أتظن أن هذه شقة!، ثم إنك لم تكتبها باسمى حتى أطمئن، ثم ماذا حدث، ما زال أهلك يأتون إلينا أكثر مما كانوا يأتوننا ونحن فى بيت واحد، ثم قالت "عيشة مقرفة".

ولو أن هذه الزوجة تملكت الشقة، أو انتقلت إلى قصر فسيح مريح، وكان أيضاً باسمها ما أسعدته؛ لأنها كما قال الله تعالى فى الأغبياء **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾** يعنى كما يقول الناس لا فائدة؛ لأن الغباء قد استحكم، وملك النفوس فلا شىء يرضى الأغبياء، الذين لولا الغباء لعاشوا سعداء فى بيت العائلة وفى بيت الفرد، وعلى الرصيف، والذين لولا الغباء لفرحوا بالجديد، ونفذوا العهد القديم الذى كان مرتباً عليه، لكنهم بسبب غبائهم يتعسون، ويتعسون من حولهم!

علم نصعد به إلى السماء وعلم نهوى به فى الظلمات

يبذل العلماء جهداً عظيماً فى العلم النافع الذين يسعدون به أنفسهم وأهليهم وجميع من حولهم، وربما ماتوا قبل أن تخرج نظرياتهم إلى النور تطبيقاً عملياً، وجاء من بعدهم فأكمل مسيرتهم، وأخرج مبتكرات عقولهم إلى النور، وكفاهم فخراً أنهم كانوا نواة، أو قطعة فى حلقة مستديرة لما تكتمل استدارتها بعد، ولن تكتمل، إذ كل يوم يأتى عالم جديد، هو إضافة جديدة إلى هذا الصرح العملاق ترى، هل هذا الجهد المتضاعف كل يوم ينفع الناس أم هذا الجهد الذى هو أضعاف جهد العلماء الذى يبذله الأغبياء فى علم نهوى به فى الظلمات، إن ما يبذله الأغبياء من جهد فى العلم ببواطن الأمور، والتجسس، ومعرفة الأخبار جهد كبير جداً، لكنه يدعو إلى الرثاء، حيث إن جهد العلماء مبذول، لكى نصعد به إلى السماء، أما جهد هؤلاء فمبذول لكى نهوى به فى الظلمات، ولا تستوى الظلمات ولا النور.

قد يموت العالم كما ذكرت وقد ترك عملاً يكمله غيره، ومثال ذلك تطور العلوم كلها، فما كانت لتتطور لولا أن لها قاعدة أسسها عالم قديم، وتجاذبتها عقول من بعده، وقد بدأ الجلال المحلى- رحمه الله- يفسر القرآن الكريم، وفسر نصفه، ووافته المنية فأكمله جلال الدين السيوطى- رحمه الله- على منهجه وطريقته، وهو التفسير المعروف بتفسير الجلالين، ولدينا تراث عظيم معروف بالحواشى، التى ألفها أصحابها على متون وشروح انتهى منها مؤلفوها، وجاء أصحاب الحواشى ففسروا الغامض، ونسبوا غير المنسوب، وأكملوا الناقص، وغير ذلك، وهو جهد مشكور، وكما أن هناك هذا التراث من الحواشى العلمية هناك كذلك من حواشى الأغبياء ما سوف يأتى الحديث عنه بإذن الله، لنبين طرفاً من الفروق بين حواشى العلماء وحواشى الأغبياء.

ومن أمثلة الجهد المبذول من الأغبياء أنك تسمع من يقول إن فلانا مر بهذا الشارع؛ لأنه ينوى قطع الطريق على فلان وفلان، فهو يرى ما سوف يفعل فيهما من سوء ولا بد أن يدرس الطريق، أو أنه مشى فيه ليفحص قطعة الأرض الخالية قبل أن يشتريها.

- هل قال لك هذا؟
- لا
- هل سمعت أحداً من قبله يقول هذا؟
- لا
- هل سمعت أحداً ما يقول هذا؟
- لا
- على أى أساس قلت؟
- أنا أبو المفهومية، لا أحتاج أن أسمع من أحد أنا أفهم المسائل وهى طائرة.

ولعلك قد سمعت مثلى من يقول: فلان لا ينطوى صدره على خير، ويقسم بالله على ذلك وربما كان يقرأ، أو على الأقل يسمع قول الله- تعالى- ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾. وقول رسول الله-ﷺ- "إن الله لم يأمرنى أن أفتش عما فى قلوب الناس" رواه البخارى.

لكن متى كان الغبى يتدبر، ومتى كان يعى ما يسمع!

إنك قد تصل فى نهاية الأمر إلى أن تقول: كأن الله- عز وجل- يخاطب أمة غيرنا، وكأن رسول الله-ﷺ- بعث إلى أمة سوانا، انظر إلى رجل، بل رجال، بذلوا جهداً عنيفاً فى الوصول إلى رجل يسكن قرية بعيدة، فى حضن جبل، يقال فيه إنه يعلم، وتأمل هذه الكلمة التى يقال

فيها "يعرف" فماذا يعلم؟ وماذا يعرف؟ يعلم الغيب والطالع ويعرف المخبأ الذى تحمله الأيام، ومع الأسف قد يكون هذا الرجل حاملاً شهادة جامعية، وفى مركز مرموق، يذهب إليه، ويجلس بين يديه، ويرمى بياضه، ويدفع، وينفق، ويرهق، ويسمع كلاماً فارغاً ويعود مطمئناً، ولو ذكر الله فى بيته النظيف، وعلى أريكته المحترمة المريحة لاطمأن قلبه، قال تعالى **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**. أى بذكر أحكام شرعه ووعده الحق من أحسن عملاً، وهذا الذى فعله ليس من الحسن فى شيء، إنه منتهى الإساءة، وهل يعود مطمئناً بالسوء إلا من كان غبياً، يدخل النار بسبب غبائه، ولو أعمل عقله لأراح نفسه ودخل الجنة!

وابتسم رسول الله -ﷺ- مبالغة فى الرضا كان عمرو بن العاص قد بعثه رسول الله -ﷺ- قائداً فى ذات السلاسل، وقاد عمرو الجيش خير قيادة، وكان خبيراً بالمكان، لأن فيه أخواله، والنبى -ﷺ- يضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب، وذات ليلة احتلم عمرو بن العاص، فأصبح جنباً، وكان البرد شديداً، فرأى أنه لو اغتسل لقتل نفسه، وتذكر قول الله- تعالى-: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾**. فتيمم، وصلى بالناس؛ لأنه هو القائد.

وعلم الناس بذلك، وأخبروا رسول الله -ﷺ- بما كان من عمرو فسأله- فقال: يا رسول الله كان البرد شديداً، وقد تذكرت قول الله- سبحانه-: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾**. فتيممت، فابتسم رسول الله -ﷺ- مبالغة فى الرضا بما صنع عمرو -رضي الله عنه-، ذكر ذلك العلماء، فقالوا: إن رسول الله -ﷺ- لو سكت لكان سكوته رضا وإقراراً منه -ﷺ- فما بالنا وقد ابتسم، إن ابتسامته -ﷺ- دليل على مبالغته فى الرضا وقبول الموقف.

أعمل عمرو بن العاص عقله، وتذكر القرآن الكريم ورأى أن قتل النفس ليس فقط فى الانتحار، وإنما بتعريضها إلى ما يهلكها، وفى هذا

الموقف، رأى أن الاغتسال بالماء فى جو شديد البرودة قتل للنفس، وأن البديل موجود وهو التيمم.

وقد جاء الفقهاء بعد ذلك، وأعملوا عقولهم، فاستنبطوا الدرر من الأحكام، ولولا هذا الإعمال للعقول ما كان هذا التراث الضخم من الفقه الإسلامى الذى يثبت بالدليل الشرعى أن الإسلام يتسع لكل زمان ومكان.

فإذا رأيت الناس قد خرجوا من دراسة الدين بكونه الثوب القصير والشكل المعروف، وأنه السواك، وجزاك الله خيراً، وترى الشاب ينادى أخاه بالأخ، وهو لا يدرى مقتضى الأخوة، وهو يناديه بالأخ لأنه على مثل هيئته.

وفى كل رمضان تحدث مشكلة، وهى إصرار هؤلاء الهواة على إخراج زكاة الفطر من القوت، تقوم الدنيا بسبب ذلك، لا يرون إخراجها مالاً، أى لا يرون إخراج القيمة، لا بد من التمر، أو الزبيب وكأن أباحنيفة الذى أجاز إخراج القيمة لم يفهم الدين، وفهمه هؤلاء الهواة، وكذلك من وافق أباحنيفة من الفقهاء، هم كذلك لا يفهمون، ولو أن رجلاً من العلماء أخرج زكاة الفطر قيمة وجاء رسول الله -ﷺ-، وقال له: يا رسول الله، وجدت المساكين فى المدن لا يصلح لهم غير هذا، فقد قلت وقولك الوحى: أغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم ووجدت أن إغناءهم فى هذا اليوم أن يشتروا بالمال ما يريدون، فلو تزاحمت عليهم البقول لباعوها بالرخص، ولم يغنوا فى ذلك اليوم ولا فى غيره، بل إن البقال أو التاجر سوف يشتريها منهم بأبخس الأثمان، ثم يبيعها للفقراء أنفسهم بأغلى الأسعار إن أولادهم يارسول الله- تشتهى فاكهة، وتحتاج إلى ثوب جديد فى العيد؛ لذا رأيت أن من المصلحة أن يأخذوها مالاً، لو قال قائل لرسول الله -ﷺ- ذلك لوافقه الله، وسره، وقد أعمل أبوطلحة عقله، فرأى أن قول الله- عز وجل- من سورة آل عمران: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا**

مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. يتحقق فيه إذا تصدق بأحب ماله إليه "البيروحاء" وعرض عليه -ﷺ- ذلك، فقال له: ذاك مال رابح، ولكن اجعلها فى أقاربك، فجعلها -رضي الله عنه- فى أقاربه، ما قال له: هذا ضياع لك ولأهلك؛ لأن ذلك أحب ماله إليه، وليس جميع ماله، فقد أبى -ﷺ- أن يتصدق سعد بن أبى وقاص بجميع ماله، ووافقه على الثلث، وقال: والثلث كثير، إنك إذا تركت ورثتك أغنياء كان ذلك خيراً من أن تتركهم عالة يتكففون الناس، ففى الشرع ميزان، يقول إن العقل يتفق معه أن تتصدق بالثلث، ولكن لا يتفق معه أن تخرج من مالك كله، وتبقى عالة على غيرك إنه دين العقلاء الأذكياء لا الأغبياء.

بين المال والغباء

أن آتاه الله الملك

شىء عجيب أن تجد أن الملك سبب فى الغباء مع الله- عز وجل- وليس كل ملك كذلك، هناك ملك أتاه الله الملك فسجد لله وشكر، وهناك آخر أتاه الله الملك فكفر وفجر، والدليل على ذلك أن سليمان -عليه السلام- آتاه الله ملكاً لم يكن لأحد من بعده، وقال: **﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾**.

والنمروذ آتاه الله الملك فحاج إبراهيم فى ربه، وقال: أنا أحى وأميت بعد أن قال إبراهيم: ربى الذى يحيى ويميت، فلما قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب بهت، والله لا يهدى القوم الظالمين، قال الله عز وجل: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾**.

أى بأن آتاه الله الملك.

وتكررت الآيات الكريمة فى هذا السياق، تأمل قول الله -عز وجل-: **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾**. وبسبب أن الله- عز وجل- جعل له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً فكر، ثم فكر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، وانتهى إلى أن القرآن الكريم سحر يؤثر وقول البشر.

والله- عز وجل- يقول: **﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾**. أى بسبب أن كان ذا مال وبنين يقول فى آياتنا أساطير الأولين.

ويقول الله تبارك وتعالى: **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾**.

أى بسبب الغنى يطغى.

ويقول الله- عز وجل-: **﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾**.

وهكذا عموم القرآن الكريم يشيع فيه هذا المعنى وذلك دليل على أن المال جد خطير، وعلى أن الملك سلاح ذو حدين، كان هذا فى الماضى، واليوم تستطيع أن تقول، سلاح ذو ألف حد، وقد وجدت تفسيراً لذلك فى الكتاب العزيز، حيث يقول الله تعالى: **﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾**، فالمال فيه سحر عجيب، يملى على صاحبه معنى التفوق، حيث يخضع له كثير من الناس فى الغالب، ويجد من يرفعه فوق الرءوس، ومن يقضى له حاجته، ومن يفزع عند لقائه فزعاً لا يكون منه مثله إذا حضرت الصلاة، أو دعا الداعى إلى فضيلة، ونحو هذا، فالغنى يخرج من بيته، يجد أكثر من سيارة، وأكثر من حارس، وحراساً، ومن يوسعون له الطريق، وإن أشار بيده جاءه عشرة، وإن لمح شيئاً وجد اعتذاراً قبل أن يفصح عما رآه، آسف يا سيدى، أنا فقط أضع هذا الشىء هنا طمعاً فى رحابة صدرك.

ألوف من الناس يقول له كل منهم: أنا خدامك أنا من رجالك، أنا من محاسيبك، وأهلى ومن حولى من الجيران، وما أنا إلا مسمار فى حذائك، وغير ذلك من عبارات الخضوع التى لا يرى مثلها لله رب العالمين، وقد ترى الرجل من هؤلاء آية فى البلاغة مع ذوى السلطان وإذا لقيك سألك عن دعاء، ماذا يقول مناجياً رب العالمين ذا الجلال والإكرام، ولا شك أن مثل هذا ينفخ فيه فيرى نفسه مخلداً بلا موت، باقياً بلا فناء، غنياً بلا فقر، صحيحاً بلا مرض، وهذا يورثه الغباء مع الله عز وجل، فيطغى كما قال الله- عز وجل- ويتكبر يعلم كل شىء إلا أن يكون عبداً لله رب العالمين.

ومن ثم ترى بعض الناس لا يحب المال بسبب ذلك، يقول: قليل يكفى خير من كثير يطغى ومنهم الصادق، ومنهم من يجعل ذلك شماعة يعلق عليها تخلفه وسوء حاله الذى كان سبباً.

قال إنما أوتيته على علم عندى

من النماذج الصريحة فى القرآن الكريم التى ضربها الحق تعالى ليعتبر بها عباده، ويتعظوا، وهى من أحسن القصص قارون، ذلك الذى كان من قوم موسى، فبغى عليهم. قال الله- عز وجل-: **﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾**. تأمل قول الله- تعالى- آتيناه، فهل قال قارون: آتنى الله كما قال سليمان-عليه السلام- فما آتانى الله خير مما آتاكم لا، لم يقل قارون ذلك، وإنما قال كما حكى لنا القرآن الكريم فى سورة القصص: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾**. وكان بلا شك عالماً، لكن أنظر إلى هذا العلم الذى كان سبباً فى المال الكثير، ألم يكن علماً على قواعد وأصول وخبرة ومعرفة؟ ألم يكن صاحبه ذا عقل وفكر؟ الجواب عن كل ذلك: بلى، ولكنه كما قال الله- عز وجل- **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**.

أى أنه أستاذ فى الكيمياء، يعرف كيف يضبط المعادلة، وكيف يعد المكونات الطبيعية ويخرج منها غيرها، ويصل إلى عظيم النتائج، لكنه جاهل بضبط نفسه على صراط ربه، غفل عن آيات القدرة فرآها كما قيل: لا تفنى ولا تخلق من عدم، ولم يفكر أن كل شىء كان عدماً فأوجده الموجد بقدرته وعظمته خرج قارون فى زينته، فألفى ما يجده مثله من عشاق الحياة الدنيا وزينتها؛ فقالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، إنه لذو حظ عظيم، لا شك أنهم نظروا إليه نظرة إعجاب، سالت منها خيوط من التعظيم، فنسجت بيتاً من الوهم على ناظريه، فرأى نفسه سيداً والناس عبيداً، من فى الناس مثله، إنه فى القمة دائماً دون سواه أليس يرى الناس يرفعونه ويخفضون له الأجنحة والضلوع.

أليس يأمر الرجل وفى حلقه لقمة فيجيبه قبل أن يبتلعها أو يرمى بها حتى ولو فاضت بسببها نفسه قائلاً: لبيك سيدى ومولاى.

ضعف الإنسان أمام المال شنيع إلا من رحم الله، هذا هو الذى قواه، وإن قال له قائل: أحسن كما أحسن الله إليك ذهب صوته وسط هذا الضجيج من لغو المفتونين بالمال، الذين يضربون الدفوف على وقع خطاه، ويقولون له أخطأ أو أصاب: الله الله.

وقد حاور أهل العلم والإيمان هؤلاء وقالوا لهم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً وكأن هذا الصوت لم يلق مكاناً فى الصدور، إلى جانب صوت المال وبريق الزينة، والدليل على ذلك أن أجمل صوت فى الوجود، وأصح دعوة فى الدنيا صوت محمد-ﷺ- ودعوته، تركهما الناس، وانصرفوا إلى التجارة، اقرأ قول الله- عز وجل-: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾**. وقال الله- عز وجل-: **﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾**.

وهذا الصوت الذى كان من أهل العلم والإيمان كان أوقع منه صوت الخسف، والزلزلة، فلما خسف الله بقارون وبداره الأرض، ولم تكن له

من فئة ينصرونه من دون الله صحا ضمير المتمنين أن يكون لهم مثل الذى كان له، حين صار أثراً بعد عين، وخبراً بعد وجود، وطللاً بعد صرح، وكأنه ما كان وما عاش وما خرج عليهم يوماً فى زينته، عند ذلك قالوا:آمناً بالله، والحمد لله الذى من علينا،ولولا أنه من علينا لخسف بنا.

ودائماً ترى من تستخفه الزينة لا يردعه الوعظ، وإنما يردعه الزلزال، كما جذبه البريق يؤدبه الخسف أو الغريق، أما ذو القلب الحى والضمير النابض فإن الكلمة تؤثر فيه؛ لأن الحياة التى فى قلبه تستدعى معانى الكلمة، فيراها مشخصة ماثلة أمام عينيه، يستحضر صورتها، ويرى موقعه منها، ومن ثم قال الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾**. إنه ليس مجرد تذكر لفظى، وإنما استحضروا العذاب فرأوه فأبصروا ولم يقعوا فى المعاصى، ولذا قال على- كرم الله وجهه- لو كشف لى الحجاب ما ازددت يقيناً، لأنه يرى ما يؤمن به، ويطمئن إليه، وما هكذا يكون حال الأغبياء.

فى بيت الكفر امرأة مؤمنة

فى قصر منيف، وعز وسلطان، وفى ملك متمكن، سكنت وهى ربة القصر، وزوجة من قال للناس: أنا ربكم الأعلى، ولو قالت للناس: اعبدونى معه لأمرهم بأن يعبدوها هى الأخرى، فقد كانت ذات حظوة عنده ومكانة، بدليل أنها قالت فى موسى-عليه السلام- لا تقتلوه؛ فاستجابوا لها، ولم يقتلوه، وكان همهم أن يقتلوا أبناء بنى إسرائيل ويستحيوا نساءهم، ورأت امرأة فرعون الآيات المبصرة التى رآها زوجها وملأه، وقالوا كما يقول أمثالهم: سحر مبين فآمنت بالله رب العالمين، رب موسى وهارون، ومن ثم جعلها الله- عز وجل- مثلاً للذين آمنوا يحتذى ومثالاً به يقتدى، حيث قالت: **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**.

وإنما كانت مثلاً للذين آمنوا لأن بريق المال، وزينة الحياة الدنيا لم يصرفاها عن التبصر ولم ينسجا فوق صدرها سحابات السواد التى تغشى البصيرة، حتى تغمى، إذ تستغرق فى الملذات، وتتعمق فى الشهوات، فلا ترى سوى الدنيا التى هى دار فانية وبعدها النيران والجنات، لقد تحدت امرأة فرعون ما لا يقوى على تحديه كثير من الناس الذين يسيل لعابهم إذا رأوا من بعيد زينة، وسمعوا ولو فى المنام صوت المال ورأوا صورته، فتحت أبواب قلبها حيث وقف شديد الحراس عليه يوصدونه إلا فى وجه الراعى إلى المزيد من المال والثروة، والجاه والسلطان، كل شىء من هذا القبيل تفتح أمامه أبواب القلب، وما عداه من دعوة الحق عدو له، ولنبضه الذى تحركه دفوف المال ولا يتحرك لقول:لا إله إلا الله.

إن فتاة فى زماننا قد تقول: لا بد أن توافقى يا بنت زوجك، وتسايريه، تزوجته وهى وسط فإذا بها فى قمة التطرف، من أجل سيارة وقصر وأوراق البنكنوت، تشرب معه الخمر، وتدخن السجائر وتجالس رفاقه، وتعيب المصلين، وتنتقد رجال العلم بالدين، فكل هؤلاء شرذمة قليلون، لا يفهمون صحيح الدين، إنهم كما تقول بلسانها (عقد) أما ماهى عليه من تفريط فعبقرية حقيقية، وقد قالت لها مرة رفيقة سوء لم تبلغ من المال ما بلغت: إن العبادة غير ضرورية، بدليل أن النبى-ﷺ- يقول أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين، فاكفلى يتيماً تدخلى الجنة ومع رسول الله-ﷺ- ولا داعى إلى صلاة وصيام وحج.

فأيقظت زوجها من سكراته وزفت إليه البشرى، وجديد الفتيا؛ فقال: واكفلى لى ثلاثة أيتام معك.

هذا هو الهوس الدال على منتهى الغباء بالدين، فكافل اليتيم هو المسلم المصلى الصائم الحاج- إن كان قادراً- الموحد بالله- عز وجل- المؤمن بالله واليوم الآخر وليس ذلك الذى يخرج من جيبه دراهم لليتامى

وهو تارك للصلاة، مفطر عمداً فى رمضان دون عذر، مهمل للحج وهو واجد إليه سبيلاً، وإنما ذكر من أعماله فى سياق الحديث عن أجمل مصير، ما يتشرف به، كأنه كما يقول علماء السلف والخلف أرجى عمله، يعنى أن له أعمالاً لكن أرجى عمل عمله هو كفالة اليتيم، وهكذا.

تقول هذا فتاة مثل هذه لأنها تخشى الفقر، وتعرف أنها إن لم تساير ذلك الزوج فسوف تعود أدراجها إلى الحى العشوائى الذى سكنته وعانت فيه ما عانت، وقد تتزوج زوجاً زميلاً لزوج أختها أو ابنة خالتها يريها من الويل ما ترى أختها، وتضطر إذا احتاجت إلى شىء أن تعقد جمعية، ولا أحد إلا الله يعلم إذا كانت سوف توفيها أم ستقف فى منتصف الطريق يخشى الغبى أن يعود إلى زمان الفقر- لا أرجعه الله ولا يخشى أن يعود إلى الكفر بعد إذ هداه الله، تقول هذا مثل هذه الفتاة وهى وما معها من أموال لا تبلغ ما بلغته أقل وصيفة عند امرأة فرعون الذى قال: أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى، استحقت امرأة فرعون أن تكون مثلاً للذين آمنوا لأنها قدرت على الفتنة فرفعها الله.

واضرب لهم مثلاً رجلين

وهذان رجلان، أوتى أحدهما جنتين من أعناب، وحفهما الله- عز وجل- بنخل، وجعل بينهما زرعاً، والإسناد فى هذه القصة عجيب، حيث إنه إسناد لله- عز وجل- انظر إلى قول الله- تعالى-:

١- ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾. فالذى جعل له جنتين من أعناب هو الله.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾. فالذى حفهما بنخل هو الله.

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾. فالذى جعل بينهما زرعاً هو الله.

٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾. فالذى فجر خلالهما نهراً هو الله.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾. فنسب الجنة إليه، حيث لم يأت النظم الجليل بقوله مثلاً: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَنَا﴾. وإنما قال: ودخل جنته، فهل هى جنته؟ أم جنة الله الذى جعلها له؟

لا شك أن الجنة جنة الله- عز وجل- الذى جعلها، وأنبت شجرها، وأخرج ثمارها ونسبة الجنة إلى الرجل جنة أخرى كان على الرجل أن يشكر الله- عز وجل- عليها.

هناك إنسان تشترى من مالك بيتاً له، وأى بيت! إنه قصر كبير، وتفرشه من مالك، وتضع له فيه الزينة وآيات الجمال، وجميع الكماليات التى من شأنها أن تحقق له مزيد رفاهية وسعادة، ثم تكتب هذا البيت باسمه، وتسلمه المفتاح، وأنت معه فإذا به يقول لك: أنت فى بيتك، وأنا خادمك فيه فيزداد بذلك تمكناً منه، ويتقرب بذلك إليك، فإذا بك تزيده، وقد تشترى من أجله بيوتاً.

وهناك من تفعل معه ذلك، وبمجرد أن يتسلم عقد الملكية والمفتاح وأنت معه يقول لك: أنا فى بيتى، وأنت ضيف عندى، وقد يطردك منه واسأل من فعلوا ذلك ولاقوا هذا المصير، وهم الآن فى دور الرعاية والمسنين تقتلهم الحسرة والندم، أى فرق بين الشخصين، وما علاقة ذلك بصاحب الجنتين؟

إن الأول نبيل أصيل، عظيم المعدن والجوهر، ذكى، غير خبيث، أما الثانى فلئيم خبيث ظالم، غره الظاهر فنسى فضلك وتوهم أنه قد تملك، فغره ظاهر ملكه ونسى ما قدمت يداك، كما فعل صاحب الجنتين، توهم أنه باق مخلد، وذكر الآخرة من حيث إن له فيها خيراً مما أوتى فى الدنيا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾. وكان صاحبه الذى رآه أقل منه مالاً وولداً على خلاف ما عليه أصحاب

ملاك المال والجاه والسلطان، الذين يطلبون ويزمرون، وينفخون فى ملاك المال ويعبدونهم من دون الله أو مع الله، يقولون دائماً: أنتم أيها السادة على صواب، وقال أحدهم ذات مرة: إن عمنا فلاناً لو أخطأ لكان صواباً، إنه ليس سائد الناس، إنه سيد الناس، ومن المقربين، وأولياء الله الصالحين فهو الذى اصطفاه الله- عز وجل- وأعطاه ولم يعط غيره، ولولا أنه يستحق هذا العطاء ما أعطاه الله سكوت... لا أحد يتكلم، لا أحد يفتح فمه، قل يا عمنا، أنشدنا من بنات نظمك وأفكارك كان صاحبه رجلاً مؤمناً، قال له: أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً! ثم قال لنفسه وله وللدنيا إلى يوم القيامة: **﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾**. وقد كان، وأحيط بثمره، وقال الله- عز وجل-: **﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾**. ولاشك أنه أنفق وهو يعلم كيف ينفق، وأين يضع نفقته، ولكنه لم يعلم كيف يشكر الله، وهذا هو الغباء الذى يدخل صاحبه النار.

ما كل صاحب كصاحب هذا الكافر

الوجه من الضلال قد يكون وجهاً، باعتبار ما ذكره ابن جنى فى كتابه الخصائص من حمل النقيض على النقيض، فهذا وجه ونقيضه كذلك وجه، لكن هناك وجه غير معتبر، فلا هو نقيض ولا هو نقيضه، إنه وجه الغبى الممسوخ، الذى لم يملك ديناً فيرقى به، ولا مالاً فيزهو به، إنه تابع لضال على ضلاله غير مستفيد منه شيئاً إلا بالقدر الذى يستفيده كلب على الطريق، وقد يكون له وجه حيث رمى له شيء، فأكله، ولم يتبع من رمى له.

قوم يدخلون النار مجاناً، يوافقون ويطبلون ويذمرون، ويحسنون الإتباع بالباطل للباطل، ويعيشون فقراء، ويموتون فقراء، ويدخلون النار،

ما حصلوا من التبعية سوى الفتات الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع، ومع ذلك كانوا مع متبوعيهم فى جهنم، يعنى أن الذى ضل وكفر؛ لأن المال صرفه عن الحق له وجه، وهو وجه مذموم، لكنه وجه، فما تقول فيمن ضل وكفر، لأنه صاحب هذا الوجه، من حاشيته، وحاشيته فيهم من ينتفع ويغنى، فهو يغنى لصاحبه وعليه ويأخذ منه كما تقول عينيه، وحاشية غبية ما نالها سوى الفتات، وهى كذلك تغنى، لكن لا تقدر على شيء.

فلم تأخذ ممن غنت له عينين، ولا أذنين، لقد رأينا أن صاحب الكافر الذى رزقه الله- عز وجل- جنتين من أعناب، وحفهما بنخل وجعل بينهما زرعاً كان رجلاً مؤمناً حاوره بالحق، وانتصر عليه، وقال **﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾**. وقد أتاه الله عز وجل بلا شك خيراً من جنتى صاحبه بدليل أن نصف ما ذكره قد تحقق، وهو أن الله تعالى أرسل على جنتى صاحبه حسباناً من السماء، فغار ماؤها، واسود عنبها، وصارت كما قال الله **﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾**. وسكت النظم الجليل عن النصف الأول، وهو معلوم لأن الله واسع عليم والسكوت عنه لحكمة التفكر، ولأنه قد يكون آتاه بعد ذلك، أو ادخر له فى الآخرة ما هو خير من جنتى صاحبه كما بين رسول الله-ﷺ- وروى البخارى بأنه ما من دعاء بغير إثم ولا قطيعة إلا ويرفع إلى الله عز وجل، فإما أن يعطى الداعى ما سأل، وإما أن يعطيه خيراً منه، وإما أن يدخر له فى الآخرة ما هو خير منه بلا شك.

فهل كل صاحب كهذا الرجل؟ الجواب: ما كل صاحب كصاحب الجنتين، هناك من يدخل مع صاحبه جنتيه، فإن قال صاحب الجنتين: ما أظن أن تبيد هذه أبداً قال:

- معلوم ولم تبيد؟

وإن قال: وما أظن الساعة قائمة قال له:

- معلوم، ولم تقوم؟

حتى إن قال الرجل لصاحبه: يا أخى هل صدقت، إن الساعة سوف تقوم، أنا أضاحكك قال له:

- نعم تقوم، ولكن على غيرك يا باشا

وبعد قليل يطلب منه ما يشاء، ويأخذ ما يشاء فهو ضال مثله، وكلاهما فى النار إن لم يتب الله ويختم بخاتمة السعادة، ويرحم، لكن هناك من يصحب أهل الضلال على نفاية، يكتفى بالفتات يحمل النعال، والحقائب، وهو فى ظل سيده الضال إن كان تاركاً للصلاة تركها مثله، وإن ذم المؤمنين ذكره بقصائد الذم، وإن رأى قبيحاً حسنا رآه هو أحسن، ولم يأخذ منه شيئاً ذا بال.

أقل مثال فى واقعنا أنك تجد الرجل يدخل مكتب زميله من أجل كوب شاى أو سيجارة وفى سبيلهما يغتاب أعداءه، ويمدح أحباءه، ويأتيه بالأسرار، غبى يدخل بكوب شاى النار، حتى ولو جمع مال الدنيا وبعده النار ما ساوى كل هذا المال شربة ماء، ولا كوب شاى.

وقد تفعل هذا امرأة مع زميلتها من أجل أن تستعيد منها قطعة من ثياب، أو سيئاً تافهاً وترده إليها معطراً نظيفاً، فما أقل الانتفاع وما أعظمه سوء المصير، فالأغبياء درجات.

ما دفع به الإسلام الغباء عنا.

غباء يقع فيه كثير من الناس

يدفع الإسلام الغباء، حيث بين لنا مظانه، وحذرنا من الوقوع فيه، وكما رأينا فى المال أنه سبب كثير من الغباء، حيث يظن مالكوه أنهم وصلوا به إلى بر الأمان وتجاوزوا به خط الفقر، والمرض، والموت كذلك، ألا ترى إلى قول الله تعالى **﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلا﴾**.

وقد حذر الله تعالى عباده من فتنة المال، فقال تعالى: **﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾**، وقال عز من قائل: **﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا﴾**، وضرب لنا- عز وجل- الأمثال، وقال فيها **﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾**. قال: وما يعقلها مما يدل على أن المثل ليس مضروباً من قبيل التسلية، وإنما للعبرة والعظة، وقد رأيت أن القصص القرآنى من قبيل ضرب المثل، فقال لى أحد العلماء: كيف ذلك وأنت لا تقرأ كلمة "ومثل" و"شبه" ونحوهما ورأيت أنه يعرف أن المثل لا بد فيه من ذكر المادة اللغوية، أو سلوكه مسلك التضمين المعروف فى التشبيه على نحو قول المتنبى:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

فقلت له: الدليل على أن القصص القرآنى من قبيل الأمثال موجود فى القرآن الكريم بالنص؛ فسألنى: أين ذلك؟ فقلت له فى قول الله- تعالى- من سورة النور الآية (٣٤): **﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾**. فقال جزاه الله خيراً: أحسنت وقد صرح القرآن الكريم بذكر المثل فى قوله تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ...﴾**. وقد ذكرت قصتهما، والعبرةَ المرجوة من ضرب هذا المثل خاصة بالمال، وهى أنه غر صاحبه، فأهلكه، حيث ظن أنه باق، وأن الساعة لن تقوم، وأن الله- تعالى- لو رده إليه لأعطاه فى الآخرة خيراً من جنته وهذا وهم، وهم منه، وحق من غيره، وهم منه لأنه لم يحسن، ولم تزده جنته إيماناً، وإنما زادته كفراً وضلالاً، وحق من غيره لو أحسن، وجعل من ظلال جنتيه مكاناً يستريح فيه بذكر الله، وأنفق من ثمرها على الفقراء والمساكين، وأوى إليه يتيماً محروماً، وابن سبيل عابراً يحتاج إلى ما يبلغ به غايته، ويشكر الله- عز وجل- ويذكر الآخرة، ويقول عن يقين: اللهم ارزقنى جنة عندك خيراً من هذه وقد ربط-ﷺ- بين ما أعجب الناس من حرير أهدى إليه، وبين ما عند الله-

تعالى- فقال: لمناديك سعد فى الجنة خير من هـذه وأجمل. وفى سـورة آل عمران يقول الله- عز وجـل-: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾**. ثم قال فى الآية نفسها **﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾**. وفى الآية بعدها يقول عز من قائل: **﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾**.

ما حرم ربنا- عز وجل- زينة الحياة الدنيا وإنما حذر مما أسميه الغباء فى التزين بها، وإنما يكون التزين بها عين الغباء مع الاستغراق، بأن يغرق المرء فى الزينة وينسى الله عز وجل، لكن أن يأخذ منها غير ما فيها من باب إظهار فضل الله عليه كما روى البخارى فى صحيحه عن رسول الله-ﷺ- إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وأكرم نفسك كما أكرمك ربك فلا شىء فى هذا، وقال سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾**. ومعنى الغرور أن يظن مالك المال أنه باق، وهو فى الحقيقة إما أن يبقى ويرحل مالكه وإما أن يبقى مالكه إلى أجل ويرحل هو تاركاً صاحبه معدماً من بعد غنى، خادماً من بعد أن كان مخدوماً فمن وعى قلبه كان مقتصداً، ومن غفل قلبه كان غبياً.

كلا فى الحالتين لدفع غباء الرجلين

فى كتب اللغة: الغبى على فعيل، أى على وزن فعيل مثل بخيل القليل القطعة، يقال: غبى من باب تعب، أى مضارعه يغبى على وزن يتعب بفتح العين، يتعدى إلى المفعول بنفسه، وبالحرف، يقال: غبيت الأثر، وغبيت عنه، ويقال: غبى عن الخبر: جهله فهو غبى، والغباء على هذا ضرب من الجهل، ومن الجهل أن يظن من أوتى المال، والحياة الناعمة أن الله أكرمه، وأن يظن من حرم ذلك، فقدر الله- تعالى- عليه رزقه أن

الله أهانه، فلا هذا بمكرم، ولا ذاك بمهان، وإنما الحكمة فى الأمرين واحدة، وهى الاختبار، والدليل على ذلك قول الله- تعالى- فى سورة الفجر **﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلَّا﴾**.

وكلا فى هذا الموضع الكريم من الذكر الحكيم لدفع غباء الرجلين، فكلاهما جاهل بحكمة الله- عز وجل- فالنعمة اختبار، والنقمة اختبار كذلك، فإن وصل كلا الرجلين إلى مقتضى الحكمة فقد تساويا برغم التفاوت بينهما فى طريق الوصول إلى تلك الحكمة، أى إلى مقتضاها. فمقتضى الأول الذى ابتلاه الله- تعالى- أى اختبره بأن أكرمه ونعمه أن يشكر الله- عز وجل- ومقتضى الثانى الذى ابتلاه بأن قدر عليه رزقه أن يصبر، والتساوى من وجهين:

الأول: أن تبقى نعمة الأول، ويبدل الله حال الثانى فيصل إلى ما وصل إليه الأول، والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾**.

والثانى: أنهما فى الآخرة على خير؛ لأن من شكر فى الدنيا رفعه الله- تعالى- فى الآخرة، وكذلك من صبر قال تعالى: **﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾**. وقال عز من قائل: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**.

ويتسرب الغباء إلى كلا الرجلين من حيث النظر إلى الظاهر فإن الذى أوتى المال الوفير، إذا نظر إلى ظاهره وأنه قد استحقه عن مكرمة، وسر فيه، لم يعلمه إلا الله- عز وجل- الذى أعطاه، قد يظن أن الله أعطاه إكراماً دون مقتضى، كأنه وحاشا لله والد أعطى ولده عن حب مالاً وفيراً، فسأله: ماذا أفعل به يا والدى فقال: ما تحب يا حبيبى، افعل ما تشاء، فإن قال له أشترى به مدفعاً واقتل به الناس قال: كما تحب ولكن أبق على أمك؛ لأنها حبيبتى، أو اقتلها هى الأخرى إن أحببت، لا شىء يهمك يا

حشاشة قلبى وسويداء فؤادى، وإن قال: أسافر به إلى أوربا قال: كما تحب، ولكن احذر الإيدز. ثم يضحك لسعادة ولده، الذى قد ينسى أباه الذى أعطاه، ويقتله قبل أن يقتل غيره، والله عز وجل ما أعطى عباده مالاً وتركهم دون توجيه، وإنما قال اعتدلوا أولاً فى إنفاقه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾. وجعل فيه حقاً هو الزكاة، وجعل فيه حقاً غير الزكاة من المواساة والصدقات وغيرها، وجعل منه وسيلة للتقرب إليه ودعا من ملكهم إياه أن يشكروا له، ووعدهم بالزيادة وذلك الذى يدرك تلك المعانى ذكى فطن، أما الذى يعربد كما يعربد الحدث أو الطفل، فهو غبى، يسعى إلى أن يخرب بيته بيده، ويفقأ بها عينه.

والذى قدر عليه فى الرزق إذا نظر إلى ظاهر حاله حدثت له أمور يمكن حصرها فيما يأتى:

أولاً: سوف يعكر على نفسه صفوه، فلا يستمتع بما عنده من قليل، والله عز وجل يقول: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾. ولم يقل فحرمه رزقه، يعنى عنده لكنه قليل والتطلع بغباء إلى الكثير يفقد الإحساس بالقليل.

ثانياً: أنه يستبطئ الرزق، فييأس من رحمة ربه فيلحق بالكاذبين، الذين هذا دأبهم.

ثالثاً: أن بنحره لن يغير حاله، وكفره بالنعمة لن يزيدها من أجل هذا كله دفع الله عنا الغباء بأن دعانا إلى إدراك الحكمة، وقال فى الأمرين: كلا.

غبى من يصحب غبياً يفسد عليه حاله

ومما دفع الإسلام به عنا الغباء أنه دعانا إلى صحبة العقلاء الأبرار، والعلماء العاملين، ونفرنا من صحبة الأغبياء الأشرار، ومنهم الكفرة الذين يخوضون فى آيات الله.

ولأن هناك مصالح مشتركة قد تكون بيننا وبينهم أمرنا ربنا تعالى بالتعامل معهم، ونهانا عن القعود معهم حال خوضهم فى آيات الله، وقد قال الآلوسى فى روح المعانى وغيره أن ذلك دليل على جواز القعود معهم عندما يكفوا عن المؤمن فى آيات الله- عز وجل- وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

وبعض الناس يقول: لا مصلحة ولا منفعة، أعوذ بالله، الله الغنى، إن الطريق الذى يسلكه هؤلاء لن أسلكه، والبيت الذى يسكنون فيه لن أمشى فى شارعه، وليس هذا من الحكمة ولا من العقل، ولا من هدى هذا الدين، وقد ذكرت قول المفسرين أن المحرم هو القعود مع الذين يخوضون فى آيات الله فى هذا الوقت، والله تعالى يقول: حتى يخوضوا فى حديث غيره، يعنى إذا تركوا الخوض فى آيات الله فاقعدوا معهم، واحرصوا على قضاء مصالحكم وحققوا منافعكم، وأثبتوا لهم أنكم مؤمنون أوفياء بالعهود أمناء فى التعامل.

وقال الله- عز وجل- ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾. وفى الحديث الصحيح يقول النبى-ﷺ- مثل الجليس الصالح ومثل الجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن تبتاع منه (تشترى) وإما أن تشم منه رائحة طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك وإما أن تشم منه رائحة غير طيبة".

بيان من صفوة البشر-ﷺ- من واقع الحياة بحيث لا يجد الإنسان مفراً من الإذعان له، نعم إن بائع العطور فواحة بالطيب رائحة بضاعته التى قد تنال منها شيئاً بالثمن، وقد تنال شمة طيبة من أثرها، فأنت فى كلتا الحالتين رابح.

وأما الحداد نافخ الكير ومبيض النحاس إما أن يتطاير شرر ناره، فيحرق ثوبك، وإما أن تشم منه رائحة غير طيبة، فلتجلس إليه بعد أن يفرغ من عمله، عندها سوف يتوضأ، ويتطهر وهو بلا شك أكل من عمل يده، وقد يكون رجلاً طيباً وصاحباً نافعاً، وقد ضرب -ﷺ- المثل بحرفتين، والمراد اختيار من تصاحب ومن تجالس، ومن تصحب في تحقيق رحلتك ومبتغاك فقد اختار -ﷺ- أبابكر، وخرج معه ثان اثنين، فكان ما كان من شرف الصحبة عند أبى بكر ومن سعادة النبى -ﷺ- بها، كان الرجل يلقاهما فى الطريق، ويعرف أبابكر لأنه كان تاجراً، ولا يعرف رسول الله -ﷺ- فيسأله عنه فيقول هاد يدلنى على الطريق، وقد صدق، ورزق سرعة التوفيق إلى الصواب، وكم من غبى صاحبناه فأفسد علينا الرحلة، وضيع علينا الربح بغباء، حيث لم يكتم سراً، ولم يبد آية عبقرية، وأن له ذلك وهو عاجز، ونحن أشد منه عجزاً حيث اصطفيناه دون غيره، ونحن نقرأ قول ربنا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

وكم من وجيه كريم صحب معه أحد أقاربه وهو يخطب عروساً، فلم يحسن قريبه هيئته ولم يصن لسانه، فنطق قول السوء، وذكر أن العريس كانت له جدة فى مستشفى الأمراض النفسية وأن أباه- رحمه الله- كان يبيع فى المواصلات العامة الأمشاط والفلايات ورزقه الله من وسع فأنفه الناس ورفضوه وقالوا فيه احذروه فإنه شبع من بعد جوع، وكم من غبى أسند إليه عظيم عمل، فضيع الأمل، ومن اختاره واصطفاه غبى مثله أو أشد غباء، فقد وسد الأمر إلى غير أهله يستعجل قيام الساعة!

الألد الخصم

ومما دفع به الإسلام الغباء عنا ما ينبه رسول الله -ﷺ- فى نحو قوله الذى رواه البخارى فى صحيحه "شر الناس عند الله الألد الخصم".

ومعنى الألد الخصم: الذى إذا خاصم فجر، فتمادى فى الخصومة، ولم يذكر فى خصمه خيراً، كنت ذات مرة أجلس إلى رجل كريم، أدعوه إلى أن يعفو عن رجل أساء إليه، ففاضت عينا الكريم وهو يقول والله يا دكتور ما ذكر فينا حسنة، تناول الأحياء منا والأموات بكل سوء، وفضح سرنا وما ائتمناه ذات يوم عليه، وذهب تأويله من تلقاء نفسه كل مذهب قال فى أبى يرحمه الله إنه جمع ماله من حرام، وقال فى أمى إنها كانت دجالة، وكانت معيناً لوالدى على الإثم والعدوان، وقال فى أختى ما أستحى أن أعيده، وقال فى أخى وأنت تعرفه إنه يتاجر فى الممنوعات، وأننا نأكل أموال الناس بالباطل، وعندى شهود على ذلك إن أردت.

قلت له: تذكر حديث رسول الله -ﷺ- خير القرون قرنى، ثم الذى يليه ثم الذى يليه، ونحن شئنا أم أبينا لا بد أن نأخذ حظنا من زماننا، وليس زماننا من خير الأزمان وتلك من الثقافة السائدة اليوم، أن المرء إذا خاصم كان شديد السوء، لا يبقى ولا يذر، لأنه غبى جراح، ونحن لن ننتظر هذا اللبيب الذى إذا خاصم كان نبيلاً فى خصومته، وقد ذكر العلماء أن من الصحابة- رضوان الله عليهم من خاصم بعضاً، لكن كانوا أهل نبل فى الخصومة، ما تناول بعضهم أعراض بعض، وما شجع بعضهم أهل النفاق على أن يذم خصمه، وهذا غبى يرجو السماح، والله عز وجل كما روى البخارى من حديث عائشة عفو يحب العفو، والعلماء يقولون: لله أبواب، فمن دخل من باب من أبواب الله أحبه الله، ومن هذه الأبواب باب العفو، وذكرته بما كان من قريب أبى بكر -رضي الله عنه- الذى خاض مع الذين خاضوا فى حادثة الإفك، وعزم أبوبكر وأقسم ألا يكرمه، وكان من قبل يسكنه بيته، وينفق عليه، فأنزل الله- تعالى- قوله فى سورة النور: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. وقد قال أبوبكر: بلى، أحب أن يغفر الله لى، وأعاد عليه ما كان

يعطيه ابتغاء مغفرة الله- عز وجل- والحمد لله- عز وجل- أن الرجل هداه الله وأثرت هذه الكلمات فيه، واتسع لها صدره، وقبل العفو والاعتذار.

وما كل الرجال مثل هذا الرجل، هناك من تؤثر فيه المبالغة فى الخصومة تأثيراً عظيماً فلا يقبل اعتذار الألد الخصم، الذى بالغ فى الخصومة وكتم حسنات خصمه، وأبدى سيئاته بحق وباطل فماذا يفعل من بالغ إذا جاء معتذراً فلم يقبل منه وقد يكون ذا مصلحة وحاجة إلى من أساء إليه كل هذه الإساءة، أليس هذا غبياً بلغ به الغباء مبلغه، فأغضب الله عز وجل أولاً؛ لأن رسول الله-ﷺ- قال: شر الناس عند الله، وهل ترى شر الناس عند الله فى نعيم الجنات أم تراه فى جحيم العذاب يوم الدين، وحرم نفسه خيراً هو فى حاجة إليه، واللدادة فى الخصومة منتشرة انتشاراً واسعاً، واسأل عنها من خطب فلم يوفق، ومن تزوج فطلق، ومن ترك وظيفة إلى غيرها كثير من هؤلاء يكسرون القلل (جمع قلة) على أعقاب من عرفوا وعاشروا وعملوا معهم، فلا عيب إلا ذكروه، ولا حسن إلا كتموه، ولا أحد إلا لعنوه، وهذا غباء حذر منه الإسلام الحنيف لأن صاحبه بسببه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

يبحث عن الحب لذاته

فى نور كلمات النبوة تتضح المعانى للمتدبرين، وتغيب عن الأغبياء الغافلين، الذين عميت بصائرهم فعميت لها أبصارهم، فهم يرددون الكلمات ولا يفهمون معانيها وإن فهموا منها شيئاً غابت عنهم أشياء، كالطفل فى الكتاب يقرأ قول الله تعالى: فرت من قسورة ولا يدرى أن القسورة من أسماء الأسد، والفرق بينهم وبين هذا الطفل أن الأمل معقود عليه بأن يأتيه يوم يفهم فيه، وقد نراه ذات يوم من كبار المفسرين لكلام الله- عز

وجل- يملك أدواته، ويقف على جواهر معانيه، وأسرار بلاغته وبيانه، ويستنبط ما لا يستنبط لذاته، ويأت بجديد لم يأت به من سبقه لكنه الآن عاجز عن إدراك ذلك كله، فهو فى مرحلة الحفظ والتلقين، وسوف تنتهى به تلك المرحلة وتسلمه إلى مراحل بعدها من التثبت والروية والنمو المنتظر لعقله الوليد الذى قد يطرح علينا من بواكيره ما ينم عن عظيم مستقبله، وقد تختفى تلك البوادر، وتقبل ذات يوم فى ركب عظيم ولكن هؤلاء بلغوا من العمر ما بلغوا وهم لا يفهمون والأمل فى فهمهم جد ضعيف، ومن تلك الكلمات قوله-ﷺ- أحبوا الله لما يغذوكم به وأحبونى لحبكم فى الله، وأحبوا آل بيتى لحبى، ونحن نحب آل بيت رسول الله-ﷺ- لحبنا فيه-ﷺ- ونحن كما وجهنا نحبه-ﷺ- لحبنا فى الله، ونحب الله- عز وجل لأنه المنعم المتفضل، ولى النعم، الذى خلقنا من عدم، ورزقنا من غير حول منا ولا قوة.

وهذا النور النبوى يكشف عنا الغباء الذى هو كفيل بأن يدمرنا تدميراً، حيث ترى كثيراً من الناس يبحثون عن وهم هو الحب للذات، يعنى يبحثون عن امرأة تحبهم؛ لأنهم هكذا يستحقون هذا الحب مجرداً من أى غرض، فما معنى هذه الذات؟ وأى شيء فيها يدعو المرأة وغير المرأة إلى الحب.

إن كان عالماً عبقرياً، فذاته فى علمه وعبقريته وإن كان ذا مال فذاته فى ماله وما يوفره لأحبابه من حياة كريمة، وإن كان ذا سلطان وكرسى فذاته فى هذا السلطان والكرسى، بسببه يقوم له الموظفون، ويضربون له تعظيم السلام، وإن ترك هذا الكرسى نظروا إليه وهم لا يبصرون، فإن كان غبياً مات بحسرته، وقال: الآن اكتشفت الحقيقة ما كانوا يعظمون شخصى وإنما كانوا يعظمون الكرسى وهذا أيضاً من آيات

غبائه؛ لأنه اكتشفه مؤخراً لا شىء فى الوجود اسمه "الحب للذات" إلا فيما شاع من أفلام ومسلسلات ضلت وأضلت كثيراً من الناس.

ما قال النبى-ﷺ- تزوجوا أيها الشباب قبل أن تعمى أعينكم وتصم أذانكم وينزوى عودكم النضير، وإنما قال "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج" فالباءة وهى القدرة على فتح بيت وتحصين امرأة سبب فى الحب والزواج، وحسن الخلق سبب فى استمرار تلك الحياة، بل سبب فى رفقة المصطفى-ﷺ- فى الجنة "أقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً" ما قال أقربكم منى مجلساً يوم القيامة أصحاب الأعين الزرق أو الخضر أو الطوال العراض، أو أصحاب الدم الخفيف، وكان عمر ابن الخطاب-﵁- يعجبه منظر الشاب وهيئته فيسأل عن حرفته، فإن قيل له: إنه بدون حرفة سقط من نظره، أى ضاع بهاؤه وجماله وشبابه ولولا أن الحرفة سبب فى ترسيخ الإعجاب ما سأل عمر عن الحرفة ولا اكتفى بالذات، فما هذه الذات من أجل هذا كان على العاقل أن يتدبر وأن يشكر الله- عز وجل- الذى هيأ له من الأسباب ما جمع حوله الناس، فأحبوه لما وهبه الله إياه، وكم من قائل: طلقتها لأنها كانت داخلة على طمع وأى الناس لا يطمع أحمد الله أن عندك ما تطمع فيه وأنفق عليها وسطاً وفق شرع الله فإن لم تحسن إليك فتلك ورقة أخرى.

مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء

كلما قرآنا كتاب الله عز وجل ازددنا علماً ونوراً، والقرآن الكريم كما تحدث عن درجات المؤمنين تحدث كذلك عن صنوف الكافرين، فمن درجات المؤمنين درجة الأبرار، الذين يعملون البر، وينالونه، **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾**. وهنالك درجة المقربين، الذين قال العلماء فيهم "حسنات الأبرار سيئات المقربين" أى ما يعمله الأبرار من حسنات يراه المقربون دون مستواهم، يعنى أنهم

يعملون أعمالاً تفوق أعمال الأبرار، ولكل درجات، ودرجة دون درجة فى الصلاح، وكذلك درجة دون درجة فى الفساد، ومن حديث المنافقين فى كتاب الله ربنا يقول الله- تعالى- فى آية النساء (١٤٣): **﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾**. أى أن المنافقين ليسوا من المؤمنين حقا، الذين أظهروا الإيمان وأبطنوه، ففى قلوبهم نوره، وعلى ألسنتهم ألفاظه، تسمع منهم الطيب وترى من فعالهم الطيب كذلك، وليسوا من الكافرين الذين يبطنون الكفر ويظهرونه، فهم واضحون فى الضلال كما أن المؤمنين واضحون فى الهدى.

أما المنافقون فهم أهل ذبذبة وتردد إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، قال الله- عز وجل- **﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**.

وإذا أردت أن تستثمر هذا المعنى فى حياة المسلمين لن تجد أبلغ من قول رسول الله-ﷺ- فيه: "شر الناس ذو الوجهين، الذى يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه".

ومن هؤلاء من يلقاك وأنت بينك وبين أخيك شىء مما يكون بين الناس، فتراه معك يؤيدك ويصدقك، ويوهمك بأن الحق معك، وأن أخاك هذا من المتمردين الناكرين للخير، هل نسى أنك ربيته من بعد أبيه، وقد تركه أبوه قطعة لحم حمراء وأنت الذى علمته، وأنت الذى زوجته من بعد، ولولاك- حفظك الله- لأكلته سباع الأرض فريسة سهلة كما تؤكل الهريسة، وكان عليه أن يقبل يدك.

وإن لقى أخاك قال له: لو كنت مكانك لحصلت منه على نصيبى فى الميراث رأساً برأس فهذا شرع الله، ثم إنه يزعم أنه رباك فهل أنفق عليك جنيهاً واحداً من جيبه، إنه أنفق عليك من مال أبيك، ومال أبيك قسمة بينكما فلم هذا العدوان منه، ولم هذا التعدى، إننى أعلم ما وراءه،

وزوجته هى السبب، فهى قارشة ملحتك منذ نعومة أظفارك، وكانت ترجو لك الموت طفلاً حتى تستأثر بخير أبيك- عليه رحمة الله- لا لا- لا تسكت له، وما فعلته فيه قليل بالنسبة إلى عدوانه وسوء سلوكه معـك، يهينـك أمام الناس، كيف ذلك؟

وقد سعى إنسان بين والد وأولاده فأفسد ما بينهما بهذه الطريقـة، كان الوالد قد طلق امرأته وكان باراً بها وبأولاده منها، فكان هذا الشخص يأتيه وينقل إليه أخبارهم: إنهم يأكلون مالك وأمهم تحثهم على استنزافك، قولوا لأبيكم: نريد ونريد ونريد نعم، إنها لا ترجو لك أن تتزوج بعـدها، ولا ترجو أن يبيت فى جيبك جنيه واحد، فيسود قلب الوالد.

ويذهب ربما بعد ساعة إلى الأولاد، ويقول لهم: لا تتركوه، إنه ينوى الزواج، وسوف يأتى بفتاة صغيرة فى مثل سنكم لن تبقـى معـه علـى شىء، إنه صاحب شهوة، وسوف يضيعكم، حتـى تقفـوا علـى أبـواب المساجد سائلين الناس، انهضوا وخذوا منه ما تريدون وما لا تريـدون، قبل أن يضيع ماله الذى هو مالكم، وقد نصحت لكم، فإذا التقـى الوالـد والأولاد حل السواد بينهم من أثر ما يحملون فى نفوسهم من هذا الـشر العظيم الذى قال فيه-ﷺ- "ليس منا من خبب امرأة على زوجها أو عبداً على سيده" وقس على ذلك من خبب أى أفسد كل علاقة بين اثنين.

ما وراء الظاهر من خير يراه المتدبرون

ومما دفع الإسلام به الغباء عن أتباعهم أنه حذرهم من النظر إلـى ظاهر بعض الأمور دون روية، فقد يكون الظاهر شراً، ووراءه خير كثير، عرفت فيمن عرفت رجلاً ضرب ولده إذ شكاه جار له، فعاتب الابن أبـاه وقال له: ضربتنى أمام الناس؛ فقال: يا ولـدى لقـد ضـربت كبـدى إذ ضربتك، لكن ضربة خفيفة أمام الناس شفت غليل الرجل الذى كان بوسعه أن يفعل فينا ما يشاء من سوء.

وذكر الناس أن أبا حنيفة منع ولده حماداً أن يصلى إماما، قال لـه: ارجع، وقدم غيره، فقال له حماد: فضحتنى؛ فقال أبوحنيفة رحمه الله بـل فضحت نفسك وسترتك، فلو قال قائل: أعيدوا صلاتكم لذكرت الكتب ذلـك إلى يوم القيامة.

وأرسل رجلاً إلى تلميذه أبى يوسف حين تصدر للدرس قبل نـضجه وأوانه فقال له: سله هذا السؤال: رجل سلم ثوبه قصاراً (خياطاً) فطمـع فيه لنفسه، فهل له أجر على تقصيره، فإن قال لك: له أجـر فقـل لـه: أخطأت، وإن قال لك. لا أجر له فقل له: أخطأت، فذهب الرجل إلـى أبـى يوسف وسأله؟ فقال له أجر؛ فقال الرجل له: أخطأت، فعاد وقال: لا أجـر له؛ فقال له: أخطأت، فرجع أبويوسف إلى أبى حنيفة؛ فقال له: ما جـاء بك إلا مسألة القصار له أجر إن قصره للرجل ثم طمع فيه لنفسه، ولا أجر له إذا طمع فيه لنفسه وقصره على مقاسه هو دون مقاس صاحبه، فجلس أبويوسف- رحمه الله- أمام أبى حنيفة تلميذاً على عهده به حتى نـضج واكتمل، ومن قديم قال الناس:

وقد أقسو عليه ليزدجر

أى أن الأب قد يقسو أحياناً على ولده وهو أحب إليه من نفسه مـن أجل مصلحته، وهذه القسوة علم وليست عدواناً وقتلاً وحرماناً وغباء فى التعذيب.

وفى قصة موسى-عليه السلام- مع العبد الصالح ذكر لنا ربنا- تعـالى- أنهما ركبا فى السفينة فلما خرقها الخضر قال له موسى: أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً، وتبين له بعد ذلك أن هذا الخرق الخفيف نجاها من ضياعها، فقد كانت لمساكين يعملون فى البحر، فأراد أن يعيبها لتسلم لهم، حيث كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة خالية مـن العيـوب غصباً، فلما رآها معيبة تركها لهم، فمن السهل أن يصلحوها، وهى باقية لهم يكسبون منها ما يعينهم على الحياة.

الفصل الثانى

فى هواة الفتيا وصلتهم بالغباء

شهوة الفتيا غباء يؤدى إلى النار

من الفاحشة التى لا يلتفت إليها كثير من الناس أن يقول المرء على الله ما لا يعلم، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾.

والجرأة على الفتيا شهوة غبية، تجر صاحبها إلى النار لأنه ضل وأضل، والدليل على ذلك حديث البخارى "اتخذ الناس رءوساً جهالاً يستفتونهم فيفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون".

ولهذه الشهوة خطرها، كما بين الحديث الشريف، حيث إنها تعرض صاحبها لعذاب الله، أفلا سمعت قوله -ﷺ- "فيضلون ويضلون" أى ضل من أفتى بغير علم، وأضل غيره، وهل ترى الضال المضل إلا حاملاً وزره، ووزر غيره فى جهنم!

والناس فى هذا الموضوع صنوف وأشكال وألوان، وهم برغم اختلاف صنوفهم وألوانهم أمة واحدة فى الصفة المشتركة وهى الغباء، فمن هذه الصنوف صنف قليل الخطر، وهو الصنف الذى يفتى نفسه ولا يسأل، وسبب دخوله فى هؤلاء أن الله عز وجل يقول: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾. وكان الأعرابى يقبل من أطراف البلاد ليسأل رسول الله -ﷺ-، وكان الناس يتزاحمون على مالك وغيره من الأئمة يسألون، لكن هذا الرجل يقول تلك العبارة الشائعة: على أى شىء أسأل، هذه بسيطة، ومثله مثل من يعالج نفسه بنفسه وهو غير طبيب، يقال له: زر طبيباً فيقول: على أى شىء أزوره، والعياذ بالله، إنه مجرد صداع أو نزلة برد بسيطة، أو أنا أعرف السبب: لم أنم جيداً، أو بسبب أنى حملت حملاً ثقيلاً، ونحو ذلك، يفعل هذا مع نفسه وربما فعله مع ولده، أو والده، وقال إن شاء الله سيجبرنا الله فيه فدفنه فى الصباح، أو تضاعفت العلة.

ومعظم هؤلاء يتبين لهم خلاف ما أفتوا به أنفسهم ترى الواحد منهم يقول: طول عمرى وأنا أعمل خلاف ذلك، ويملى عليه الشيطان قائلاً: قل: ما سمعنا أحداً يقول ذلك، انظر إلى قوله: ما سمعنا أحداً يقول ذلك، وكم من أحد قال ذلك وقال ذا، وقال: ذاك، ولكنه الذى لم يسمع.

وأيسر مثال على ذلك قول التى سمعت لأول مرة أن على الناس أن يغسلوا الخضراوات قبل أن يأكلوها فتقول: ما هذا؟ طول عمرنا نأكلها بلا غسيل ونحن أقوى من الحديد!

بالله كم مرة سمعت هذه العبارة فى كل مجال، حتى فى مجال الإدارة، إذا تغير مدير، وجاء آخر يريد أن يجدد ويطور وينهض بالمصلحة الفاشلة، يقول بعض موظفيها "ما طول عمرنا على هذا النظام والمؤسسة مثل الفل" أفلا يتوبون إلى الله- تعالى- ويستغفرونه! إنهم هكذا كالأولين ألفوا آباءهم كذلك يفعلون فما الداعى إلى مخالفة الآباء والأجداد.

حتى فى مجال الأسرة، إذا فضل الرجل تجربة فى طهى قالت له زوجته: طول عمرى وأنا أعد لك هذه الطبخة على هذا المنوال فما الذى جرى، وهل نسيت أنك طول عمرك تأكل أصابعك بعدها، ماذا فيك يا رجل، الآن صرنا متخلفين بعد هذا العمر الطويل، وصرت تتمرد على بيتك وما تعودته، الآن أصبح ماؤنا عكراً، وأكلنا مراً، وتضرب الأرض بقدميها وهى تقول: افعل ما بدا لك، ونم على الجنب الذى يريحك وافعل ما شئت: أأضيف كذا، وأسلق كذا، وأضع ملعقة واحدة من الزيت! السمن البلدى المباركة، والأكل اللذيذ صار هذا يجلب الأمراض، رحم الله أمك، لو كانت بيننا الآن وسمعتك لصرخت بأعلى ما فيها.. ثم نراها قد تولول وتقول: تعالى يا أمى، وانظرى واسمعى ماذا يقول ولدك والله إننى أضع من السمن أقل بكثير مما كانت أمك تضعه أنت لست مريضاً بسبب الأكل

والسمن البلدى، أنت سائق العوج منذ فترة، وأنا أضرب أخماساً فى أسداس وأقول: ماله بنت؟ ما الذى غيره، لم أكن أدرى أن بحياتك امرأة معاصرة من أولات الأكل المسلوق، وتراها كالعصا، فرنسية العود والرنين، أما أنا فسمنت وبدنت من هدة حيلى وحملى وولاداتى وشقائى وعمرى الذى ضاع فى خدمتك وتربية أولادك اذهب يا سيدى إليها، وكل طعامها، واشرب صفو مائها، ونحن لنا الله، حسبى الله ونعم الوكيل فما أكثر ما يقول الناس: طول عمرنا هكذا، يرفضون العلم لغباء فيهم اسمه وهكذا نشأنا، وهكذا تعودنا.

شهوة الفتيا (الصنف الثانى)

وكما رأينا فى هذا الصنف الأول الذى آثر عدم السؤال، واكتفى بسؤال نفسه أو جاره الذى لا يتفوق عليه بكثير، إلا أنه يصلى الفجر حاضراً كل صباح، وقلت إنه أقل خطراً من غيره؛ لأنه قاصر على نفسه، لم يحمل غيره على فتواه الذاتية، وهى عين الخطأ كذلك نرى الصنف الثانى، وهو الذى قرأ وتعلم، وكون مدرسة خاصة لنفسه، ودعا إليها غيره، يقول: نحن مثقفون، ومتعلمون، ونستطيع أن نفهم، وأن نعرف مقاصد الشرع، وهم فى دائرة تربوية ظاهرها طيب، وهى التعليم الذاتى، علم نفسك بنفسك، يقولون: العقاد لم يحصل على شهادة، وكان محامى الإسلام، وهذا صحيح فى مجال فيه اتساع، وهو الثقافة العامة، والإطلاع الواسع كتب العقاد فى العبقريات وأبدع، وكتب فى الحشرات والنباتات وشىء من الفلسفة والنقد والإبداع، ولم يكن عالماً محضاً فى شىء من هذا، لكنه لم يقل للناس إنه مفت ولم يدع الناس إلى هجرة الفقهاء، ونبذ آرائهم والقضاء على مصطلحاتهم، إنما دعا الرجل فى أول حياته إلى مخالفة السنن المعروفة فى الشعر، وتأثر بالشعر الإنجليزى وتمسك بالوحدة العضوية فى النص الشعرى، ثم عاد إلى ما عليه الناس السابقون، وما أطلقه من دعوة للتحرر عاد ونقضه وقال: مم التحرر، إنه

إذا تحرر من الوزن والقافية لم يعد شعراً، والبون واسع بين العقاد وبين هؤلاء، فقد أوتى الرجل فى زمانه اتساع الأفق والوقت، وعكف على مصادر التراث وكتب المعاصرين وقرأ بفهم، وأفرز خلاصة ما قرأ، والساعات التى قضاها بين الكتب هى فى الواقع سنوات، والعقاد لم يكن مخاصماً اللغة وقواعدها كهؤلاء العاجزين عن إقامة جملة عربية واحدة صحيحة، والفروق كثيرة، لكن هؤلاء يتخذون من المصابيح المضيئة والكواكب السيارة شماعات يضعون فوقها ما يستر سوأة نفوسهم، وسوأة النفس أشد عورة من سوأة البدن، إنهم يقولون إن أول ما نزل من الذكر الحكيم قول الله- تعالى- اقرأ وها نحن هؤلاء نقرأ، وكأن القراءة بلا ضابط، ولا أصول. لا يعنى أن يفهم ما يقرأ، ولا أن ينصب ما حقه الرفع، ولا العكس وهؤلاء يقولون: ما معنى النحو؟ وما معنى النصب والجر والرفع ما دام الكلام مفهوماً، ونحن نعرف الفاعل من المفعول، وغير ذلك من الفلسفة الكاذبة، والاستخفاف بالعلم الذى بذل فيه العلماء حياتهم، وقعدوا له، وخلفوا تراثاً نافعاً فيه وأجمعوا على أنه ما كان إلا خدمة للكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، خدم هؤلاء العلماء كتاب الله فدرسوا أسلوبه، وبينوا ما فيه من دلائل الإعجاز وللإمام عبدالقاهر الجرجانى كتاب سماه دلائل الإعجاز، وقال فيه: وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على أصوله وفروعه. وبدأ يوضح ما عرف عنه بنظرية النظم وغايته أن يقف على أسرار النظم فى كتاب الله- عز وجل- الأمر الذى تراه ينهار إذا سمعت كلام هؤلاء أصحاب المدارس الذاتية والفرق بينهم وبين الصنف الأول من مشتهى الفتيا أنهم يزعمون أنهم أصحاب مدرسة وأنهم يرون ما يرون لأنهم يجيدون القراءة، وهم لا يحسنون تلك القراءة، فمدرستهم وهمية، وما أشبهها ببيت العنكبوت وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون.

وحاجتهم إلى الثقافة الدينية العامة يكفى فى قضائها هذه القراءة إذا أجادوها، وأنا لا أدعو الناس إلى هجرها، وإنما أدعو إلى ثقافة عامة أطلق عليها فقه العامة، وأعنى به ما يحتاج إليه كل مسلم، وقد قلت فيه إن قول النبى-ﷺ- "من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين" ليس مراداً به العدد المحدود من الأئمة وعلماء الشريعة، وبقية الملايين لا يريد الله بهم خيراً، وإنما الفقه فقه العامة وفقه الخاصة، وفقه الخاصة مرده إلى العامة أيضاً فلمن تستنبط الأحكام الشرعية، ولمن تساق الأدلة؟ إن ذلك كله لعامة الناس، مطلوب من كل مسلم أن يعرف الحلال والحرام والمباح، من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين فلا يقتل ولا يزنى ولا يسرق، ولا يأكل الربا، ولا يقذف المحصنات الغافلات، ولا يسئ الجوار، ولا يغتاب ولا يمشى بالنميمة، ولا يحقد ولا يحسد، ولا يبغضن البغض الذى بسببه يظلم، وأن يتقن العمل ويحسنه، وأن يعرف العبادات التى كلفه الله بها، فإن فعل ذلك فقد تفقه فى الدين، ونحن فى حاجة إلى أن يعرف ذلك كل مسلم- أما أن يكون قارئ فقيهاً بمعنى أن يحكم ويستنبط فال؛ لأن لذلك الفقه رجاله، وأدواته، وهى لا تتوفر فى كل إنسان فلا يستخف بذلك، وقد قال تعالى ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. فهناك القادر على الاستنباط.

شهوة الفتيا الصنف الثالث

وهناك صنف ثالث من صنوف الذين يشتهون الفتيا وهو الصنف الأشد غباء وخطراً، إنه صنف نصب أصحابه أنفسهم علماء مفتين دون سند وإجازة، حجتهم أنهم رجال كما أن غيرهم من علماء الدين رجال، وأن العلم بالدين ليس وقفاً على رجال الأزهر، ولا على غيرهم، وإنما هو حق لكل مسلم، ومن هؤلاء من ظهر على الناس فى الفضائيات، وملأ الدنيا عويلاً وبكاء تخصص فيهما، دعاة الرقائق، والقصص التى لا سند لها، أصحاب البكاء الجماعى، ورقة القلوب، وفى الحديث "ورجل ذكر الله

خالياً ففاضت عيناه" من أراد البكاء فليبك خالياً وحده، ترجم الذهبى فى سير أعلام النبلاء أن أحد المحدثين كان يبكى وحده يغلق باب داره، ويبكى خشية لله، وما عرف الناس أنه يبكى إلا عندما خرج طفل له فسألوه أين أبوك، فقال خلف هذا الباب يفعل هكذا، وحاكاه فى البكاء، فعرف الناس أنه- رحمه الله يبكى.

هؤلاء صوروا الدين للناس على أنه بكاء وعويل ليل نهار، وقد قال تعالى ﴿طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

وصوروا الدين على أنه قيام الليل وتلاوة الذكر الحكيم، وقد سمعت أحدهم يقول: والآن جاء موعد الواجب المنزلى، واجب كل ليلة يا إخوان، بعد صلاة العشاء طبعاً، وقيام الليل وصلاة الوتر نصلى على النبى-ﷺ- ألف مرة، ونقرأ سورة كذا وسورة كذا كذا مرة، وسألت امرأة مسلمة أحدهم: إن زوجى ينام بعد صلاة العشاء ولا يصلى ركعتى السنة ولا الوتر، ولا يقوم بالليل إلا إلى قضاء حاجته فقال لها: أعوذ بالله، هل لديك منه أولاد؟ قالت ثلاثة، قال: معلهش يا بنتى، أصبرى قليلاً عليه من أجل الأولاد، والله نسأل أن يهديه، فإن استمر على هذا المنوال فلا بد أن تطلبى منه الطلاق.

هكذا دون أن يسألها عن عمله، ودون أن يبين لها أن معاذاً- رحمه الله- قال: إن أحتسب عند الله نومتى كما أحتسب عنده يقظتى؛ لأنه يستعيد نشاطه بالليل من خلال نومه ليقوى بالنهار على ممارسة عمله، أى دين هذا؟ إن هذا ليس فقه مسلمين، وإنما فقه هواة، وقد يصلح ذلك فى فن الهواة وتقليد الممثلين والمطربين لكنه لا يصلح ديناً ولا فقهاً، فللدين منهجه الواضح، وليس منه أن تسأل امرأة زوجها الكادح الطلاق؛ لأنه ينام بالليل ناهيك بما قاله ذلك المرتدى زى الخليج من كلمات ذكر فيها أن الشيطان يسكن بيتها، وأن بيتها مقبرة، وأنه بعيد عن رحمة

الله- عز وجل، وأن الملائكة لا تستغفر لأهل هذا البيت، وقال لها: كان الله فى عونك، هل أنت تقيمين الليل؟ قالت: نعم وأقرأ الأوراد، فقال ما شاء الله، تبارك الله، فتح الله لك، إنك إمرأة مسلمة صالحة، وقد ابتليت بهذا الزوج، والصبر على الابتلاء من الإسلام، أهلاً وسهلاً، معنا اتصال آخر واتصلت به امرأة أخرى، وكان أول ما قالت هذه العبارة:

- السلام عليكم
- قال: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته
- والنبى يا شيخ إنى أحبك فى الله

وصاح الرجل: ماذا قلت؟ أعوذ بالله، قولى أولاً: لا إله إلا الله لتكفرى عن ذنبك العظيم، فمن حلف بغير الله فقد أشرك، وظل حوالى ربع الساعة يرغى ويزبد وينتقض ويقول العقيدة يا مسلمون.. العلم بالدين، نحن فى زمان الجهل كيف تقولين والنبى، دقيقة وتقولين: ورأس أبى وحياة أمى.. هذه أيمان الجاهلية، وأقول فى هذا: هناك فرق بين اليمين المنعقدة وهى بالله دون سواه، وبين لغو اليمين، وهى كذلك بالله لكنها لا يترتب عليها حق شرعى وهناك اليمين اللغوية بكل غال، وقد روى البخارى أن أبابكر خرج من المسجد بعد أن صلى العصر، فوجد الحسن يلعب مع الصبيان فحمله وقال: بأبى شبيه بالنبى لا شبيه بعلى وعلى- رضي الله عنه- يضحك، فقد قال الصديق "بأبى" ما قال: بالله فهل خرج الصديق عن الدين، ولم هذا التضييق على الناس وهم ليسوا فى ساحة القضاء أمام القاضى، وقد سود مثل هؤلاء حياة الناس بسبب هذه الحرفية، والدين عندهم شكل، فالملتزمون به إخوة، وغير الملتزمين به أعداء لله ورسوله ولهؤلاء الذين اتخذوا الدين شكلاً، وهذا غباء.

تابع فتاوى الهواة

عرف الناس دين الله – عز وجل– عزائم تبنى عليها الشخصية، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾ وروى البخارى وغيره حديث الأعرابى الذى سأل رسول الله –ﷺ– عن الإسلام، فذكر له الأركان، وكان يقول له فى كل ركن يذكره: هل على غيره؟ والنبى –ﷺ– يقول: لا، إلا أن تطوع، ثم قال الرجل قبل أن ينصرف: والذى بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص، وعقب رسول الله –ﷺ– بقوله: أفلح إن صدق، وفى رواية: دخل الجنة إن صدق.

وتأتى الفتيا وفق حاجة الناس لعارض يعرض لهم قد يخالف ما جرت عليه العادة والمعرف الذى لا يجافى الدين .

كما كان من زينب زوجة عبد الله بن مسعود التى أصبحت ذات يوم عازمة على التصدق بشىء من ذهبها فقال لها زوجها: تصدقى على، فقالت: لا، حتى أسأل رسول الله –ﷺ–، وذهبت إلى رسول الله –ﷺ– ووقفت على بابه واستأذنت، وقيل – كما روى البخارى– يا رسول الله، زينب بالباب؛ فقال –ﷺ– أى الزيانب؟ قيل: زينب امرأة ابن مسعود، فأذن لها –ﷺ– وحكت له ما كان بينها وبين زوجها فى هذه المسألة فأمرها أن تتصدق عليه وعلى يتامى فى حجره، وأن ذلك من باب أولى وعادت، وفعلت، وما كانت لتسأل لولا أنها رأت أن الصدقة على الزوج أمر مستبعد؛ لأنه الرجل المنفق نفقة واجبة عليه، فكيف تتصدق زوجته عليه!

والنبى –ﷺ– يقول: ذرونى ما تركتم وذلك حتى لا يحرم على الناس شىء، فيكون ذلك جالباً عليهم المشقة، حتى المشقة مجلبة للتيسير فى هذا الدين، وقد قال –ﷺ– إن الله كتب عليكم الحج فحجوا فقال رجل:

أفى كل عام يا رسول الله؟ فسكت –ﷺ– فلما كرر الرجل– فى رواية أنه الأقرع بن حابس– ذلك السؤال ثلاث مرات قال –ﷺ– لو قلت نعم لوجبت، والنبى –ﷺ– كما قال الله فيه يعز عليه عنت أمته، قال الله –عزوجل–: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فلا عنت فى هذا الدين ولا مشقة، والدين يسر كله، وهو مبنى كما قلت على عزم الأمور.

والعلماء يقولون فى السنة إن تاركها غير آثم إن لم يكن متكبراً عليها مستنكفاً، وهؤلاء الهواة لا يرون الدين إلا سنة وشكلاً، وهيئة لطالما خدع أصحابها بها الناس حتى كرهوا الصادق الذى يبدو عليها من كثرة ما عاشوا أوجاعاً سببها غش وخداع، وقد قال رجل وأقسم بالله أنه أراد أن يبيع سيارة له، فجاءه أحد الراغبين شرائها هو على تلك الهيئة الدائمة، من حيث الأصل، وقال: وحد الله، وصل على النبى حبيبى وحبيبك فقال الرجل: لا إله إلا الله، واللهم صل على محمد وعلى آل محمد وإذا به يعرض عليه ثمناً دون ما تستحق بكثير، وهو يقول بإذن الله، وإن شاء الله مبارك بيعك وشرائك، فأخرج صاحب السيارة من جيبه صورة له قديمة على هيئة الراغب فى الشراء، وقال له: لا تظن أننى غبى، فقد كنت مثلك ألا ترى اللحية قد بلغت صدرى، وكنت أتركها أصطاد بها الأغبياء، فزاده عشرة آلاف، وأعطاه السيارة، هذا مثال واحد من ألوف الأمثلة المؤسف، لقد تحولت حياة العوام إلى مأساة بسبب فتاوى هؤلاء، وكذلك تحولت حياة العلماء إلى غصص من جراء ما يسمعون، ولك أن تعرف السنارة التى يصطادون بها الناس إذا تكلموا فهم يحفظون مقدمات بليغة، وحناجرهم سليمة قوية وهى مقدمات فخمة العبارة، مسجوعة الجمل، مضبوطة الشكل بعناية تامة، إذا سمعتها قلت: أهل علم وبلاغة فإذا انتهت تلك المقدمات سمعت جهلاً وغباء، فلا علم، ولا قدرة على وعى وفهم، ومعظم كلماتهم اللهم صل على حضرة النبى، وياجماعة،

وسبحان الله وتبارك الله، وما شاء الله، والواحد لا يدرى ما يقول وأنت إذا شاهدتنا، وشاهدت الشيخ فلاناً وتفسير الشيخ علان هداك الله إلى الرشد وإلى تباع محمد -ﷺ- وما يذكرونه من أسماء لا تجد فيها اسماً لعالم معتمد.

التعصب عند هواة الفتاوى

صدق الله العظيم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ والتعصب من التكلف بمكان، وما أبعد هذا الدين عن التعصب، مر النبى -ﷺ- بفرقتين يتسابقون (على نحو وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)، فقال لإحداهما: ارموا يا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بنى فلان فتقف الأيدى أيدى النبلاء عن الرمى، فيقول: -ﷺ- ارموا، فيقولون: كيف نرمى وأنت معهم، فيقول -ﷺ- ارموا وأنا معكم كلكم. رواه البخارى .

لو أن المتعصبين لفرق كرة القدم فقهوا هذا الحديث لما كان ما كان من مواقف سيئة من أثر التعصب بين الفرق وبين الدول فى الأمة الجريحة التى هى أشد ما تكون حاجة إلى الوحدة، يأتى التعصب للكرة فيباعد بينها، ويفرق صفها، ويمزق وحدتها والإعلام -هداه الله- طبلة فى يد مجنونة، إلا من رحم الله من الأصوات الصادقة الضعيفة، يورث الإحساس بالبغض، ويسعى تحت شعار البرامج الساخنة إلى توسيع رقعة الخلاف والبغض، لو فقه الناس هذا الحديث الذى قد يستدل به بعض الهواة من الدعاة على إباحة الرياضة دون التوقف عندما ينبغى التوقف عنده من قوله -ﷺ- "ارموا وأنا معكم كلكم"، يعنى مع بنى إسماعيل المهرة بالوارثة والتدريب ومع غيرهم، أشجع الجميع، وأنصف الماهر، وأحكم بالعدل.

ماذا على الناس لو تأسوا بسيد الناس -ﷺ- فنزعوا من صدورهم تلك الروح السوداء الدخيلة التى تتنازع والفطرة السليمة، فتغشاها،

وتكشف سوأة نفس مريضة فتحرق الأخضر واليابس، ومن التعصب الذى عرفته الأمة فى تاريخها ما يطلق عليه التعصب القبلى، والمذهبى، الذى قضى عليه الإسلام بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

تعصب هواة الدعاة لزى معين، لم يألفه الناس فى وطنهم، ونحن لانعيب ملابس الناس التى ارتضوها، فلكل أمة ما تشاء من ملبس ومأكل لم يحرمهما الله عز وجل لكن لباس الناس عادة، وألفة، وهو مودة، وهو من المروءة فما هذا الشكل؟ وإذا كانوا قد ارتضوه لهم فلماذا لا يعيشون فى بيئته، ويعاشرون أهلها، ويعظون الناس فيها تاركين الناس على ما تعودوا، ما لبس -ﷺ- لباساً خالف به مجتمعه وبيئته، وما أنكر على أحد جاءه فى الوفود ما رآه عليه من هيئة تخالف المعهود فى تلك البيئة، بل إنه -ﷺ- أهدى إليه ثوب معلم، فطرحه وقال: شغلنى فى صلاتى، وأكل -ﷺ- ما يأكل قومه، شرب ماءهم، وأكل عنبهم وتمرهم، وشياههم، وتزوج نساءهم، ولان لهم، ولا تعنى مسألة التعصب فى الملبس إلا أنها هيئة تشير إلى نزعة مذهبية، وكأنهم يقولون بلسان الحال - وللحال لسان قد تكون أبلغ من لسان المقال-: إن الدين هناك، وليس هنا، وقد جئناكم رسلاً من هناك لننذر قومنا ثم يأتى التعصب الذى كل ما فيه ضرر، وهو حمل الناس على طريقة معينة دون سواها، وياليتهم يقفون عند قول الإمام مالك- رحمة الله عليه - حين طلب إليه أن يعمم كتابه الموطأ فى الأمصار فقال: لا، لقد تفرق صحابة رسول الله -ﷺ- فى الأمصار (البلاد)، وكل حدث بما سمع، أى كل صحيح وقد يصل أحدهم إلى حديث لم يصلنى، وكان الإمام مالك رحمه الله. لا يرى صيام ستة من شوال من السنة، وقال: أخشى أن يظن الناس أنها من رمضان، وما كفره الناس، وما لعنوه، وما أخرجوه من حظيرة الإسلام، وإنما قالوا: لعل الحديث فيها الذى رواه مسلم فى صحيحه لم يبلغه، وبعضهم قال: لعله لم يره صحيحاً، وذلك - طبعاً - قبل أن يرى مسلماً وغيره، ولو رأى ما بذله مسلم والبخارى قبله من جهد لقال بصحته ولما

جرى مجرى الذين سابقوا فى تخريب الصحيح من الحديث وسوف يأتى كلام عنهم فى موضعه هنا، والشاهد أنه – رحمه الله ورحمهم- لم يكن ينكر عزيمة من العزائم أو رخصة من الرخص أو ركناً من الأركان، وماعده العلماء هنياً عده الهواة من مشتهى الفتيا عقبة ونكبة، يقول أحدهم: (روح) هكذا الأول أطلق لحيتك ثم تعالى فكلمنى، فأنت غير متأس برسول الله -ﷺ- وبعضهم يرى أن الصلاة خلف إمام بلا لحية لا تصح، وسرد مسائل التعصب تحتاج إلى مجلدات، ولا خير فيها، وما هى من باب التعصب للحق، ولكنها من باب التعصب للشكل، والدين فوق الشعر كله بفتح الشين .

الجهل بفقه الأساليب

ومن الغباء الصريح: الجهل بأسرار اللغة، وفقه الأساليب وسوف أضرب مثلاً لكل منهما:

عرفت اللغة العربية معنى الظرف "عند" على أنه لا يعنى ما عرفه عنه الهواة، تقول: عندى عشرون فداناً، وبينك وبين فدادينك آلاف الأميال، وتقول: عندى مليون جنيه وليس فى جيبك ولا فى بيتك شىء منها، إنما هى فى مصرف بعيد، وقد تأتى "عند" على ما عرفوه، وقد توقفوا طويلاً عند قول الله – تعالى- **﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾** وهات يا صياح وصراخ... يقول الله (عندك) يقول ماذا يا إخوان "عندك" يقول ماذا يا شباب (عندك) يقول ماذا يا أحباب محمد -ﷺ-؟ "عندك" يعنى ماذا؟ يعنى فى بيتك، آه.. ثم آه، عندك، يعنى لم يقل فى دور المسنين .

وهات يا مسكباً للدموع، ويا وخزاً فى القلوب وفى الضلوع وهذا كلام غير صحيح، إذن إن معنى (عندك) أى فى رعايتك وكنفك، وليس شرطاً ولا ضرورياً أن يكون والداك فى بيتك، والدليل على ذلك اللفظ نفسه الذى لا يعنى بالضرورة أن يكونا فى بيتك قال الألوسى فى تفسيره

(٩/ ٦٧٨): ومعنى عندك: فى كنفك ورعايتك" ما قال فى بيتك، والأمر مرجعه إلى أحوال الناس، فقد يكون بيت أبويك أوسع من بيتك، وقد تكون رغبتهما فى العيش فيه، فاجعل لهما خادماً إن استطعت أو كن دائماً فى خدمتهما، وقد تكون دور المسنين أطيب وأجمل وفيها من الرعاية والبرامج والطب والرياضة والنظراء والأمثال ما تطيب الإقامة معه، وادفع مصروف الدار، وزر فيها أبويك أحدهما أو كليهما، وقد يكون بيتك أرحب وأوسع فلا مشكلة ولا حرج، ولا تضييق على أحد، والله -عزوجل- يقول: "فلا تقل لهما أف" وقد يكون وجود أحدهما فى بيتك مما يجعلك تقول: ألف أف فى كل ساعة، حيث ضيق المكان وضيق صدر زوجتك وأبنائك الذين يريدون أن يستذكروا دروسهم، ويقابلوا زملاءهم وأصدقاءهم، والكبير قد ينغص هذا ما عليه من حال معروفة، يتدخل فيما لا يعنى، ولا يتحفظ فى عبارته، ولا يملك نفسه فى كثير من الأمور قد يبول على نفسه، وتتبرم زوجتك، وتستحى ابنتك الشابة أن تراه صاحبتها، وغير ذلك، ومسكنك ضيق، فما زادتك هذه العندية البيتية إلا ارتكاب ما نهى الله عنه، وإذا بك تصرخ فى وجه زوجتك وأولادك وتقول: الصبر يا رب، أبى، وأمى ماذا أفعل فيه، أأرميه فى الشارع، أو أودعه دار مسنين والدكتور الذى – والله ما حصل على الدكتوراه- فى التليفزيون يقول عندك... عندك.. عندك هل تريدون لى أن أدخل نار جهنم، أنت لستم أبنائى، وأنت يا رفيقة الشيطان طالق طالق طالق.

وقد تقول: يا رب خذه أو خذها حتى يرتاح هؤلاء عبدة الشيطان، هوس واضطراب، وغباء يحجر على الناس ما وسعه الله – عز وجل-، إنه غباء يدخل صاحبه النار؛ لأنه ضل وأضل الناس.

والدليل على أن العندية لا تعنى البيت حديث الغار الذى رواه البخارى، وجاء فيه أن أحد الثلاثة الذين دخلوا الغار كان له أبوان كبيران، وكان قد تعود أن يذهب إليهما باللبن يسقيهما قبل أن يسقى أهله

ووالده، وشغله ذات يوم شاغل فتأخر عنهما، فلما حلب متأخراً، وذهب إليهما وجدهما نائمين، فخشى أن يوقظهما فيرهقهما، وخشى أن يمضى باللبن إلى أهله فيستيقظا ولا يجداه فيغضبا، فظل واقفاً واللبن فى يده حتى طلع الفجر، فسقاهما، ودعا الله تعالى إن كان هذا العمل قد كان منه لوجهه تعالى أن يكشف عنهم ما هم فيه فانكشفت الصخرة، لا شك أن والديه كانا فى بيتهما، ولم يكونا فى بيته، إذ إنه قال كنت أذهب إليهما، وظل واقفاً وهما نائمان، وخشى أن ينصرف فلا يجداه، ولو كانا فى بيته لما خشى أن ينصرف، فإلى أين ينصرف ما دام فى بيته، والنبى -ﷺ- كان يكرم أمه فى الرضاعة وهو فى المدينة وهى فى مكة ثويبة ولم يأت بها إلى المدينة ولا يقولن أحد: أصلها فى الرضاعة فهذا عيب وجهل فالمهم أن يكون والداك فى كنفك ولو كانا فى دولة أخرى.

الخبيثات من الأعمال للخبيثين من الناس

فرق كبير بين أن تقول خالتك الحاجة لجارتها التى التى تشكر زوجه وتثنى عليه "طبعاً يا أختى الطيبات للطيبين" وأنت لولا أنك طيبة وبنت حلال ما كان الله قد رزقك هذا الزوج الطيب صاحب القلب الكبير والمال الكثير، أنت تستحقين هذا الخير ربنا يديم عليك وعليه ستره ورضاه وواسع رزقه، بالإذن يا حاجة، فتك بعافية.

وبين أن يقول لك من يرتدى ملابس الشيوخ قرأ ذلك قولاً غير مجمع عليه، فعض عليه بالنواجذ ولم يقرأ ما قبله الذى قدمه ابن كثير مثلاً عليه، وذكر جملة عظيمة من العلماء منهم كبار الصحابة والتابعين، أن معنى قوله عز وجل: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ معناه: الخبيثات من الأعمال والأقوال، وسوء الخلق للخبيثين من الناس، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال، والطيبات من الأعمال للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبين من الأعمال لا صلة للرجال والنساء بذلك،

والدليل على صحة هذا القرآن الكريم نفسه، فالله عز وجل يقول فى آية الإسراء: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أى أن الطيب يعمل الطيب والخبيث يعمل الخبيث، وأقوى دليل على ذلك قول الله- تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

فقد كانت امرأة نوح وامرأة لوط كافرتين، ونوح ولوط نبيان طيبان على أكمل ما يكون عليه طيب الناس عقيدة وعملاً وخلقاً وعلى النقيض كانت امرأة فرعون مثالاً فى الإيمان وزوجها فرعون أخبث خلق الله، قال بغروره ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ فقد دل هذا على أن الطيب قد يتزوج الخبيثة والخبيث قد يتزوج الطيبة .

وكذلك قول الله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. تحدث ربنا عن الذين يعلمون أن ما أنزل إلى رسوله محمد -ﷺ- هو الحق، بخلاف من عمى ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ وبعد أن ذكر من صفات هؤلاء ما ذكر ومنه أنهم يدرءون بالسيئة السيئة قال ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ فجعل شرط الصلاح فيهم سبباً للحوق بهم فى جنات عدن، وقد يتخلف هذا الشرط، ولو كان الطيبون للطيبات ما كان هناك من داع إلى قوله تعالى: "ومن صلح" لكنه قاله للتوكيد على أن من الأزواج غير صالحين فلا يدخلون الجنة مع أزواجهم الصالحين، فكل امرئ بما كسب رهين، ولا تزر وازرة وزر أخرى فكيف يقرر الهواة شيئاً وأمامهم هذا الفيض من الأدلة، إن كان لم يتضح شىء من هذا أمامهم من هذا

أمامهم فقد غبوا، والغباء فى مثلهم متوقع؛ لأنهم هواة، وهذا الغباء قد أفسد على الناس حياتهم، تقول من استمعت إلى هذا الإصرار: إننى فتاة ربيت فى بيت مسلم كريم، بين والدين حريصين على منهج الله قدر طاقتهما، حفظت ما تيسر من كتاب الله، وعرفت أصول دينى، وتخرجت فى الجامعة، ولم أتعرف خلال دراستى بها إلا على بنات ملتزمات بدينهن، لم أشترك فى جماعة ولم أمارس هواية، وما بت ليلة خارج بيت أبوى، وشاء الله، وتقدم لى شاب رأيت ورأى والداى بأنه مناسب، فقط كنت أخشى الفارق الاجتماعى بينه وبيننا، فوالده غنى، وذو مركز كبير، وأبى على المعاش، صحيح أنه خرج بدرجة وكيل وزارة ولكنه متوسط الحال، تمت الزيجة وظهرت حقيقة زوجى، فهو لا يصلى بنظام، يصلى الجمعة وأحياناً بعض الأوقات وهو مدمن خمر، وله بعض الاعتقادات غير الصحيحة، وأنا فى فزع من أمرى، حيث الشعور الذى كاد يقتلنى بأننى امرأة غير طيبة فالله يقول: "والطيبات للطيبين" لست أدرى مصدر هذا الصوت الذى بداخلى، والذى يهتف بى ليل نهار ويقول أنت خبيثة لأن الله رزقك هذا الخبيث، ولو كنت طيبة لرزقك الله زوجاً طيباً، والمشايخ فى قناة كذا وقناة كيت يقولون معنى الآية هكذا، فشرحت لها ما ذكرته هنا فاطمأنت، هل رأيت أن الغباء كيف يفسد على الناس حياتهم، ويزرع فيهم الفتنة!

من الجهل بفقه الأساليب

العلماء على أن ذكر الله – عز وجل- على حذف مضاف، أى فى قول الله- عز وجل-: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾** معنى ذكروا الله على حذف مضاف، أى ذكروا وعيد الله فاستغفروا لذنوبهم ولولا أنهم تذكروا النار، وذكروا أهوال العذاب فيها لما استغفروا لذنوبهم التى لولا رحمة الله ومغفرته لدخلوا بها النار، لكن الله يقبل التوبة ويعفو عن كثير .

وكذلك فى قول الله – عز وجل-: **﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** آية الأنفال، أى إذا ذكر وعيد الله وعذابه الذى لا يعذب أحد مثله **﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾** فمحال أن يكون ذكر الله بسبب وجل القلوب إلا على هذا البيان والتفسير وهو علم.

وكذلك فى قوله – عز وجل-: **﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** هو أيضاً على حذف مضاف، تقديره "إذا ذكر وعد الله" فإن قلوب الذاكرين وعده تطمئن لأن وعده الحق بخلاف وعد كثير من الناس، الذين يعدون بالأمانى، ومعسول الأغانى، وما أشبه وعودهم بكلام الليل الذى قال فيه الشاعر: (من الوافر)

كلام الليل مدهون بزبد … إذا طلعت عليه الشمس ذابا

وجميع ما سبق كقول الله – عز وجل- واسأل القرية- إنما هو على حذف مضاف تقديره "واسأل أهل القرية" فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فأخذ إعرابه.

لكن كثيراً من الهواة حملوا الناس على ذكر الله، أى ذكر اسم الله، هكذا: الله، الله، الله، مائة مرة وألف مرة، ومليون مرة، وهكذا، وأدى ذلك إلى مأساة، حيث تحول الذكر الذى يبنى إلى ذكر لا صلة له بالبناء، ومعنى ذلك أن الذى يذكر وعد الله يذكر مقتضاه ومقتضاه العمل الذى يتسبب عنه ذلك الوعد من عبادة تؤدى على وجهها الصحيح ومعاملة بالحسنى تهدى إلى حسن المعاشرة والثقة بأمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن الذى يذكر وعيد الله إنما يعمل كذلك بمقتضاه، ومقتضاه اجتناب ما حرم الله عز وجل، لأن ارتكابه يحقق وعيده ووعيده صعب فى الدنيا **﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** وفى الآخرة **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**.

هذا معنى الذكر، ولطالما قال العلماء: ذكرت قول الله تعالى كذا، وروى أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان وقافاً عند كتاب الله، أى إذا تليت عليه الآية راجع نفسه، كما قال فى وفاة النبى -ﷺ- حين تلا أبو بكر -رضي الله عنه- قوله تعالى: **﴿وما مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾** هدأت ثورة عمر، وسكن، وقال: كأنى أسمعها لأول مرة .

وحين دخل عليه عيينة بن حصن، وكان فى لسانه شىء من حدة، ونهاه ابن أخيه عن الدخول على عمر فأبى ووعد خيراً، وسأله أن يستأذن له، ففعل، فلما دخل قال: يا عمر إنك لا تحكم بالعدل، ولا تعطى الجزل، فغضب عمر غضباً شديداً، وهم أن ينال منه، فقال ابن أخيه واسمه الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله – تعالى- يقول: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** وهذا من الجاهلين، فهدأ عمر، وكان -رضي الله عنه- وقافاً عند كتاب الله، هذا معنى الذكر الذى قال الله – تعالى- فيه فى آية الذاريات **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** نعم ينفع المؤمنين أن تذكرهم بوعد الله فيعجلوا الطاعات، وأن تذكرهم بوعيده فيجتنبوا المحرمات، فإن هم ذكروا على الوجه الذى ذكره العلماء ثم قالوا بألسنتهم: لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله أكبر، وما ورد مثله فى الصحيح كانوا قد رطبوا ألسنتهم بذكر ما ورد من ألفاظ خفيفة على اللسان محببة للرحمن، ثقيلة فى الميزان، وقد رطبوا الدنيا كلها بطيب أعمالهم، أما إذا كان الذكر مجرد ترديد باللسان مع فقد المقتضى فما ترطب لسان وما ترطبت دنيا، وكان ذلك أقرب للغباء الذى يذهب بأصحابه إلى النار.

دعاة الفكر الإسلامى

إسراف فى إطلاق العبارات، لا صلة له بما ذكره العلماء من تسامح، فهو عين الكذب، ولا تسامح فى الكذب الذى هو ضرب من الضلال ما أبعد المسلمين عنه، وقد ورد من قول صاحب الدعوة الخاتمة رسول الله -ﷺ- ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس، فيقول خيراً، وليس منه الكذاب الذى يدعى حصوله على الدكتوراه، ولم يحصل عليها أو يناديه مذيع مسكين يقرأ ما يقال له التايتل سعادة الأستاذ الدكتور فتراه مبتسماً ابتسامة ذات حدين: ابتسامة سعادة وإقرار بأنه بالفعل دكتور، وابتسام هى أحد الحدين موجهة إلى من يشاهده يقول له فيها: لا بأس، لا ضرر، فليقل ما يقول، والمسألة ليست دفاعاً عن تلك الشهادة العليا وشرفها وشرف من يجملها وإنما هى دفاع عن الصدق الذى ينبغى أن يتحلى به المسلم لا سيما من يتصدر للعلم والفتيا، وليس بضاره ألا يكون مدكتراً، ولا يعيبه أنه ليس من أهل تلك الشهادة ما دام يعلم ما يقول، ويضبط ما ينقل، وكذلك إطلاق لقب مفكر إسلامى، حيث لا معنى له، ولم يتصف به أحد من الأعلام الأفذاذ الذين يستحقونه بجدارة، وهم له أهل فإذا تجاوزنا ذلك إلى مقتضاه المفقود، وجدنا عبثاً ومأساة، حيث لا فكر ولا إسلام.

فما معنى الفكر فى الدعوة إلى التخلص من النصوص الثابتة توافداً وإعمال العقل، ففى أى شىء يعمل العقل إن لم يعمل فى موجود، وهذا الموجود هو النص بلا شك، الذى أعمل فيه السابقون عقولهم فأسفر ذلك عن نتائج عظيمة يرى هؤلاء المفكرون أنها لا شىء، لا شىء كلمة إما أن تكون قاتلة عند من يأخذ الأمر جداً ويحمله على محمل الجد، وإما أن تكون مثيرة للضحك عند الذى ينظر إلى هؤلاء وقد وسع الله صدره، فرآهم لا شىء فهو يضحك، وضحكه بمثابة من يضحك على نكتة فارغة!

وأى إسلام فى هذا الفكر الذى منه دعوة بعضهم الناس إلى الحج فى أى يوم من أيام السنة، وأن يقف بعرفة فى أى يوم من أيام السنة

وأى إسلام فى هذا الفكر الذى منه قول بعضهم أنا أعرف الإسلام جميلاً، وأن ربنا رحيم وأن رسول الله -ﷺ- حبيب، أما إسلام الصلاة والزكاة وهذه الشعائر فأنا لا أعرفه، لا صلة لى بذلك .

وأى إسلام في قول بعضهم إن ربنا ذاته له موقف من المرأة، فقد قال ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾!

والله لقد سمعته يقول ذلك بأذنى، فهل هذا إسلام أم أنه هجوم على الإسلام.

ثم أى فكر رأى إسلام فيمن يفسر القرآن على هواه وهو لا يملك أدواته، فيرى أن الوقوف بمنى ثلاثة أيام للأتقياء لأن الله يقول "لمن اتقى" والعلماء على أن قوله تعالى: "لمن اتقى" جملة مستأنفة لا صلة لها بالبقاء بمنى يومين أو ثلاثة، أى هذا بيان الله لمن اتقى ومن قال إن قوله تعالى "فإنى قريب" جاءت بدون نقل لأن الله ليس بينه وبين عباده واسطة على عكس المعهود من نحو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ونحوه ولم يدر أنه لو قال فقل إنى قريب لالتبس الضمير هل يعود على الله أم على الرسول، ومن قال إن الله يقول لموسى ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وقال الله "فخذها" لأن قوم موسى ضعاف أم هو تقوى، فهم يتخيرون الأحسن ويأخذونه وعليه -عليه السلام- أن يأخذها كلها، ولم يدر أنه "أحسن" أفعل تفضيل جاء على غير بابه فكل ما فيها حسن، إلى غير ذلك مما تنكشف عنه سوأة النفس الغبية.

ثم أى فكر فى الأساليب الملتوية والمصطلحات الغريبة التى لايفهمها أولوا النهى فضلاً عن عامة الناس الذين من أجلهم كانت الدعوة إلى الفكر الذى ينتشلهم من غياهب الجهل إلى آفاق النور والتفصيل يحتاج إلى مجلدات .

الهجوم على التراث

ظهرت فى الآونة الأخيرة أصوات منكرة، تهاجم التراث وأهله وهى ليست بدعة من أصوات قبلها تنوسيت وأهملت، وانزوت وانزوى أصلها، وفى كتب التراث الكثير منها، وقد رد العلماء على بعضها، واكتفى بعضهم بتعقيب يسير فى جملة واحدة هى (وفيه نظر) وبعضهم يقول: وهو قول مردود، وأحياناً يقال فيه: وفساده بين، أو لا يلتفت إليه ونحو ذلك مما يعرفه مدمنو النظر فى ذلك التراث العظيم .

فمن اطلع على كتب التراث وهو عالم أدرك ذلك وأدرك أنه ما من خطر يترتب عليه، لكن هذه الأصوات ظهرت على الشاشات، وخاطبت عامة الناس، فأحدثت فيهم هلعاً، وأثارت فيهم اضطراباً، ومن هذه الأصوات صوت يقول: لا داعى إلى الأزهر، ولا إلى علمائه، ولا إلى كتب التراث، حكم عقلك، وأفت نفسك فالإسلام دين العقل، وقد تأخرت الأمة لأن الناس عبدوا الفقهاء .

هذا الصوت مع الأسف الشديد ألف كتاباً حول ما جاء فى صحيح البخارى ومسلم من أحاديث عبر عنها بأنها غير ملزمة، وكان من الممكن أن يظل الكتاب على الأرصفة يقرأ الناس عنوانه فلا يلتفت إليه أحد؛ لأن الجواب بين من عنوانه فالزبيدى – رحمه الله- ألف التجريد، فهرع إليه الناس؛ لأن غايته حميدة، وهى تجريد البخارى من التكرار، كل عمل الرجل أن يذكر أحاديث الجامع الصحيح غير مكررة، فهو مفيد، وإن كان لتكرار الأحاديث غاية ذكرها ابن حجر فى فتح البارى وغيره، لكن أن يؤلف فى تجريد البخارى ومسلم من الأحاديث غير الملزمة فهذا عمل خسارته أقرب من ربحه، وما ينال من طبعه إلا خسارة فى المال وسخطاً من الناس؛ فقد تلقت الأمة هذين الكتابين بالقبول، وهما أصح كتب بعد كتاب الله – عز وجل، ومعنى تلقته الأمة بالقبول، أى تلقاه علماء الأمة

بالقبول، وأى علماء إنهم النجوم اللامعة، والعقول الجبارة التى أسست صرح العلم، ولا يشق لهم غبار، ولكن مثل هذه الأصوات حين ظهرت على الشاشات، ماذا قالت؟ خلاصة ما قالت أن فى البخارى ومسلم أحاديث قال هذا الإنسان: إنها من شغل الوضاعين، هكذا مرة واحدة، يعنى أن فى البخارى ومسلم أحاديث موضوعة وهذا أمر يثير الضحك عند العلماء الثقات المعتمدين، لكنه يثير الفوضى والقلق والاضطراب عند غيرهم، ويحرك شهوة الأغبياء الذين يتطلعون إلى أن يكون الدين كله مجرد أكذوبة، فلدينا من أسلم تباعاً لأبويه ثم صار بلا دين، وقال أنا قايدانى وأنا بهاقى، وأنا بلا دين، ونحو ذلك كثير، والإسلام كما قال النبى -ﷺ- عريض، والله غنى عن العالمين، وقد قال تعالى: **﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** فالقضية ليست من قبيل التباكى على جميل ولى، أو قيمة تبددت، إنما القضية فى المستقبل وإثارة الفتن، وأود أن أذكر خلاصة الخلاصة فى هذا الضرب من الهوس، حيث ذكر من أحاديث الصحاح قول النبى-ﷺ- "إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة" رواه مسلم، وضحك الرجل حين قرأه، وقال مخاطباً السادة المشاهدين: هذا نوع من الوضع .

فقال له محاوره الطبيب: وما الغرض من هذا الوضع؟ فقال: نشر الخرافة، فهل توجد شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة.. وهات ياضحك.

وقال محاوره: صحيح

أى صحة وأى صحيح؟ قال النبى -ﷺ- هذه الشجرة فى مكة أو فى مصر، أو فى السودان؟ إنه قال فى الجنة، فهل رأى المتحدث أو غيره شجر الجنة وهل يقاس على شجر الجنة شجر، ونحن نؤمن بأن فى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومنه هذه الشجرة التى رآها ذلك الإنسان ضرباً من الوضع، وإثارة للخرافة، مأساة

بكل المقاييس فإن نظرت إلى المتحدث بعين الإيمان قلت جاهل وإن استمعت إلى لقبه قالوا لك مفكر إسلامى كبير فأى فكر فيه، وأى شىء يحتويه، والطفل يفهم أن الآخرة ليست كالأولى ولولا أننا مسلمون لقلت لا أراه الله إياها!

١- تحريف وانحراف عن الحق

حدثنا القرآن الكريم عن تحريف بنى إسرائيل للكتاب، الذين ادعوا أن الله قال كذا، وهذا القول كتبوه بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً، قال الحسن بن أبى الحسن البصرى: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها، وذلك لأنها لا تغنى عنهم من عذاب الله من شىء، قال تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** ومما لفوه، ونسبوه إلى الله عز وجل، وذكره العلماء المفسرون أنهم قالوا: إن الدنيا سبعة آلاف سنة، ونحن نعذب بكل ألف سنة يوماً فمجموع عذابنا فى النار سبعة أيام معدودة، قال تعالى فى الرد على هؤلاء الكذابين **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**.

ولعل فى ذلك درساً للذين يعشقون البحث فى الأرقام والحساب، ويدعون أن سورة كذا من سور القرآن الكريم مكونة من كذا حرفاً، وهذا يدل على كذا وكذا، ومن هؤلاء من يقول: إن ليلة القدر هى ليلة السابع والعشرين من رمضان؛ لأن سورة القدر مكونة من سبع وعشرين كلمة، ولا دليل فى ذلك على ما قالوا، بل إن العالم العلامة وغيره يدركون أن العدد على غير ما قالوا، ومن ثم نترحم على علماء العربية الذين يعدون نحو "سألتمونيها" كلمات لا كلمة واحدة، ففيها فعل وفاعل ونون وقاية ونحو "أكرمتك" ثلاث كلمات لأن أكرم كلمة، وتاء الفاعل كلمة، والكاف

التى هى مفعول به كلمة، فالمجموع ثلاث كلمات، لأن الكلمة اسم وفعل وحرف، قال ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف الكلم

فإذا سألت عالماً كم كلمة فى (أكرمتك) قال: ثلاث وإذا سألت غير العالم قال: كلمة واحدة، فمن تصدق؟ وعلى هدى من تسير؟ وأنت إذا طبقت العلم على ما قيل فى سورة القدر، قلت: "إنا": (٢) وأنزلناه: (٣)، فى: (١)، ليلة القدر: (٢) و(١) ما: (١) أدراك: (٢) ما: (١): ليلة القدر: (٢) ليلة القدر: (٢) خير: (١): من: (١): ألف شهر: (٢) تنزل: (١) الملائكة: (١) و: (١): الروح: (١) فيها: (٢) بـ: (١) إذن ربهم: (٤) من: (١) كل أمر: (٢): سلام: (١) هى: (١) مطلع الفجر: (٢).

أى: ٢+ ٣+١+٢+١+١+٢+١+٢+٢+١+١+٢+١+١+١+١+ ٢+١ + ٤+١+٢+٤+١+٢= ٣٩ كلمة .

ومعنى ذلك أن ليلة القدر فى ليلة العاشر من شوال إذا كان رمضان ثلاثين ليلة، أو ليلة الحادى عشر من شوال إذا كان رمضان تسعاً وعشرين ليلة .

وحين نزل قول الله – تعالى– من سورة المدثر: عليها تسعة عشر ظن أحد العتاة من المشركين أن معناه العدد المعروف فقال لعبيد عنده على كل واحد منكم أن يصارع واحداً من زبانية جهنم، ودعوا لى كبيرهم، فأنزل الله – تعالى– ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ﴾ ومن الجائز أن يكون التمييز ألفاً أو مضاعفة أو ما لا نصل إليه من عدد، فلم الفتنة بالأعداد، والحروف، ولا سند عليها ولا أمر بالاهتمام بها إلا معرفة الحساب المعروف الذى من أجله خلق الله تعالى الشمس والقمر والليل والنهار من أجل معرفة الحساب الذى تنبنى عليه الحياة وما يصلحها، فتعرف كم تبقى

على صرف راتبك وكم تبقى على سداد دينك، وكم تبقى على بداية صومك ونهايته وكم تبقى على عدة المطلقة والأرملة حتى تتزوجا إن كانت لديها حاجة إلى الزواج، أما أن نعد حروف سور القرآن وآياته لاستنباط أحكام شرعية فهذا هوس وضلال مبين، وتحريف يؤدى إلى الانحراف عن منهج الله– عز وجل– والذى يفتن بذلك أساساً لايحسن العدد؛ لأنه يعد الكلمات كلمة واحدة، حتى لو عدها على النحو العلمى الذى ذكرته فسوف تعتريه به قاعدة تقول: المحذوف لعلة كالثابت، فهل يعد المحذوف لعلة لأنه كالثابت، أم لا قضية أخرى تجعل الأمر مستبعداً بالنسبة إلى الأحكام التى تبنى على النصوص القطعية ولا قطع فى عد الحروف بناء على ذلك، فليتق الله أهل الهوس والاختراعات فلا يضيعوا أعمارهم فى الهواء وليبحثوا فيما هو نافع مفيد لهم وللناس.

٢- نوع من التحريف لم يدرسه أحد

عرف الناس التحريف والتصحيف فى مجال تحقيق كتب التراث لكن أحداً لم يهتم بالتحريف من حيث هو سلوك إنسانى، يخالف الواقع الناطق بخلافه، وأعنى بذلك التحريف أن تسأل إنساناً وتقول له: كيف حال دنياك؟ وما أخبارك؟ وما أخبار زمانك وأولادك فيرد عليك بالتحريف الذى منه قوله: ماشية، ويعنى، وماذا نفعل؟ ومثل ذلك الأمر الذى يفيد بأن حاله ردئ، وأن ظروفه بين بين بينما الواقع بخلاف ذلك، فقد يكون ذا مال، وذا نسب، وقد يكون فى غاية السعادة، وأقرب إلى الكمال منه إلى النقص، فلم هذا التحريف؟

والجواب عن هذا السؤال يكون من عدة أوجه، أهمها:

١- أن هذه هى الثقافة السائدة، وهى أشبه ما تكون بالمثل السائد، والناس يحاكى بعضهم بعضاً، وهناك من يرد عليك دائماً بقوله: "تمام" حيث لاتمام، ولا كمال، ولا شىء، لكن هذا اللفظ جرى على

لسانه، كما جرى على ألسنة أهل الشرقية "الله وكيل" وكما جرى على ألسنة أهل كفر الشيخ "كالح" يطلقونها على المعرض عنك حياء، وكما جرى على ألسنة أهل قنا "نحمد ربنا" وعلى ألسنة أهل سوهاج "تتستر، ومستورة" وهكذا. وعلى لسان كثير من الناس- والحمد لله- قولهم "نعمة وفضل".

٢- وأن ذلك من قبيل دفع الحسد، حيث يظن كثير من الناس أنهم إذا أفصحوا عن الحقيقة، وقالوا: نحن فى نعم كثيرة منها كذا وكذا فإن السامع سوف يحسدهم، ويترتب على هذا الحسد ضياع ما عندهم من تلك النعم والخيرات فوراً وليس هذا حقاً، وهم يؤمنون بالمثل القائل: "دار على شمعتك تقيد" وظاهر المثل صحيح، أى احفظ شمعتك من هبوب رياح فذلك أدعى إلى استمرارها مضيئة لكن أن يضرب هذا المثل فى كتمان النعم، وإظهار البؤس والشقاء، ظناً بأن ذلك يحفظ النعم ويديمها فهذا غير صحيح، ولدينا على ذلك دليلان:

الأول: قول الله – تعالى– **﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾** وهيهات أن يأمرنا ربنا بالتحدث بالنعمة ويأتى عارض يسحقها من حسد وغيره، وقد ثبت فى الصحيح أنه –ﷺ– قال: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

وهناك فرق بين من يلبس الجميل وينطق بقاموس النعم ليظهر نعمة الله عليه، وبين من يفعل ذلك استعراضاً ليغيظ من هو دونه، ويحرق قلبه، فالأول عابد متقرب إلى الله –عز وجل، مظهر نعمة ربه، وقد كان الإمام مالك – رحمه الله– على هذا المنوال، يبدو فى أطيب صورة، ولما لامه أهل الزهد أجابهم بذلك.

والثانى: قول الله – عز وجل-: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾**.

وهذه الآية الكريمة دليل واضح على أن الحسد لا يزيل النعمة، وإنما هو نار تحرق صاحبه دون المحسود، وإنما يكون الحسد خطراً على المحسود إذا قام الحاسد بنفسه بتدمير المحسود، وهذا معنى قول الله – تعالى- **﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾** أى إذا دفعه الحسد إلى أن يقوم بنفسه بتدمير المحسود، أما أن يظل منتظراً داهية تلحق به فهذا لا يضر إلا به، ومن ثم قال القائل:

اصبر على كيد الحسود	**فإن صبرك قاتله**
فالنار تأكل بعضها	**إن لم تجد ما تأكله**

وقد نهينا عن التحاسد كما جاء فى الحديث الصحيح الشريف، "لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا".

٣- ومن أوجه الجواب عن هذا التحريف طمع المحرف فى عطاء مخاطبه، فلطالما ادعى من عنده أنه ليس عنده حتى يعطف عليه الناس، وفى الحديث: من سأل الناس وعنده ما يكفيه فقد استكثر من جمر النار .

٤- والوجه الرابع: سد باب الطمع فيه، أى أنه يحرف فى الجواب حتى يرى سائله أن المسئول ليس خيراً من السائل، وعند كثير من الناس حاسة قوية فى ذلك حيث يشم من رائحة السؤال أن السائل يريد قرضاً حسناً أو معونة غير قابلة للرد، ونحو ذلك، فهو يقول من أين؟ ولكن عن طريق الجواب الذى يسد النفس ويصد عن الطمع، ويبقى قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**. نوراً يهدى الله به المبصرين .

الفصل الثالث

فى مظاهر الغباء عند الناس

حواشى الأغبياء

يرى المؤلف - رحمه الله - والحمد معناه الثناء.

يقول المحشى من العلماء: ولهذا بدأ الله كتابه بـــ"﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويقول القائل من الناس: قال لى فلان كذا.

فيقول المحشى من الأغبياء: ولهذا بدأ به كى يغيظك.

المؤلف: روى أن النبى -ﷺ- قال: إنما الأعمال بالنيات .

المحشى من العلماء: رواه البخارى عن عمــر، ويــروى العمــل، وبالنية القائل من الناس: يقال إن فلاناً سوف يبنى مسجداً .

المحشى من الناس: لا تصدق، أى من الأغبياء .

المؤلف: إذا جاوز العدد العشرين فلا بضع، قالــه الجــوهرى فــى الصحاح، أى لا تقول: بضعة وعشرون رجلاً .

المحشى من العلماء: وهذا غير صحيح؛ لقول النبى -ﷺ-: الإيمان بضع وسبعون شعبة، وروى الإيمان بضع وستون شعبة.

القائل من الناس: اكسر للبنت ضلعاً يطلع لها أربعة وعشرون.

المحشى من الأغبياء: صدق القائل، واكسر لها ضلعين يطلــع لهــا ثمانية وأربعون.

وهكذا يكون المحشى من العلماء منصفاً فى الأغلب ومحققاً، ويكون المحشى من الأغبياء فاحشاً وظالماً. يؤيد الظلم، ويبذل جهداً عظيماً فــى إثباته وإقراره، وينفى العدل.

وقد حذر الله عز وجل من بذل الجهد فى الغباء، فقال فى آية التوبة (٩١): ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا

يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تأمل هذه الآية الكريمة التى تفيد أن الضعفاء والمرضى الذين لايجدون عافية فى أبدانهم للجهاد، والذين لا يجدون ما ينفقون ليس عليهم من حرج بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، أى أن يقولوا للمجاهدين: فى أمان الله، وأبشروا بالنصر والفوز المبين، وأقبلوا ولا تدربوا، وتقووا ولا تضعفوا،

إنما يكون عليهم حرج، أى: إثم إذا أحبطوا المجاهدين، ووضعوا أمامهم العثرات، ونفروهم من الجهاد، وأشعلوا فى صدورهم تلك الحرب النفسية التى توهن قواهم، وتسد أبواب الأمل فى وجوههم، فماذا جنوا من ذلك؟

لا هم بقادرين على الجهاد، ولا هم قادرون على عون المجاهدين بالكلمة الطيبة، ولطالما أدت جهود الأغبياء إلى نتائج مؤسفة، ولطالما كان منهم من دفع الثمن، كالذى كسر زوجته وعالجها بكثير من المال أرهقه، وكالذى ذم العلم فى وجه ولده فتقاعس ولده وفشل، ودفع أبوه ثمن فشله مشروعات صغيرة وكبيرة، وشجعت أم غبية ولدها أن يقتل أخاه بسبب تلك الحواشى من نحو قولها: طول عمره يكرهك لا يحب إلا نفسه، لو وجدك لقمة لأكلها، هذا ابن حرام، الشيطان يتعلم منه، لن يرتاح حتى يراك فى السجن عبارات تطلق دون وعى، فى لحظة عمى هى ثمرة غباء موروث، جرى فى دماء كثير من الناس، فلا تطيب لهم عيش إلا إذا أراقوه على موائد طعامهم الذى لا يغنى مع هذه السموم من جوع.

والعجيب أن هذا الغبى الذى أحبطك يأتيك وقد نجاك الله من ويلاته، ويدعى أنه كان يتوقع لك ما وصلت إليه، ويقول لك: وما وصلت إليه أقل بكثير مما أنت تستحقه، فأنت فى الحقيقة وفى الواقع والله يشهد والله يعلم بأنك تستحق مقعداً فى السماء بين الملائكة والنجوم الزاهرة، لكن

عذرك أنك من أبناء الأرض، وأنت لولا تواضعك ما اخترت القعود على هذا الكرسى الأرضى، فإن ذكرته بما ألفه وحشاه قال لك - كنت أختبر إرادتك، وأعلم إصرارك، هل صدقت أننى كنت أريد أن أحبطك، فلا تظن أن هذا ذكاء منه، إنه ذكاء من قال الله فيهم **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.**

وهذا من العلم بظاهر الحياة الدنيا، حتى تصدقهم الآن فيستفيدوا منك، وانتظر منهم إحباطاً جديداً إن وجدوا له فرصة، وإن لم يجدوها تولوا وفى قلوبهم سواد عظيم، قل موتوا بغيظكم. صدق الله العظيم.

إن تمسسكم حسنة تسوءهم

فلان هذا الذى قد عرفت أو لم تعرف، إن رأى عندك خيراً تقلب على فراشه كأنه يتقلب على شوك، وإن رأى عندك سوءاً طار من الفرح، مثل هذا يريد أن يدخل النار مجاناً، فلا قبض ولا صرف إلا غضب الله عليه، فماذا عليه لو سره سرورك وساءه ما ساءك، تأملت فى تلك الشخصية الجميلة، وقد جمعه القدر برسول الله -ﷺ- بعد القرح الذى أصاب المسلمين يوم أحد، إنه معبد الخزاعى، كان يومئذ على شركه، يعنى لم يكن مسلماً، لكن بين رسول الله -ﷺ- وبين قومه عهد، فإن خزاعة كانت عيبة رسول الله -ﷺ- لا يخفونه سراً ولا يكتمون عنه نصيحة ولا يظاهرون عليه أحداً، هذا عهد بينه -ﷺ- وبينهم.

وكان أول ما قاله معبد الخزاعى للنبى -ﷺ-:

يا محمد، أما والله، لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

انظر إلى هذه الكلمات التى تدل على النبل المفقود عند كثير من الناس فى زماننا خاصة، والتى تكشف عن وفاء حقيقى للعهود، وتدل

على أن نبلاً فى غير المسلمين موجوداً، ولو زين بالدين لكان خيراً لهم والدليل على صدق هذا النبل أن معبداً هذا لقى أبا سفيان فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟

فقال معبد: محمد -ﷺ- وأصحابه يطلبكم فى جمع، لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما هذا الذى تقوله؟

قال معبد: أنصح لك أن تمضى بجيشك قبل أن ترى نواصى الخيل، ولقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر.

قال أبو سفيان: وماذا قلت؟

قال معبد: قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل

فظلت أعدو أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكمو ... إذا تغمطت البطحاء بالخيل

إنى نذير لأهل السيل ضاحية ... لكل ذى إربة منهم ومعقول

وكان لهذا أثره، حيث انصرفت جيوش الشرك وعادت إلى مكة، وكان فى نيتها أن تعود إلى المدينة مرة أخرى لتقضى على من بقى من المسلمين.

وأنت قد يلقاك الرجل وأنت جريح، فيقول لك: لقد تقطع قلبى حسرة عليك، وقد انفطر لما بى أهلى وأولادى.

- تصدق بمن؟

- بالله الذى لا إله سواه .

- أنعم بالله، والله يا سيدى ما كحلت عينى بنوم منذ جاءنى هذا الخبر، وما تذوق فمى طعماً لزاد، ولا شراب ولكن ماذا حدث؟ أخبرنى بالحقيقة .

وأنت تسرد له الأحداث، وتجدد مواطن الأسى فيقف على سرك، ويمص الليمون بشفتيه حيث لا ليمون ولا هو من الذين حقاً يحزنون لحزنك، وإنما أراد أن يعرف منك الأخبار، ويطلع على التفاصيل، ويلومك فى بعضها ليزيدك حسرة، وبعد ذلك ينصرف عنك إما إلى عدوك كى يهنئه بفوزه عليك، ويفتح له أبواباً أخرى لم يكن يعلمها يدخل بها الضرر عليك من جديد، أو إلى أهله وبيته ليرفع من روح نفسه المريضة ويفرقع الضحكات، كما قال الله - عز وجل- ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ قال الله فى الرد عليهم: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ ثم قال للمؤمنين ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذا غباء من لاباع ولا اشترى، وإنما أدخل على نفسه السوء بقبح النظر إلى ما يسر فساءه وإلى ما يسىء فسره!

إلا المجاهرون

فى حديث نبوى ندى، وكل أحاديثه -ﷺ- ندية يقول رسول الله -ﷺ-: "كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى".

وكان السؤال من مقتضيات العقل، فسأل الناس: من ذا الذى يأبى دخول الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى أى أن الذى ارتكب المعاصى أبى أن يدخل الجنة ومرتكب المعاصى ما بين مرتكب لعظيم منها

كبير، وكل المعاصى كبير، بالنظر إلى جلال الله – عز وجل- الذى نعصيه، لكن الكبير الذى تكاد السماوات والأرض يتفطرن منه، وتخر الجبال له هداً كالشرك بالله، والقتل وغير ذلك مما هو معروف، والصغير الذى لم يبلغ مبلغه لكنه فى نهاية الأمر يؤدى إلى النار، فما أكبره بالنظر إلى أثره وما يؤول إليه صاحبه، ومن هذا الذى هو مجرد كلام، وما أسهل كثيراً من الكلام على ألسنة الناس، وما أعظمه حرمة عند الله – تعالى- ورسوله -ﷺ-

من ذلك الجهر بالمعاصى، الذى قال فيه رسول الله -ﷺ- "كل أمتى معافى إلا المجاهرون" على أن (المجاهرون) مبتدأ خبره محذوف، والاستثناء منقطع، إلا فيه بمعنى "لكن" أى لكن المجاهرون لا يعافون.

ويروى بالاتصال فى الاستثناء "إلا المجاهرين".

رجل فعل معصية بالليل، وستره الله العظيم بستره فأصبح الصبح عليه، وكأنه كان نائماً فى فراش الطهر، وكان يقيم الليل إلى الفجر، ويقطعه تسبيحاً وقرآناً، فبدل أن يتوب ويستغفر، ويندم على سوء ما فعل، ويفتح لنفسه آفاقاً من الأمل، فالذى ستره قادر على أن يغفر له، حتى ولو كان الذى ارتكبه كبيرة من الكبائر، ولله در البوصيرى حيث قال:

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت   إن الكبائر فى الغفران كاللمم

راح يدعو رفاقه، ويحكى لهم تفاصيل ما كان منه من سوء، وربما زاد عما فعل، وصنع له حبكة فنية تدل على سواد العبقرية، فهو يقول: نظرت وفكرت، لو كان كذا لكان كذا، ففعلت غير كذا، ولما كان كذا حدث كذا، حتى فعلت وفعلت، يجاهر بالمعصية بكلامه كما يجاهر غيره بفعلها، أى يفعلها على مرأى من الناس، غبى أم ذكى هذا الذى يكشف

ستر الله عليه، وغبى أم ذكى هذا الذى تراه فى نهار رمضان يمشى بين الناس، وفى فمه سيجارة ولبانة ويضع قدميه فى وجوه الصائمين وهو جالس على مقهى يشرب الشيشة والشاى، غير مبال بشعور، ولا مقدر لحرمة.

أذكر فى هذا السياق ما كان من أبى لبابة سمال بن خرشة حين أخذ سيف رسول الله -ﷺ- بحقه، وقد سأله عن حقه، فقال: نقاتل به حتى ينثنى، وكان فى جيش الكافرين رجل فارس ملثم يزفف الجرحى من المسلمين حتى يقتلهم، فهجم عليه أبو لبابة ليقتله فولول، وإذا به امرأة، فقال هذه المقولة الخالدة – لولا أن يقال: قتلت امرأة بسيف رسول الله -ﷺ- لقتلتك.

أبى الرجل أن يقال فى التاريخ: قتلت امرأة بسيف رسول الله -ﷺ- ولا يأبى المجاهر بالمعاصى أن يقال: فى أمة محمد -ﷺ- من يجاهر بالفاحشة، ويسئ بذلك إلى دينه، وسمعه المسلمين إن موقف أبى لبابة -رضي الله عنه- يمكن أن نضع له عنواناً "نوع من الجهاد لا يهتم به كثير من الناس" وهو جهاد حب إشاعة الخير، فقد جاهد الرجل، ولبس عمامة الموت الحمراء التى عرفه الناس بها، لكنه جاهد جهاداً آخر بالسلب كما جاهد بالإيجاب، فقتل المقاتلين من الرجال، وكان حق هذه المرأة أن تقتل؛ لأنها محاربة والإسلام لا يقتل المرأة إلا إذا كانت مقاتلة، لكنه لم يقتلها؛ لأن أداة قتلها سيف رسول الله -ﷺ-، فأحب ألا يذاع هذا، ومن ثم كان على المجاهر بالمعاصى ألا يتجرأ على حدود الله فما العلن ولا فى السر، فإن أبى أن يفعل الخير، وأبى إلا أن يفعل السوء فليستتر، ولعله فى الطريق إلى الستر يتراجع ولعله إن فعل وستره الله يغفر الله له (إن لم يكشف ستر الله عليه!

أى ذكاء فى حب أن تشيع الفاحشة

على تلها البعيد، وهى خاوية على عروشها من أثر الحريق بقايا الدخان تنبعث من أعماقها تطارد الذى صار سواداً فى الأفق العالى، لم يعد حتى من الزرع الأخضر عود، تبعث خضرته شيئاً مما يواسى النظر، يختلط بالدخان الذى سرعان ما سوف يهدأ، ويختفى، وتظل الصورة سوداء فاحمة فى عينيه، حيث جلس على تلها، وسره منظرها، وقد أحرقها بغبائه، أحرق كل من فيها، وأحرق كل ما فيها حتى الطير الغريد، لم يبق منه إلا غراب البين الذى طوف فوق رأسه ينعب، فما أجمل صوت الغراب فى أذنيه، وما أسوأ صوت البلابل، ولو أن صاعقة من السماء خيرت لنزلت عليه وحده، ولأحرقته ألف مرة، حيث أحرق الزرع، وقتل النسل، وذبح الربيع، لكنه مسيرة، يصيب الله بها من يشاء، ولله حكمة بالغة، وعد مثله بالعذاب الأليم فى الدنيا وفى الآخرة، فليضحك قليلاً على بقاياها وليبك طويلاً قبل أن يطويه العذاب إلى عذاب أشد يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إنها الدنيا التى أحب هذا الغبى أن تشيع فيها الفاحشة، فشاعت، ودمر الناس بعضهم بعضاً، وهو يرقص قلبه طرباً بهذا الخراب، الذى أحدثه بلسانه وهو يظن أنه هين وهو عند الله عظيم.

لو رحمك الله لما كنت فى طريقه يوماً، قال لى أحد الفضلاء إنه استمع إلى رجل فى الخمسين من عمره وقد سأله شاب عن رأيه فى ارتباطه بفتاة يقال فيها السوء، وهو غير متأكد من ذلك، فقال له:

اسمع نصيحتى يا ولدى، كل امرأة فى الدنيا لها ماض قذر حتى أمى، ولا توجد امرأة شريفة عفيفة أبداً، فلو فكرت فى أن ترتبط بمن لاماضى لها فلن تتزوج أبداً.

قال لى: هذا الفاضل: إن هذه الكلمات برغم علمه أنها كلمات مرسلة عارية عن الدليل، وأن قائلها ممن لا يؤبه له- أثرت فيه، وأنه حين عاد

إلى أهله بالليل نظر إلى زوجته بنظرة مشوبة بالشك، وإلى ابنته العذراء كذلك، وقالت له زوجته: مالك عدت الليلة مبكراً؛ فقال لها لأول مرة منذ زواجهما منذ أكثر من عشرين سنة: هل كنت ترجين ألا أعود، هل كنت على موعد مع أحد، وحين أمسكت ابنته جهازها المحمول، وقالت: أهلاً يا وفاء قال فى نفسه: وفاء من يا بنت الـ.. وكاد ينزعه من يدها، ويسمع الصوت ليرى أهى وفاء حقاً أم أن ابنته تطلق على صاحبها وفاء قال: وسجدت لله شكراً أن أصبح الصبح على، وما فى ذاكرتى شىء من هذا السواد، فما عسى أن يفعل غيرى ممن هو دونى، وماذا على لو أصبحت كما أمسيت ما عسى كنت أفعل بزوجتى وبابنتى .

وقد عصم الله – عز وجل- لسان زوجتى فى تلك الليلة فما زادت على قولها: كنت أود أن تعود فى كل ليلة مبكراً كما عدت الليلة، فنحن دائماً نفتقدك، وقالت: نعم أنا على موعد معك، فنحن دائماً على موعد وإن لم نتفق عليه، ماذا لو أنها قالت لى سوءًا والنار كانت داخلى، هل كنت سأطلقها هل كنت قائلها؟ ربما...

وهذا الذى نصح للشاب بأن يتزوج قبل أن يفوته قطار الزواج فيندم وهو لم يزل على المحطة ينتظر راكبة عفيفة، ولا عفيفة أبداً أما كان فى وسعه أن يقول له: اتق الله يا ولدى، ولا تأخذ الفتاة بإثم الذين يلوكون ألسنتهم بالشائعات، ولك أن تتأكد، فإن الله –عز وجل- يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾**.

نعم كان بوسعه، لو أعف لسانه وصانه واتقى الله ربه، وهذا يتأتى من أولى الألباب، لكن الأغبياء يروق لهم القبح، وتعجبهم مقالب النفايات ولا يسرهم أن ترى أعينهم مورق النباتات، إنهم كالحشرات لا يعيشون إلا فى المستنقعات، وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ**

الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ﴾ أى ذكاء فى حب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وقد شهد النبى -ﷺ- أن فى الكافرين نبلاً وعقلاً وود لو هداهم ذلك إلى الإسلام!

الحديث عن ماضى الأحزان

رأيته وهو يجلد ولده، أمام باب بيته، وعلى مرأى ومسمع من الناس، وكان كلما جلده جلدة قال له:

هل تدرى وأنا فى مثل سنك ما كان يفعل بى أبى؟

هاه! فتكون الجلدة الثانية أشد من الأولى، وبعدها يقول:

- كان يعلقنى فى سقف البيت، ويغلق على، ويتركنى بلا زاد، ولا ماء، ولا شفاعة... هاه.

ثم يضربه أشد.

- وذات مرة يا ابن الـ... شفعت فى أمى، أتدرى ماذا فعل فيها؟ هاه
- وهات يا ضرب .
- فقأ عينها، فعاشت عمرها عوراء... عوراء.. جدتك صارت عوراء بسبب شفاعة.. هاه .

وهات يا جلد.

ثم قال هذه الكلمة :

- ولولا ذلك ما صرت رجلاً، ولما أنجبتك والناس ينظرون، ويقولون بعضهم لبعض – صحيح، رجل، اتركوه يؤدبه .

ولما أكرمنى الله بأن كف عن أذاه حين رآنى ورحب بى، وعاتبته، ومع الأسف لم ينفع عتابى حيث ظل يجلده مرات بعد ذلك، وغاب الولد ولم يعد... العجيب أنه قال: لا أرجعه الله .

ما قال أحد من العقلاء فضلاً عن العلماء إن هذه طريقة رشيدة فى تربية الأولاد، وإصلاح أحوالهم، وما هذا الجلد بضرب وإنما هو شروع فى قتل، أما الضرب الذى أمر الله عز وجل اللاتى نخاف نشوزهن بعد الموعظة الحسنة والهجر فى المضاجع والذى أمر به النبى -ﷺ- حين يبلغ أطفالنا سن العاشرة إذا تكاسلوا عن صلاة فضرب حبيب لا ضرب عدو، فالله تعالى – يقول: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فى النساء ومعنى هذا أن الضارب امرأته يتطلع إلى الطاعة لا العصيان فهو رفيق بها؛ لأنه يرجوها، وفى الأولاد معروف أنهم فلذات أكبادنا، فمن يضرب كبده هذا الضرب المفضى إلى الهلاك!

ولا شك أن تذكر ماضى الأحزان مما شجع هذا الغبى على إيذاء ولده، وتذكر ماضى الأحزان مفيد عند المسرة ليزيدنا بها إحساساً، وليزيدنا شكراً لله –عز وجل، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أما أن يكون تذكرة من باب المبالغة فيه بحيث يسد النفس ويصدها عن الطعام والشراب، ويصرفها عن لذيذ المنام فهذا ضرب من الغباء، لأنه استدعاء للكدر فى موضع الصفاء، واستجلاب للغم فى زمن الهناء، ومحاولة لكى يعود الزمن الجميل إلى ماضى العناء .

ولنتأمل معى حديث يوسف-عليه السلام- حين رفع أبويه على العرش، يقول الله- عز وجل-: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

ما حدث يوسف أباه عن دخوله السجن ومكثه فيه بضع سنين وهو برئ، وإنما حدثه عن خروجه منه وكثير من الناس لا يتحدثون عن خروجهم من سجن الظلمات والأزمات، وإنما يتحدثون عن دخولهم،

وطول بقائهم، وشدة معاناتهم، وإن تحدثوا عن لحظة الخروج وما تلاها من سنوات الرخاء أجملوا ذلك فى جملة باهتة شاحبة وهزوا رءوسهم وهم يقولون: الحمد لله والشكر لله .

ولا شك أن الذين يبالغون فى تذكر الماضى الحزين من الغباء بمكان؛ لأنهم يكدرون حاضراً جميلاً، ويدفعون بأنفسهم إلى الجحود ، والجحود معلم من معالم الطريق إلى جهنم، قال تعالى: **﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ﴾**، ومثل هذا الذى صنعه ذلك الذى لقب بأنه والد، وما هو بوالد يجعل الولد يلعن جده القاسى والعجيب أنه ذكر لولده أنه لولا تلك القسوة ما كان رجلاً وما أنجب مثل ولده، وهو ذكر وليس رجلاً، فالرجل أرق طبعاً وأحسن خلقاً، والجدير بالذكر أنه لم يكن عالماً ولا شبه عالم، وإنما كان شيئاً آخر، فما أثمر تعليق أبيه إياه إلا ذكورة هى فى فحول الأنعام موفورة.

وجاءهم ما كانوا يشتهون فماذا فعلوا

بدأت تتحسس الخطر، وكأنه مفقودها، فكأن ابنتها الوحيدة من البشر التى لن تتزوج أبداً، كانت فى كل يوم تسألها إذا عادت من الجامعة.

- حبيبة أمها، ماذا حدث اليوم؟
- عادى يا أمى، محاضرة إثر محاضرة، حتى أتيت .
- ألم يكلمك أحد، ألم يغازلك أحد، ألم يطلب ودك أحد، من هنا، أو هناك!

وكان يضايق الفتاة مثل هذا السؤال، وتقول: يا أمى لماذا أدخلتنى الجامعة يا أمى؟ ألكى أتعلم أم لكى أجد عريساً، تقول لها مرة: من أجلهما معاً، ومرة أخرى من أجل العلم طبعاً، ولكنى أضحك معك، وثالثة: بصراحة من أجل أن تجدى لنفسك ابن الحلال.

مرت سنوات الجامعة الأربع ولم يكلمها أحد وجلست فى البيت دون عمل، ولم يدق بابها أحد، قعدت أمام التليفزيون إلى جنب أمها، وما على لسان أمها غير "تعلمنا، ودخلنا الجامعة، وأخيراً قعدنا".

وما نشاهده على الشاشات مواد معظمها يصد عن سبيل الجادة، ويغلق أبواب الأمل، بطالة، سوء أخلاق، جرائم بشعة منها الاغتصاب - كساد سوق الزواج، الانحراف وترقيع غشاء البكارة وكلما دق جرس فى هاتف قالت أمها: خير، اللهم اجعله خيراً، وأخيراً يكون المتصل قريباً تحاوره، ثم تضع السماعة قائلة: قطيعة، أقارب بلا منفعة، ما فيهم واحد يقول إن عريساً فى الطريق لابنتك، ولكن معذورون، تغيرت الدنيا وما عليها، والحال بعضه من بعض، فلان عنده بنت مطلقة، وثلاث عوانس، وفلان عنده بنتان ما نظر فى وجهيهما أحد، لو كان خيراً لتزوجت بناتهن، ثم تعود قائلة: ولكن واحدة من هؤلاء ليست كابنتى، نعم نعم، إن ابنتى قمر السماء، وزينة الأرض، جامعية حسناء وأخيراً وفقت إلى الحل السليم .

لا أحد سوف يدق عليها الباب إن ظلت هكذا قابعة على الأريكة كالقردة، تحرك القنوات وتشاهد البرامج الكئيبة والمسلسلات، لابد من خروجها إلى عمل أى عمل حتى يراها الخطاب، وخرجت، وعملت أى عمل، فى صيدلية قريبة، وجاء الخير من أوسع الأبواب، أعجب بها ابن صاحب الصيدلية، كان مهندساً يعمل بإحدى شركات البترول فى صحراء مصر، يمكث فى عمله عشرين يوماً، ويعود إلى القاهرة عشرة أيام خطبها، فرحت أمها فرحاً شديداً، وحين جد الجد، واتفق الناس على قراءة الفاتحة، وهنا قالت - هداها الله: الله الله على الجد، والجد الله الله عليه، أولاً بالنسبة إلى عمل زينة الشباب لا يصلح كل شهر أن ينزل عشرة أيام فقط، كلم رؤساءك فى العمل وقل لهم: عشرة فقط فى العمل وعشرين إجازة فكيف تتركها وحدها فى الشقة عشرين يوماً.

- يا أمى، هذا نظام عمل، وكل الناس هنالك متزوجون وهذا نظام.
- فلتبحث عن عمل جديد .
- إنه عمل ممتاز، لا يعوض .
- أبوك، كلم أباك يفتتح لك صيدلية أخرى .
- أنا مهندس يا أمى، لا أفهم فى الصيدلية ولا أحبها .
- يا ابنى، ليس مهماً أن تفهم فيها، فلتأت بولد خريج جديد من أهل الصيدلة وأنت تقعد كالباشا .

ثم ما الشبكة التى تنوى إحضارها، احذر أن تقول إنها من الذهب، لابد أن تكون من الجواهر النفيسة حيث إنك ستضعها فى عنق القمر، وفى أصابعه، والشقة لابد أن تكون تمليكاً، وتكون باسمها، أنا أريد أن أؤمن مستقبلها، مفهوم .

خرج الولد ولم يعد، وظلت الفتاة قابعة على الأريكة، حيث استنكف منها أبوه، ودارت الأم على الدجالين تقسم بوكيد الأيمان أن ابنتها معمول لها عمل فما معنى أن يأتيها ابن الصيدلى، ثم يخرج ولا يعود لابد أنه الحسود وصاحب الأعمال السفلية، وفى عين الحسود عود، فمن يخرج العود؟ ألم يكن الخير الذى جاءها من الممكن أن يبقى لولا الغباء، فيسروا ولا تعسروا .

إصرار على النكد

فى أمان الله كانوا يعيشون، الوالد الذى جاهد عمره حتى صارت ثروته ثلاث شقق سكنية متفاوتة الأحجام بخلاف الشقة التى يسكن فيها، وله أربعة أولاد، ولدان، وبنتان لا أحد منهم ولا أمهم فتح فمه بكلمة، فكر فى أمر ما فصاح قائلاً:

- سوف أكتب لكل ولد شقة هبة .

قالت زوجته:

- حتى التى نعيش فيها؟

قال: لا، هذه شقتك بعد عمر طويل .

- لكن أولادك أربعة وشققك ثلاث .
- لا يهم، أكتب لكل ولد شقة، وللبنتين شقة .
- الأمر ما تراه، ولكن ذلك كالميراث .
- أى ميراث، إنها هبة .
- وكتب، ودب بينهم النكد الذى كان بعيداً عنهم جميعاً، كان فى واد بعيد، بعيد جداً وراء الصمت .

ويبدو أن الصمت يخفى وراءه متاهات وبمجرد النطق بكلمة تستدعى تلك المتاهات مع أول حرف للكلمة التى كسرت جدار الصمت فإذا خلفه الويلات .

نعم نعم، دب الخلاف والشقاق، اعترضت البنتان وقالتا: الهبة غير الميراث والبنت أظفرها بملء الأرض من الصبيان، وكاد أحد الولدين يقتل أخاه؛ لأن شقته أوسع قليلاً من شقته، وهدد أباه كذلك بالقتل إن لم يكتب له تلك الشقة الواسعة التى يعيش فيها أبواه، بالله أما كان أغناه عن هذه كله لو أنه سكت، وترك الملك للمالك، وبعد عمر طال أو قصر يأخذ كل ميراثه وفق شرع الله تعالى الذى قسم المواريث بنفسه، لم يتركها لملك كريم ولا لنبى مرسل!

بعض الناس يزعم أنه إذا كتب ما يملك لأولاده على حياة عينه فسوف يموت وهو مطمئن إلى أن كل واحد منهم راض غير ساخط، وهو بذلك لا يدرى شيئاً عن الموت، إنه يزعم أنه مسافر فى رحلة ولايريد أن

يزعجه أحد من أولاده، فقد ترك لهم المصروف وما يلزمهم أثناء غيابه، وما هكذا الذى هو انقطاع عن الدنيا وما فيها إلا من ولد صالح يدعو، وعلم ينتفع به وصدقة جارية كما قال -ﷺ-.

والميت فى قبره رهين عمله، وحبيس موازينه، لا شأن له بأولاده، فليأخذ كل حظه من الميراث وفق شرع الله على هدوء، أو على ثورة إن قسموه فيما بينهم دون نزاع فالفضل لله - عز وجل- يؤتيه من يشاء ويرحم الله من ترك لهم ميراثاً وإن حصلوا عليه عن طريق المحكمة والقضاء فالحمد لله على كل حال، ولن يسمع أبوهم فى التراب أصواتهم كانت الأسرة هادئة مطمئنة راضية، وجاءت الكلمة التى فجرت بحار الغضب، ولا قطرة فيها عذبة، كل ما فيها ما بين ملح ومر، ما كان أغناه وأغنى أمثاله عن مثل هذا الذى لم ينبر فيه ولد ولا بنت بنبرة، وإنما قاله هو وأنشأه إنشاء، كأنه يصر على أن يدخل النكد بيته وقال كما يقول الناس "خيراً تعمل شراً تلقى" فمن الذى أفهمه أنه فعل خيراً، الخير ما أراده الله وبينه العلماء، والله عز وجل يقول فى المواريث من سورة النساء: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وبين العلماء أن الميراث يوزع على مستحقيه بعد دفن الميت وسداد دينه، وإنفاذ وصيته، فما للناس على عجلة من أمرهم يوزعون وهم أحياء، فيورثون الغضب والشقاق، ويجلبون المصائب والكوارث من أماكنها، كانوا فى مأمن وجلبوا الاضطراب، وكانوا فى نعيم واستدعوا العذاب ياليت اللسان الذى تعجل تريث، والكلمة التى اندفعت تراجعت، ولكن كيف وقد خرجت كما تخرج الرصاصة من المدفع، فأصابت المرمى فى مقتل، ولا عزاء.

فإن يكن هذا قد حدث وجرى ما جرى فلعل فيه درساً بليغاً لمن تحدثه نفسه بأن يعمل ذات العمل، ويجرى على تلك السنن، وهى سنن بلا شك سيئة، ليس فيها من الحسن شىء، وإن كان ظاهرها حسناً، لكن خلف ستارته الرقيقة وابل من العذاب.

عدم المواساة غباء

ما زلت أذكر هذين الرجلين، كان كلاهما يشكو بطنه، يكاد يعتصر من الألم، سئل الأول:

- ما سبب وجع بطنك؟

فقال:

- أكلت فأسرفت، ولم أترك ببطنى مكاناً للنفس.

وسئل الثانى السؤال نفسه؛ فقال:

- لم آكل لقمة منذ يومين

قال المنفلوطى- رحمه الله- لو أن الأول أعطى الثانى ما زاد عن حاجته لسلم بطنه وبطن الثانى.

وكثير من الناس على هذا الغباء، انظر إلى ذلك الشاب، وقد يكون رجلاً كبيراً وهو يأكل شيئاً ويسأله طفل ربما كان أخاه أو ولده أن يعطيه منه شيئاً فيقول له: لا، وألف لا، وحتى تطلع عيناك من مكانهما، ولما ترى حلمة أذنك.

ويبكى الطفل، ويصرخ، وهو يأكل ولا يبالى، حتى يزهد، ثم تراه يعطى الطفل أكثر مما كان يقنعه حين سأله أول مرة، وربما تمادى فأكل رغم قول بطنه له: اتق الله وارحمنى، حتى لا يبقى للطفل بقية، هناك من يستطيع أن يبلع اللقمة على عزف البكاء وألحان الوجع، وكأنها تزيده شهوة ونهماً، أغبياء.

وفى الحديث الشريف: "لا يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم".

أليس هذا من الغباء الذى يدخل صاحبه النار، كان القليل من الطعام يسد جوعة جاره، ويسد عنه أبواب جهنم بلا شك.

لكنه يدخل النار بغبائه، وقد يرمى فى سلة المهملات ما كان يكفى جاره، وسبعة آخرين من الجيران، لكنه كما يقول الأغبياء أمثاله: يأكله الدود، ولا يأكله هذا، فهذا ليس جاراً، ولا إنساناً أو أن هذا رجل لا يستحق، ومنهم من يقول: حتى لا يتعود على هذا، وبعد هذا يقتحم بيتى ويأكل كل ما فيه.

وتلك زوجة فتح الله عليها ولها، ورزقها وهى عاملة ذات راتب كبير، فهمت من الدين أن على الزوج أن ينفق عليها، وأن يتكفل بكل شىء، يسألها ولدها مبلغاً يسيراً؛ فتقول:

- عليك بأبيك
- والدى
- نعم
- أريد مبلغاً من المال قدره كذا
- اسأل أمك
- سألتها وقالت: عليك بأبيك

فانظر إلى ما يكون من أثر ذلك.

يهب فيها قائلاً خصوصاً مع تكرار ذلك.

- لست أدرى ماذا يفعل أبوه، يدفع له، أم يسدد الأقساط، أم يدفع الماء والكهرباء، أن يأتيكم بالسم الذى تبلعون صباح مساء، أم؟ أم؟ أم؟ وأنت على قلبك كذا وكذا، أليس فى عروقك دم؟

وما كان أغناها عن هذا السوء لولا الغباء لقد فهمت من الدين شيئاً وغابت عنها أشياء، ومما غاب عنها المواساة، واست خديجة- رضى الله

عنها- رسول الله-ﷺ- وظل يذكرها بذلك مدة حياته الطاهرة، وواست زينب زوجة ابن مسعود زوجها وكانت لها بها صدقة كما قال النبى-ﷺ- وروى البخارى.

والمواساة مندوبة، وهى تدل على اتساع الأفق فضلاً عن الالتزام المفقود بدين الله وهدى رسوله، يسد بها المواسى أبواباً من السوء، وقد قال النبى-ﷺ- فى أحد المؤلفة قلوبهم وكان قد هم بقول الشعر سوءاً: اقطعوا عنا لسانه، فأعطوه، فمدح، فأى عائق يعوق تلك المواساة التى تقطع الألسنة السيئة، وتفتح مجالاً للخيرات إلا الغباء!

عدم الاعتذار من الغباء

قد يحدث شىء مما يحدث بين الناس بين رجلين، صاحبين أو زميلين، أو جارين، أو زوجين، أو ولد ووالده، وهذا وارد؛ لأن الناس ليسوا ملائكة مطهرين، ولا رسلاً معصومين، وقد تجد أحدهما فكر فى نفسه، ووقف على حقيقة ما حدث، واكتشف أنه هو الذى أخطأ فى حق صاحبه فإما أن يكون نبيلاً ذكياً، وإما أن يكون أحمق غبياً نعرف على أى وجه يكون إذا رأينا منه اعتذاراً من عدمه.

فالنبيل الذكى هو الذى يبادر بالاعتذار قبل أن يستفحل الأمر، ويتورم الجرح، ويزداد السواد فى نفس صاحبه، والأحمق الغبى هو الذى لا يعتذر، تراه دائماً متكبراً، لا يلوى على شىء، يعرف أنه هو المخطئ، فلا يعترف بخطئه، ولا يعتذر لمن أخطأ فى حقه، وقد يزداد حمقاً، ويدعى أنه أولى بأن يعتذر إليه من لا يخطئ، أو من لم يخطئ، فإنه يرى نفسه فوق الناس، وفوق الاعتذار، إنه لا يعتذر لأحد، وقد يقول: أنا الكبير، وحتى لو أخطأت فى حقه فعليه أن يعتذر، والتعالى وغمط الحق من الكبر والكبر يذهب بصاحبه إلى النار بنص رسول الله-ﷺ- وكذلك تراه متقناً اللف والدوران فيلوى عنق الحقيقة، ويتهم صاحبه بأنه المخطئ. وهذا

أيضاً من السوء بمكان، وهو مثل الأول، وهو بذلك أيضاً يسعى إلى توسيع رقعة الخلاف، والأصل فى هذا الدين الوفاق، **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**.

وقد كان النبى-ﷺ- على سفر واحتكت ناقة رجل من الصحابة بناقته-ﷺ- فأوجعت ساقه، فضرب الرجل بقدح كان فى يده.

وفى الصباح أرسل إليه، وقال له: لعلنا أوجعناك بالأمس، وأعطاه ثمانين شاة، هذا هدى خير خلق الله محمد-ﷺ- فمن ذا الذى يتأسى به، ويقتدى، ويفعل مثل فعله أو أقل، حتى ولو اكتفى بالاعتذار وإبداء الندم دون العطاء، بأن كان لا يجد ما يعطيه تألفاً وإذهاباً لروح الغضب فى نفس صاحبه، فرب كلمة طيبة هى خير من مال الدنيا، وهى بلا شك منقذة قبل أن تتطور الأمور، وإذا تطورت لا يصلحها مال الدنيا، وكم رأينا مواقف من هذا القبيل، حيث كان أناس يطمعون فى كلمة اعتذار، فلما لم يجدوها حملهم الغيظ على التجافى، وجاء من كان بوسعه أن يعتذر قبل ذلك، وقال: أنا تحت الأمر فلم يقبل منه شىء.

وحين عرض عمر-رضي الله عنه- ابنته حفصة على أبى بكر يتزوجها فسكت أبوبكر، فأوجد (حزن) فى نفسه عمر، فقابله فى اليوم التالى أبوبكر بعد أن خطبها رسول الله-ﷺ- لنفسه، وقال له:

- لعلك أوجدت منى، والله ما منعنى من جوابك غير أنى سمعت رسول الله-ﷺ- يذكرها وما كنت بالذى يفشى سر رسول الله-ﷺ-.

محا أبوبكر بهذه الكلمة ما كان فى نفس عمر من حزن بسبب عدم رده عليه.

وبعض الناس يقولون هذه الكلمة "أوجد فى نفسه فليفلق" وهل تظن أن مسلماً حين يفلق لا يغضب الله تعالى- هذا؟

فإلى متى يفلق بعضنا بعضاً، وهل نرى جهاداً أفضل من أن يحفظ بعضنا بعضاً من هذا الفلق، والغيظ، ويقول الغبى "يضرب رأسه فى الحائط" ويقولون: "أعلى ما فى خيله يركبه" ويقولون: "فليشرب من البحر" ويقولون: "يذهب فى ستين داهية" وكل ذلك مما يغضب الله- عز وجل- والغباء سببه أنقذنا الله منه-.

سب الذين يدعون من دون الله غباء

ورد النهى صريحاً فى كتاب الله- عز وجل- عن سب الذين يدعون من دون الله؛ لأنه يترتب عليه أن يسب هؤلاء الله- تعالى- عدواً بغير علم، قال الله- تعالى- فى سورة الأنعام: **﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**. الآية (١٠٨).

نهى صريح عن سب الكافرين، فمن سبهم فقد خالف كلام الله- تعالى- ورسوله-ﷺ- القائل: "ليس المسلم بسباب ولا لعان ولا فاحش" ما قال: ليس المسلم بسباب للمسلم، وإنما ليس المسلم بسباب على الإطلاق، لا يسب مسلماً ولا غير مسلم.

وقد جاء رجل إلى النبى-ﷺ- فأسلم، وعاد ليخبر الناس بوصية النبى-ﷺ- له عند إسلامه، فقال: أوصانى رسول الله-ﷺ- ألا أسب، فما سببت أحداً حتى ولا دابة، يعنى ما اعتاد الناس من سبه وهو الدواب لم يسبه ذلك الرجل تقديراً لوصيته-ﷺ-.

إن هذا الرجل عرف أن الوصية منه-ﷺ- دين والتزام، ولم يعرفها من باب الكماليات، يلتزم بها تارة، وتارات لا يلتزم والسب واللعن سبيل

الضعفاء من الناس، الذين تنكشف سوأة نفوسهم عن حسرات، تخرج فى صورة السب واللعن.

أما الذين فى نفوسهم معادن أصيلة فهم يعرفون السبيل التى يغيظون بها أعداء الله، وهى الظهور والغلبة، تطأ أقدامهم مواطن المجد، ويبنون ويعرفون الجديد من العلم، ويرفعون به راية الدين، عندئذ يغيظون الكفار، قال الله- عز وجل-: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾**.

فتأمل قوله- تعالى-: "كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع، ولن يعجب الزراع إلا زرع عظيم الشأن، فإنهم لا يعجبهم وهم الزراع المهرة أهل الخبرة إلا الزرع النضير الذى خرج آية عبقرية ودلالة فلاحة عظيمة.

هذا ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون، أن يكونوا زرعاً، وصناعة، وتجارة، وصروح مجد، وعلم، لأن يكونوا أبواقاً وكلمات من سباب ولعان فتلك بضاعة العجزة، والمسلمون أهل قوة وعزة ومنعة.

وهم إذا كانوا أهل زراعة وحبوب، وجيوب مكتظة بالأموال حملوا الناس على احترامهم باكتفائهم عنهم وزهدهم عما فى أيديهم، وبعطاء المحتاج منهم، أما إذا كانوا هم فى حاجة إلى غيرهم، يمدون أيديهم، وينتظرون إعانات غير المسلمين وإذا شعروا بإساءة سبوا ولعنوا فسوف يترتب على هذا السب واللعن أن يسب هؤلاء الله- عز وجل- الذى نعبده وحده لا شريك له مخلصين له الدين.

إن فلاحاً قديماً نصح أولاده حين تشاجروا مع جار لهم، فقال أبلغ كلام، قال: يا أولادى، لن تستمر الحياة على سب ولعن وسوء جيرة، وقبل أن تسبوا جاركم هذا انظروا إلى دارنا، إنها دار ضيقة علينا، لا تصلح للسكنى ولا للبهائم، فانصرفوا عن التشاجر معه، واجتهدوا فى العمل حتى نخرج من هنا. قال بعضهم: أما رأيت الرجل يسبنا ويلعن أسلافنا؟ قال: دعوه، ولا تردوا عليه، لإنكم إذا رددتم عليه وهنتم، ونمتم ضعافاً، فلا تقدرون على القيام مبكرين إلى أعمالكم فى همة ونشاط، أما إذا تركتموه واجتهدتم أتعب نفسه وارتحتم، فعملتم وخرجتم إلى دار واسعة، وساعتها فلن يكون جاراً لكم، وترتاحون إلى الأبد منه، ومن يدرى قد يكون أحب الناس لكم، وقد كان، اجتهدوا، وبنوا داراً واسعة خارج القرية، وجاءهم جارهم القديم ضيفاً فأكرموه، وتناسوا أيام السباب، وهكذا يجب أن يعمل المسلمون.

من الغباء أن يعظ المرء غيره وينسى نفسه

ما زلت أذكر صورته وحركاته وهو ينتفض، ويقول: إن لم يكن حراماً فهو عيب، يا أخى لا يصح، نعم، لا يصح هذا ولا يجوز، فماذا تفعل زوجتك إن لم تنفق عليها؟ هل ترضى أن ينفق عليها رجل أجنبى؟ وماذا يريد منها إن أنفق عليها وكذلك ابنتك التى لا تعرف غيرك، وهى قطة بريئة ثم وكزه بكتفه، وقال له وهو يضغط على أسنانه: قطة بريئة.. فاهم، قطة بريئة، لا تجعلها حيواناً مفترساً، ولا امرأة شاذة، مسكينة، تلميذة، ترى زميلاتها فى المدرسة يأكلن ويشربن العصائر، وغيرها بم تحس حين تتصور ابنتك تنظر إلى هذه وإلى تلك ويسيل لعابها، وتمص شفتيها، ترجو لقمة مما يأكلن وجرعة مما يشربن.

ثم إن الله فتح عليك ورزقك من وسع، فلم تضيق على أقرب الناس إليك، ألا تخشى أن يضيق الله عليك، ثم من يدرى؟ ومن يعرف؟ هل

تعرف رزق من هذا الذى ساقه الله إليك، قد يكون هذا رزق زوجتك ابنة الحلال الصابرة، وقد يكون هذا رزق ابنتك الطاهرة، فأعط الناس حقوقهم يا رجل.

كلمات تصلح أن تكون خطبة جمعة محترمة، موضوعية موجزة، لكن الله يشهد أن الخطيب يحتاجها إلى نفسه، فقد كان يعانى العيب نفسه، كان أبخل ما يكون على زوجته وأولاده. وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾**.

غبى هذا الذى يأمر الناس بالبر وينسى نفسه فلا يأمرها بهذا البر الذى أمر به غيره.

إن الله- عز وجل- يقول فى الصدقة: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾**. والعفو ما زاد عن حاجة الإنسان وفى الصحيح: ابدأ بنفسك أولاً، ثم بمن تعول، ثم الأقرب فالأقرب، وهذا شأن العقلاء، وقد ذكر الفقهاء أنه لو كان رجلان فى الصحراء المهلكة ولم يكن معهما إلا رغيف فصاحبه أولى بأكله؛ لأن صاحبه لو أعطاه الآخر لهلك وإن كانت نفس لا بد أن تهلك فلتكن نفس الآخر لا نفس من ملك الرغيف، وكذا قالوا فى الإكراه بالقتل أى أن أحداً لو أكره على قتل آخر فلا يقتله، لأن نفساً إن كان لا بد أن تهلك فلتكن نفسه لا نفس البرئ وأجره على الله- عز وجل.

وما أكثر الذين يعظون الناس ويأمرونهم بالبر والتقوى والصلاح ولا يفعلون ذلك مع أنفسهم فى كل مكان، وفى كل مجال، وقد شاع استعمال الشعارات الداعية إلى الخير، ومن يستعمل هذه الشعارات لا يعمل بمقتضاها، فالذى يضع فوق رأسه عبارة "الصبر طيب، والصبر جميل" لا صبر عنده.

والذى يعلق أحاديث المصطفى-ﷺ- فى قضاء حوائج الناس لا يقضون تلك الحوائج وإذا قضوها لا يقضونها إلا برشوة، وهم إذا ذكرت

الرشوة قالوا: معاذ الله، إنها من الكبائر، ولسنا ندرى كيف يستسيغها آكلها.

فإن قلت لهم: وأنتم ألا تأكلون الرشوة؟

قالوا: معاذ الله، هذه أتعاب، وهذه حسناتنا، ثم إننا نأخذ الفتات، وغيرنا يأخذ الكثير، إننا نتقى الله عز وجل.

وهذا مثل ذلك الذى يعظ صاحبه بأن ينفق على أهله وهو لا ينفق على أهله، لم تمسك على أهلك ولا تنفق عليهم أجابك بأحد هذه الأجوبة:

١- من قال لك هذا، أنا أسخى الناس على أهلى. وهو كاذب.

٢- أو قال لك: إن أهلى غير أهل صاحبى، فأهل صاحبى يستحقون الكرم، أما أهلى فإنهم يستحقون القتل.

٣- أو قال لك: إن أهلى كالقطط يأكلون وينكرون.

٤- أو قال لك: إننى أنفق بعقل، فى الوقت الذى أبنى فيه مستقبل أبنائى، فأشترى لهم عقاراً وأرضاً زراعية، هل تريد منى أن أكون مثل فلان وفلان الذين ينفقون كل ما يرزقهم الله- تعالَى- به، وبعد ذلك يكبر أولادهم فلا يجدون شيئاً يعينهم على استئناف حياتهم.

وهكذا تجد المسوغات عند هؤلاء البخلاء، والذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، والاعتراف بالحق فضيلة ونبل، والمبالغة فى نفى الإثم مع ارتكابه ضرب من ضروب الغباء.

إعلان الجهل دليل غباء لا ذكاء

فلان لا يعرف الحى الذى يسكنه، وإذا مشى فى الشارع الذى إلى جوار شارعه ضل، ويحتاج إلى أن ينادى عليه فى الميكروفون، وفلانة آية فى الشرف، لأنها من البيت إلى الجامعة ومن الجامعة إلى البيت، يا كبد أمها لا لفت ولا دارت، ولا تعرف شيئاً فى الدنيا.

وعمك الحاج أولاده هم الذين اشتروا له المحمول، فلا يعرف إلا أن يفتحه ليتحدث، حتى إنه لا يعرف كيف يغلقه.

وخالتك الحاجة لا تعرف إلا البطاطس والباميا وطاجن الأرز المعمر، إنها من جيل العظماء الطاهرين، الذين لا يعرفون بدعة اليوم من الأكل الذى لا يسمى، وكذا فلان، وفلان، حديث بإعلان الجهل يظنه كثير من الناس آية أصالة وعنوان طيب، وقد تكون التى لا تعرف إلا الطريق من البيت إلى الجامعة سيئة الخلق، ووراءها من الخبث والمكر والدهاء ما الله وحده به عليم.

وقد تكون الخبيرة بالأماكن والمحال والأحياء وغيرها طاهرة عفيفة، فمتى كان العلم دليل انحراف؟ ومتى كان الجهل دليل استقامة إن الله- عز وجل- يقول للنبى-ﷺ- ومن اتبعه (فلا تكونن من الجاهلين)، ويمن عليه بأن علمه، فيقول: **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾**.

فالجهل سوأة نفس، وسوأة النفس كما أكرر فى هذا البحث أشد دمامة عند الغبى من سوأة البدن الدميم، وسترها بالعلم خير لباس، وقد من الله عز وجل على رسله المصطفين الأخيار بنعمة العلم، فقال فى داود-عليه السلام-: **﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾**. وقال فى يعقوب-عليه السلام-: **﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾**. وقال فى يوسف-عليه السلام-: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾**.

وقال فى يحيى-عليه السلام-: **﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾**.

وقال فى العبد الصالح: **﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾**.

وحديث القرآن الكريم والسنة المطهرة عن العلم حديث الحياة فى روض المعانى، والجواهر النفيسة فى شرف اللآلى، وهو حديث

مستفيض، وخير الناس أى المسلمين من تعلم القرآن وعلمه، ومن لا يحسن تعلم صنعة سماه النبى-ﷺ- أخرق.

وجعل الصناعة له صدقة، وقد روى السهيلى أن رسول الله-ﷺ- وجد غلاماً يسلخ شاة ولا يحسن سلخها، فقال له: تنح أعلمك، ووضع يده الشريفة بين الجلد واللحم، دحس يده تحت الجلد، فعلمه كيف يسلخها فى سهولة ويسر وإتقان.

وأشاد-ﷺ- بأبى طلحة يوم أحد فى الرمى، وقال: من كانت عنده كنانة فلينثرها أمام أبى طلحة.

وحين رأى سعداً يرمى يوم بدر بإتقان قال له- وقد جمع له بين أبيه وأمه: ارم بأبى أنت وأمى، وهكذا يكون العلم فى شتى المجالات حتى فى مجال الشعر والأدب وساماً على صدر المتعلمين قال عليه الصلاة والسلام لحسان حين استأذنه فى هجاء قريش: كيف تهجوهم وأنا منهم؛ فقال حسان لأسلنك منهم كما تستل الشعرة من العجين ونحن نود ذلك فى الطب والهندسة وسائر العلوم والمعارف، والمعرفة بالكومبيوتر والموبايل وجميع تقنيات العصر، فهذا هو الإسلام، أما أن يعلن امرؤ عن جهله فنصنعه له، ونقول: الله ادن منا يا خير الناس أنت على الفطرة، فتلك نزعة دميمة، والدين لا يعرف الدمامة، وكيف يعرفها وكل ما فيه حسن!

ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه

فى حب النفس قال الناس إذا جاءك الطوفان فضع ولدك تحت قدميك، وقال عمر-رضي الله عنه- أول الأمر: إلا نفسى يا رسول الله، وحب النفس والخير لها من الفطرة، ودائماً يضرب الإنسان مثالاً بالقطة وغيرها، وقد قال الله تعالى وهو بعباده خبير بصير: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾**. وقال عز من قائل: **﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾**.

فالمرء يحب أن يعيش، ويكره الموت كما قالت عائشة وروى البخارى ويحب وطنه، لا يحب الخروج منه، جبل على هذا، وعليه فطر، وما كان من الفطرة كان الخروج عنه فى الغالب أية خلل ودليل خبل، وسوء فكر، بالله عليك ذكى أم غبى ذلك الذى يبخل عن نفسه؟

إن الغباء دائماً يؤدى إلى نتيجة واحدة هى قتل النفس من حيث يظن الغبى أنه يحييها، والذهاب آخر الأمر إلى النار من حيث يتوهم الغبى أنه من السابقين الذين يدخلون الجنة، لقد كان الكافرون قادرين على السمع والعقل، لكنهم لم يسمعوا ولم يعقلوا، فأدى بهم هذا الغباء إلى النار، **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾**. قال الله- عز وجل: **﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾**.

وهل يكون الاعتراف بالذنب بعد فوات الأوان إلا دليلاً على أنه كان بالإمكان أن يتخلص منه ويبرأ، إن المضطر لا يعد مذنباً إذا ارتكب محرماً على وجهه: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**. لم يكن الغباء منهم ضرورة؛ لأنهم غير قادرين على الفهم والذكاء وإنما كان اختياراً منهم وإيثاراً للتقليد الأعمى وموروث العادات السيئة، ولو كانوا فاقدى العقل والقدرة على الفهم لما حاسبهم الله، إن الظالم منهم يعض يوم القيامة على يديه ندماً، ويقول: يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً، معنى ذلك أنه كان بوسعه، وإمكانه أن يتخذ مع الرسول سبيلاً، لكنه لم يتخذ، تكبراً منه وعناداً، وطغيانا منه وفساداً.

وكذلك البخيل كان بوسعه أن ينفق لأنه لن يوصف بهذا الوصف وهو فاقد أو معدوم، وإنما وصف بهذا الوصف لأنه قادر مالك، لكنه مع قدرته وملكه لم ينفق حتى على أعز الناس عليه ومن كلفه الله- عز وجل- وجوباً بالإنفاق عليه، وربما بخل على نفسه، فآثر أن يبدو بهيئة

رثة، مدعياً الزهد تارة، ودافعاً عين الحسود عنه أخرى، أو مستجدياً الناس تارة أخرى؛ لأنه لا يشبع، وقد يأخذ الصدقات وهو غنى عنها.

وهو بذلك يبخل عن نفسه؛ لأنه لم يعرض نفسه لخلف الله، فما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفاً كما روى البخارى عن رسول الله- ﷺ-.

فلو عرف البخيل أنه فى مصاف المدعو عليهم من قبل ملك كريم، لا المدعو لهم من قبل الملك الأول لبكى على حاله، وربما قال لك: أنا والعياذ بالله لست بخيلاً إنما أنا حريص، أنا لست ممن يغضب الله، بل أنا أحاول أن أنال رضاه، يملى عليه الشيطان ما يقوله على غير هدى وصواب، يدفع عن نفسه بسلاح غيره، ويحاول أن يستر سوأة نفسه وهو يعلم أنه عار، كى يصدق نفسه الأمارة بالسوء بأنه رجل عظيم، إنه يرى المنفقين أهل سفاهة، يضيعون أموالهم رياء وينفقون بذخاً وإسرافاً، وهو كما قال الله تعالى قابض يده على عنقه يخنقها، ودائماً يؤجل الخير وما هو ببالغه مثله كمثل رجل أهدى إليه ثوب، فركنه وقال ألبسه فى العيد، وكان فى حاجة إليه، ومات قبل أن يأتى العيد، فما لبسه، وكذا البخيل يعد نفسه وأهله بالسفه، ثم يموت وقد ترك ميراثه لغيره فما استمتع به يوماً، يستمتعون بماله ويحاسب هو عليه.

نشط جداً إلا عند الصلاة

منافق ذلك الذى قال الله فيه وفى إخوانه: **﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾**. يعنى حتى فى الرياء لا يحسنون القيام إلى الصلاة، مثل هذا الطفل غير الراغب فى القراءة، يشاهد التلفاز ويصيح، ويلعب ويصيح، فإذا دعى إلى الكتاب غلبه النوم، وكأن النوم ينتظره تحت عنوان الكتاب.

كالحديث فى الدين، إذا بدرت بادرته تجد بعض الناس يتثاءبون، ويغلبهم النعاس، وكانوا من قبله يخوضون فى كل مجال، ويتكلمون فى كل فن، ويناقشون كل موضوع، منتهى النشاط تجده فى اللهو ومنتهى الكسل تجده عند الجد، ولذا ضاعت أفراد وضاعت أمة، فالله عز وجل يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. وحق الجهاد لا يتأتى عن كسل، وإنما من مقوماته ذلك النشاط؛ لأنه يعين صاحبه على الإتقان.

وقد حذرا النبى -ﷺ- من صلاة الذى غلبه النوم، ونصح له أن ينام؛ لأنه ربما أراد أن يدعو لنفسه فيدعو عليها، شىء من الاضطراب لا بد أن يحدث مع الكسل والخمول الذى ينتاب الناس خصوصاً فى مواضع الجد التى تتطلب قمة الوعى والإدراك، والحيطة، والحذر، لا يصلح أن يؤدى طبيب ماهر عمله خصوصاً الجراح الذى يفتح بدن مريض وهو كسول، ولا يستطيع أستاذ معلم أن يؤدى درسه على كسل، إن ذكر منه عنصراً غائب عنه عناصر.

وترى مواقف عجيبة تنتج عن الكسل والخمول أعجب من مواقف الوصف بالكسل، فقد يجرح عامل كسول نفسه، وهو يستعمل آلة حادة، يقول له الواقف أمامه:

- فتح عينيك
- وعيناه مفتحتان بلا شك، ولكنه لا يرى؛ لأن الكسل يعمى.

والذى قضى الليل كله فى سهر بغيض أمام التلفاز يتنقل بين مئات القنوات، فإذا طلع عليه الفجر نام دون أن يصلى، ولم يأخذ حظه من النوم كذلك فقام خبيث النفس كأنه شيطان، وقاد سيارته، وقد تكون القيادة حرفته، فإذا به يهوى بها وبمن معه من فوق جسر، أو يصدم سيارة أخرى، فيضيع ويضيع من معه، والمواقف الناتجة عن الكسل أكثر من أن تحصى وتعد، ومع الأسف الشديد.

برغم ما تسمعه الأمهات من نصح العلماء والأطباء فى مجال تربية الأطفال، وأن من الخير لهم أن يناموا بالليل الذى جعله الله- تعالى- سكناً للناس ولباساً فإنهن لا يعترفن بهذا الكلام تطبيقاً عملياً، فترى الواحدة منهن ساهرة حتى الصباح وإلى جوارها طفلها يدب ويصرخ ويأكل كل ساعة، ويؤرق، وهى تتابع أخبار الفن والتوك شو، وتصرخ فى وجه الصغير:

- حرام عليك، أريد أن أسمع، هل الحقيقة كذا أم كذا، وعند الصباح ينامان معاً، وتصحو على صوته إذ يستغيث فتقول: نم، الله يرضى عنك، أنا طوال الليل ساهرة، لا حرمة لزوج ولا حق، ولا رعاية لبيت، ولا لإعداد طعام فى أوانه، فإن أفاقت لعنت الزواج وسنينه والطفل ومن ترغب فى إنجاب أطفال.

سلها لم سهرت، وفيم قضت الليل، ولن تجيب بشىء ذى بال، صفراء شاحبة كأنها مريضة عليلة بعلة استعصت على الأطباء، وما هى إلا مريضة نفس، انكشفت سوأتها عن فراغ قاتل قتلها حيث لا شهادة ولا أجر، وإنما أراق دمعها رخيصاً على بلاط الغفلة والغباء، فإن قلت لها: نامى مبكرة واستيقظى مبكرة قالت لك: ولماذا أصحو مبكرة، إننى لست موظفة، غباء يزيد الغباء غباء، فزوجها موظف، وهى موظفة فى إسعاده والاهتمام به قبل أن يذهب إلى عمله، فهل من مدكر.

أعجب النبى-ﷺ- عقله فنال ما تمنى جاء النبى-ﷺ- إثر وعد وعده إياه، وكان الله- عز وجل- قد فتح على رسوله وعلى المسلمين، فأعطاه-ﷺ- عدداً من الإبل وعدداً من الشياه لم يكن يسكن المدينة، ولم يكن يسهل عليه أن يقود هذين الصنفين معاً فى طريق طويل، نظر إليهما وقال: كيف؟ يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام نعم. قال: اجعلها إبلاً

كلها أو اجعلها شياها كلها، فإنى لا أستطيع أن أقودهما معاً. فقال عليه الصلاة والسلام وقد ابتسم:

- أيهما أحب إليك؟

- قال: الإبل

فأعطاه-ﷺ- عطيته إبلاً كلها، أعجب النبى-ﷺ- عقله؛ فنال ما تمنى، ومضى سعيداً بإبله.

هذا سلوك المسلمين النبلاء، الذين يفكرون، ويدركون العواقب، والناس اليوم إذا تعرضوا لمثل هذا الموقف قل من تجده فيهم يقول كيف؟ يرى بعضهم أن تأخذ أى شىء، وتقبل أى شىء وبعد ذلك (يسهلها ربنا) أو (يوفق الله عز وجل) ويرى بعضهم أن تأخذ أى شىء، وتقبل أى شىء ثم تتصرف بعد ذلك.

فإن سألت: وكيف أتصرف؟

قالوا لك: تبيع الإبل، أو تبيع الشياه، أو أى حاجة ولست تدرى ما أى حاجة التى شاعت فى حياتنا؟ فصرنا أى حاجة بين الأمم.

سأل النبى-ﷺ- ربيعة بن كعب وقال له: تزوج يا ربيعة.

فقال ربيعة بن كعب: إنى أحب خدمتك يا رسول الله ومرة أخرى قال عليه الصلاة والسلام: تزوج يا ربيعة، فقال ربيعة إنى أحب خدمتك يا رسول الله. فلما كانت الثالثة قال: يا رسول الله، لا أجد ما أعطيه المرأة يا رسول الله؛ فأعطاه النبى-ﷺ- صداقه، ووجهه إلى عائشة ليأخذ سفيراً عندها، وجمع له الصحابة شاة، للوليمة وتزوج ربيعة بن كعب، بمصارحة واضحة، فى الأولى والثانية قال: إنى أحب خدمتك أى أن الزواج سوف يحول دون تمام ذلك الذى أحبه تاماً غير منقوص، وفى الثالثة قال الحقيقة فقال ما تمنى، وما أكثر الذين يجيبونك اليوم بعبارة

"إن شاء الله" وبعبارة "ربنا يسهل" ونحو ذلك مما لا يشفى غليل سائل، ولا يصلح أن يكون جواباً.

والرجل الذى جاء النبى-ﷺ- وروى حديثه البخارى ومسلم. وقال له: بيننا وبينك مضر، أى أن الطريق غير أمن فلا أستطيع أن أتيك، فقل لى ما الإسلام حتى أبلغ قومى، وغيره جاء النبى-ﷺ- وقال: أوصنى ولا تطل على حتى أفهم. فقال له: لا تغضب، قال زدنى: قال: لا تغضب، قال زدنى قال: لا تغضب.

وكثير من الناس اليوم يعرف أن بينه وبينك مسافات، وأنه لن يستطيع أن يجئ إليك ومع ذلك يقول لك: لو بينى وبينك البحور أتيتك ولن يحول حائل بينى وبينك، ومرنى بما شئت ورنة خفيفة، وأنا أتصل بك، فإذا دققت عليه وجدت محموله خارج نطاق الخدمة، أو وصلته أجراسك، لا رنة واحدة، ومع ذلك لا يجيبك.

وكثير من الناس يقول لك: قل فكلامك نغم، وحديثك نعم، أنا سامع واع، فإذا بك تقول وتقول وتقول، وهو لا يسمع شيئاً مما تقول. ولا يعى منه كلمة واحدة، هذا هو الفرق بين نبيل وغبى يدعى أنه ذكى إن لم يدع أنه إمام الأذكياء وصفوة الفاهمين، فلله در أمرئ عرف قدرِ نفسه، فما حملها فوق طاقتها كلاماً وفرشاً للأمانى، وإنما وعد بما يستطيع وكان واضحاً وضوح الشمس فى الضحى.

المسلم شجرة لا يسقط ورقها

فى الحديث الذى رواه البخارى، وقال فيه النبى-ﷺ-: أخبرونى من شجرة كالمسلم لا يسقط ورقها، فذهب الناس فى شجر البوادى، ووقع فى قلب ابن عمر- رضى الله عنهما- أنها النخلة، لكنه نظر قبل أن يتكلم، فوجد نفسه أصغر من فى المجلس فلم يقل شيئاً حتى قال النبى-ﷺ- إنها كالنخلة، لا يسقط ورقها.

والشاهد من هذا الحديث أن المسلم- كما صوره النبى-ﷺ- نخلة باسقة، لها طلع نضيد قال الله- عز وجل-: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾. وورق النخلة لا يسقط مثلما تسقط أوراق الشجر فى الخريف هى دائماً مورقة، وقد يظن أن بعض الأوراق تسقط وبعضها يبقى، لكن الأوراق فى الحقيقة مكتملة، فليس شرطاً أن تكون جميع أوراق النخل متساوية فى المقدار، فقد تكون نخلة أكثر أوراقاً من نخلة أخرى، وبينهما هذه الصفة التى لا تتخلف، وهى ثبوت الورق وعدم تساقطه، أوراق غزيرة عند غنى، يصلى كما يصلى الفقير، ويصوم كما يصوم، ويتلو كتاب الله كما يتلو وقد يسبقه حجج، لا يستطيع الفقير إليه سبيلاً.

وقد يكون فى الوقت نفسه عالماً، وقد يكون غازياً لكن الفقير يقدم جهده، حتى ولو كان هذا الجهد قليلاً.

وقد قال الله- عز وجل- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عبدالرحمن بن عوف-ﷺ- جاء بأربعة آلاف وأبوعقيل الأنصارى جاء بصاع من تمر، فلمزه المنافقون فى صدقته، وقالوا: إن الله غنى عن صدقة هذا، وهذا عين الغباء الذى أصاب كثيراً من الناس حتى الذين يسخرون من أنفسهم ويستقلون ما يقدمون، ويقولون: أى شىء هذا، وما يغنى هذا، وما عسى أن يفعل هذا لنا، وأين نحن من فلان وفلان وفلان، يعينون الشيطان عليهم ليحبط عليهم أعمالهم، إن عبدالرحمن بن عوف، وأبا عقيل- رضى الله عنهما- قد تساويا وإن اختلف المقدار، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

وقد جمع رجلان فى لحاف واحد يوم أحد وكان الناس يتعجبون من ذلك، يقولون سبحان الله فلان المعروف بكذا وكذا وكذا مع فلان الأقل

منه؛ فقال عليه الصلاة والسلام: ساوى بينهما عملهما، أى جاهدا فى الله حتى نالا الشهادة، فهما فى لحاف واحد، وهما عند الله تعالى حيان يرزقان، وفى منزلة واحدة.

فمن فقه هذا الدين أن يعلم المسلم أن ورقه كامل الثبوت كالنخلة، وإن قل هذا الورق فى ناظريه، وفى نواظر الدنيا ألا ترى إلى زاهر، ذلك البدوى الصحابى الذى قال فيه النبى-ﷺ- زاهر باديتنا ونحن حاضرته لقيه-ﷺ- فى سوق المدينة، فقال: من يشترى العبد، يداعبه، فقال زاهر: ستجدنى يا رسول الله كاسداً، فقال له-ﷺ- لكنك عند الله رابح.

لم يكن زاهر غنياً عظيم الغنى، كان يأتى المدينة يبيع ما عنده من بضاعة خفيفة، ويتزود منها ويعود إلى باديته، لم تكن تجارته كتجارة عثمان أو عبدالرحمن ومع ذلك قال له-ﷺ- لكنك عند الله رابح وما دام عند الله رابحاً فإن ورقه لا يسقط، فلو سقط لما كان رابحاً، كفاه شرفاً أنه يأكل من عمل يده، وأنه يبذل جهده، ولا يحقد على أحد، ولا يحسد أحداً.

ولو أن كل إنسان اعتز بهذا الحديث وقال: أنا كالنخلة، وورقى لا يسقط، فماذا فى من أوراق فى كذا أو كذا، حتى ولو قال: أنا أمسك عن الشر لوجدنا الحياة على غير ما عهدناها، وجدناها كلها أشجاراً مورقة وارفة الظلال، ولما وجدنا هذا الإحباط الذى غشى البلاد والعباد، وسود البياض وعكر البحار، ولتقدمت الأمة ببذل جميع أفرادها طاقتهم.

ولا يحض على طعام المسكين

ذم الله- عز وجل- بعض عباده بقوله ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

أى غباء هذا، ذلك الغباء الذى يدخل صاحبه نار جهنم مجاناً، كلمة قالها: علام تعطى فلاناً، إن فلاناً لا يستحق كن حريصاً على مالك، لن

ينفعك أحد، إلى مالا نهاية له من سوء الأمر والنهى بغية أن يمسك غيره، وقد قال الله- عز وجل: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**.

والغباء فى هذا ظاهر؛ لأنه لا ناقة له ولا جمل فى مال من يدعوه إلى البخل والإمساك، لكن نهيه العبد الذى يتصدق من حر ماله هو يدل على سوأة نفس مريضة لا تحب الخير لأحد، لا تحب الخير للمنفق؛ لأن المنفق إذا أنفق كان إنفاقه خيراً له، وداوى بذلك مريضه، وأتقى بذلك الإنفاق النار التى وقودها الناس والحجارة، وأخلف الله- تعالى- عليه.

فالذى يحضه على الإنفاق إنما يرجو له الخير ولا يحب للفقير أن يكون غنياً، ولو رآه قد أوتى شيئاً هنأه، ولكن بنفسه المريضة، وقلبه الأسود، فهو يقول له: ابسط يا عم، رزقك يا عم، أمك تدعو لك يا عم، حماتك تحبك يا عم، اصرف يا عم، وقد يقول له: إنه سبب ما هو فيه من نعم، فهو الذى وصى به، وحرض الغنى على منحه وإعطائه ويذم عنده هذا الغنى قائلاً:

هل تعرف بأنه بخيل (جلدة) لا يهون عليه شىء مما أعطاك، لكنى بفضل الله- تعالى- ظللت وراءه، وأخذت أرقق قلبه، وأستعطفه، وأقول له: يكون هذا فى ميزان حسناتك يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم وأقول له: إن فلاناً هذا مسكين، وهو لا يعرف غيرك وأنت إن لم تعطه فمن ذا الذى يعطيه، وإن لم تعطف عليه فمن ذا الذى يعطف عليه!

فاحذر أن تظن أنه أعطاك من تلقاء نفسه ثم يذم آخرين وهم أبرياء، فيقول: وهناك أناس- لا داعى لذكر أسمائهم- ينصحون له بألا يعطيك يقولون له: إن عندك وعندك وعندك، ماذا نفعل فى هؤلاء، إنهم لا يحبون الخير لأحد، أعوذ بالله من مثل هؤلاء، أصحاب القلوب المتحجرة،

التى لا تلين لأحد، وكأنهم يا أخى سبحان الله سوف يدفعون من أموالهم، ومن قوت أولادهم، غريبة، سلوكيات غريبة، فهنيئاً لك بما أعطاك، ثم يحاول أن يعرف كم أعطاه الغنى. فيقول: كم أعطاك بالله؟ فإن أجابه قال: فقط، ثم يعود إلى ذمه، فيقول: مع أن الله واسع، وقد وسع عليه يا أخى، أما هان عليه شىء غير الذى أعطاك، ما للأغنياء قد صاروا بخلاء إلى هذا الحد! سبحان الله مع أننى أوصيته بأن يزيدك، حتى ولو كان هذا القدر عظيماً استصغره، وهو يحدث بهذا الاستصغار أمرين:

١- أن يوهم نفسه المريضة التى لا تحب الخير لأحد بأن الكثير قليل، حتى لا تزداد مرضاً وسوءاً وسواداً.

٢- وأن ينغص على الفقير ما أوتى من كثير، فلطالما نغص ذلك على كل امرئ عيشه، لا سيما الفقير المتطلع إلى الزيادة.

مأساة تكشف عنها سوأة النفس المريضة والتى قال فيها العوام: "فلان لا يرحم، ولا يحب لرحمة الله أن تنزل" ومع هذا التعديل للمثل أقول: لا أحد يستطيع أن يقف دون رحمة الله- عز وجل- القائل: **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**. وقد كان رسول الله-ﷺ- يقول عقب كل صلاة مكتوبة: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت. ولا معطى لما منعت. ولا ينفع ذا الجد منك الجد".

لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك

كلمة إذا قيلت لأبى بكر الصديق-رضي الله عنه- فماذا ينتظر من هو دونه، وكلنا دونه بلا شك، حيث كان له فضل السبق وفضل الصحبة، ذكره ربنا على أشرف طريق، طريق الهجرة **﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾**. قال أبوبكر كلمة لجماعة من المساكين،

فقال له رسول الله -ﷺ- يا أبابكر لئن كنت قد أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فعاد إليهم الصديق وناشدهم وقال: هل أغضبتكم؟: فقالوا: يرحمك الله يا أبابكر، فعاد سليم الصدر هادئ البال.

واليوم يغضب بعضنا بعضاً إلى درجة أنك تستطيع وصف الزمان بأنه زمان الإغضاب، فكل الناس إلا من رحم الله يغضب بعضهم بعضاً، لسبب ولغير ما سبب، وكأن هناك شهوة فى بعض النفوس يتلذذ بها أصحابها هى شهوة إغضاب الآخرين.

قال العلماء: لما نزل قول الله- تعالى- من عليا السماء: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾**.

وفرح النبى -ﷺ- بهذه الآيات. قال الناس: يا رسول الله، هذا لك فماذا لنا؟ فأنزل الله- تعالى- قوله: **﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾**. ففرح المسلمون كما فرحوا بقوله -ﷺ- الذى رواه البخارى "المرء مع من أحب".

والرجل الذى فعل معصية، وجاء بين يدى النبى -ﷺ- معترفاً نادماً ما لبث أن عاد بالفرح، حيث نزل على النبى -ﷺ- قول الله- عز وجل-: **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾**. وقال الناس: يا رسول الله، ألهذا وحده أم للناس عامة؟ فقال عليه الصلاة والسلام- للناس عامة. وفى رواية. أله وحده أم لكلنا؟ فقال: بل لكلكم إلى قيام الساعة.

ويوسف -عليه السلام- حين ألقاه إخوته فى غياهب الجب، قال الله- عز وجل- **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**. فأذهب عنه الوحشة.

وحين ثارت نفس مريم- عليها السلام- لما ألم بها مستشعرة المفارقة بين أمر الله- عز وجل- وبين ما عليه الناس وفق عاداتهم وعرفهم أوحى الله إليها: **﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾**.

وقل من تجده يقول لولده أو لزوجه: كل واشرب وقر عينا، إنما يغضبه حتى فى لقمته؟ ويقول له: كل واشرب ولعلك تشكر، أنت لا تستحق هذه اللقمة، وأنا فضلى عليك عظيم، وأنا لا أجازيك بسوء عملك، ولأكن أنا الكبير، وذا القلب الرحيم وغير ذلك من العبارات التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

وحين أوحى الله- عز وجل- إلى أم موسى- أن أرضعيه قال لها: **﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾**.

أى جمال هذا، وأى زف للإسعاد يريده رب العباد لعباده.

فما بال الأغبياء يزفون الغضب إلى النفوس الراغبة فى الرضا، أى غباء هذا الذى يسوق النكد إلى قلوب سعيدة، تستشرف مزيداً من السعادة فإذا بهؤلاء يقتلون السعادة فى الطريق قبل أن تصل إلى أصحابها، يا ليتنا جميعاً نفقه هذا الدرس العظيم سائلين الله- تعالى- السعادة فى الدنيا والآخرة.

هكذا على اليمين جعلنا الله من أهل اليمين

كان يقود سيارته وينطلق فى أمان الله، وإلى جواره صاحبه بدأت الرحلة طيبة، حيث البكور المبارك فيه، والطريق الذى خفت عليه الحركة، والهدوء الذى شمل جانبيه، فلا صوت إلا صوت النائمين غير المسموع، وعلى بركة الله حيث معلوم أول الطريق إلى قرية كان يذهب إليها أول مرة، وفيها خير ينتظره فقراء حيه، شىء ما دفعه إليها، واتصل برجل

كريم فيها، وأنفقا على بيع موصوف فى الذمة وهو جائز، وعلى أن النقل على حساب البائع، أو من جملة الثمن المدفوع، وما عليه إلا أن يذهب ذلك اليوم إليه، ويدفع والنقل يحمل الخيرات من بطاطس وفول وغيرهما ووصل إلى مفترق طرق عليه عسكرى مرور غير مشغول، قال:

- هل من هنا ننطلق أم من هنا؟
- قال صاحبه: نسأل عسكرى المرور

قال: يا رجل، من هنا

قال: أوتدرى؟

قال: لا أدرى، ولكن من هنا اليمين، جعلنا الله من أهل اليمين، وكانت القرية المقصودة على الشمال، ضاع وقت كثير، والوقت عند العلماء نفيس؛ لأنه عمر الإنسان، ورأس ماله الحقيقى، يضيعه النبيل الفقيه فى أروع الأعمال، يستثمر كل لحظة فيه فى إنجاز عمل، وتحقيق أمل، وإسعاد نفسه ومن حوله من الناس.

أما الغبى فلا يبال، إنه دائماً يقول: لا يهم، ما جاءت الدنيا فى يوم ولا فى يومين، ضاع وقت وجهد، وفى النهاية قال المخطئ: الخيرة فيما اختاره الله، فهل اختار الله تعالى لعباده بذل جهد وضياع وقت فى غير فائدة، أم قال تعالى: "فاسألوا".

كان عسكرى المرور على مفترق الطرق، وسؤاله كان لا يستغرق وقتاً طويلاً، لحظة من زمان ويقول القرية التى تريدون على الشمال، وسالكها إن شاء الله من أهل اليمين؛ لأن مقصده مقصد أهل اليمين فلا تعنى الجهة شيئاً.

وكم من الوقت يضيع بسبب يمين الجهة، فالناس يقفون على باب المصعد، ويتشاجرون:

- تفضل
- لا، تفضل أنت
- والله!
- لا تحلف، أنت على اليمين

وما زال المصعد ينتظر، وبابه مفتح، وعامله إن كان له عامل يضيق، وقد يكون بين القوم من هو على عجل فيركب، لكنه ينتظر هو الآخر قدوم القوم الذين تعطلوا وعطلوه، وهكذا فى الدخول والخروج.

ويمين المذهب والشرع هو اليمين المبارك أبداً، والذى ذكره ربنا- تعالى- فى سورة البلد حيث قال عز من قائل: **﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾**.

فأصحاب اليمين الذين هم فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة هم الذين يقتحمون العقبات فيحررون الرقاب، ويطعمون الطعام، ويتواصون بالصبر، ويتواصون بالرحمة، ثم يبقى بعد ذلك استعمال يمين الجارحة إن قدروا عليها تبركاً وأسوة بمن بعثه الله رحمة للعالمين سيدنا محمد-ﷺ- الذى كان يحب التيامن فى كل الأمور، ومع استعماله-ﷺ- يمين الجارحة كان إماماً فى يمين المذهب فهو الذى أعتق كل الرقاب المؤمنة من الظلمات إلى النور وهو الذى أطعم الناس لا سيما المساكين، وهو الصابر الرحيم بالمؤمنين-ﷺ- فما بالنا لم نأخذ عنه إلا يمين الجارحة وتقاتلنا فيها والأمر فيها هين، فقد ذكر الواقدى فى المغازى أنه-ﷺ- نام على جنبه الأيسر فى الخندق لما كان أقرب إلى الموضع

الذى نام فيه قليلاً ليستريح ومن كان عاجزاً عن استعمال اليمين كانت شماله يميناً والله بعباده رءوف رحيم، لكن الغباء يجد صاحبه فى السعة ضيقاً.

حوار مع غير مسئول

يضيع وقتنا، وتستنفذ قوتنا، وجهدنا فى حوار مع غير مسئول وهل يوصف ذلك إلا بهذا العنوان الغباء، ترى الرجل يدق بابه محصل الكهرباء، فيجد الفاتورة عالية، فيهب فى وجهه: ما هذا؟ ولم هذا؟ هل ترانى قد فتحت فرناً فى بيتى؟ هل ترانى مقيماً هنا؟ إننى لا أقيم هنا إلا قليلاً، ثم يتطور الحوار: أنتم لصوص، أنتم آكلون أموال الناس بالباطل، وقد رأيت رجلاً ضرب محصلاً وقال له: لا أرى وجهك مرة أخرى، وإن رأيتك قتلتك.

هذا ظلم، يدل عليه أن الرجل حامل ورقة، لا أكثر ولا أقل، ولو كان مثل هذا الرجل فى وعيه لناقش المسئول الحقيقى عن هذا، يذهب إلى الإدارة، ويراجع ذلك المسئول، ويتبع الإجراءات المعهودة فى ذلك، ويحصل على حقه بنبل، وإذا انفعل فى ذلك فله وجه، ربما يستساغ.

كما قال النبى-ﷺ- إن لصاحب الحق مقالاً وقد رأينا ذلك الأعرابى مع أنه جاف لم يقل شيئاً مما قال للنبى-ﷺ- لأحد من أصحابه، إنما تأثر أصحاب النبى-ﷺ- بما قاله من سوء للنبى نفسه لقد كان له دين على رسول الله-ﷺ- وكان النبى يستدين للفقراء والمساكين، فجاء وأساء بين يديه-ﷺ- حتى هم به أصحابه، فأخذه النبى-ﷺ- وأعطاه وزاده حتى رضى. وقال له: هل أحسنت إليك؟ قال: نعم، قال إن شئت فقل هذا لأصحابى؛ لأنه أثر فيهم ما قلته أمامهم، فخرج وقال فى وجوههم: لقد أحسن إلى، وقال لهم-ﷺ- إن لصاحب الحق مقالاً، يعنى التمس له العذر-ﷺ-؛ لأنه صاحب حق، ولكن هذا المقال مع من؟ مع من له الحق

عنده، أما أن يكون المقال مع من لا صلة له بالحق، وربما يأتى من عليه الحق، فيتلطف فى الكلام معه فذلك أمر عجيب، وتلك الإساءة لبرئ إثم بلاشك، وجزاؤه النار إن لم يغفر الله ويرحم، فما ذنب رجل مثل هذا المحصل الذى يدق بابك، ويحمل ورقة هى وظيفته، لا هو الذى قدر، ولا هو الذى ظلم، إن كان هناك وجه للظلم أصلاً وما ذنب بواب العمارة الذى سألته عن مدين لك، فقال لك لم أره، أو لعله غير موجود، أو هو غير موجود أصلاً لم قلت له: أنت تجامله، وأنت شريكه فى الإثم، وأنت تتستر عليه، وأنت حرامى مثله دون بينة لديك، وقد يكون الرجل المدين بالفعل غير موجود، إن شئت لقاءه فعليك به، وافعل ما بدا لك مما شرعه الإسلام لك إما أن تنظره، وإما أن تتصدق عليه ببعض ما عليه أو بجميعه كما قال ربنا- تعالى-: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

حتى إذا بدا منك شىء غير هذا فليكن معه، لا مع بواب العمارة، ولا مع غيره من الأبرياء الذين ليسوا بذوى صفة فى القضية. دخل شاب على حماته وقد أغضبته زوجته، وكان أول ما قالت له:

أهلاً يا بنى.

قال: أنا لست ابنك، ولا صلة بينى وبينك، أنت السبب فيما أنا فيه من تعاسة، فأنت تحرضين ابنتك على عصيانى، وكذا وكذا.

تقسم له بالله أنها ما حرضتها على سوء، ولا فائدة، تحاول أن تهدئ فيه، وأن تسكن ثورته، ولكن دون فائدة وآخر الأمر قام وضربها، وآذاها، فهل هذا إلا دليل غباء ولو أحسن صنعاً لعاتب زوجته، وتبين له الحق، وعالج أمره فى فراشه أو فى وسع بيته، وإذا أدى الأمر إلى أن يراجع أمها فى شىء، ألم يكن من الدين والعقل أن يراجعها بأدب، وأن يخاطبها كما يخاطب أمه التى حملته وولدته وأرضعته فهى أم زوجته، وهى بمثابة أمه.

كثير من الناس يلقى سوءاً ويقول متضرعاً إلى السماء وهو على حق "يا ربى، مالى أنا وهذا.. وما ذنبى" أليس ذلك رفع شكاية إلى الله، تسمع هذه العبارة كل يوم تقريباً، مما يدل على أن هذا الغباء منتشر، ومنه التعميم كالأمثال المضروبة فى البلاد والمحافظات، إذا أساء منها واحد رميت البلدة كلها بالإساءة، وإذا قيل إن هذه الفتاة المنحرفة من محافظة كذا قال هذا الغبى: كل نساء هذه المحافظة وفتياتها منحرفات، أليس هذا التعميم من الظلم بمكان برغم أن هذا المعمم يعلم تمام العلم قول الناس "أصابعك ليست كلها مثل بعضها" لكن العلم لا يفيد الأغبياء، بل إنه يزيدهم غباء، وتلك الكارثة.

الحسد غباء من الحاسد يدخله النار

آفة من آفات القلوب السقيمة أن يتمنى المرء زوال نعمة أخيه، يكشف عن سوأة نفسه فإذا هى عارية من الجمال كل ما فيها سواد، وهو يعلم أن حسده ذلك قاتله، ولن يفيد حسده ما عند الناس من نعمة كما يتوهم كثير من الناس فى زماننا الذين يقولون: ضاع مالى؛ لأننى دائماً محسود، ومرض ولدى؛ لأن فلانة حسدته، وفلانة قالت فيه كذا وكذا، ومن يومها والولد أصابه ما أصابه، من يومها والسعال صوته، والأرق نومه، والهواء طعامه، والماء زاده، تغير بالكلية، بحيث إن رأيته ما عرفته وليس هذا صحيحاً، إنه من باب الموافقات، فالحسد لا يؤثر فى المحسود، وإنما يؤثر فى الحاسد.

أصبر على كيد الحسود ... فالنار تأكل بعضها

فإن صبرك قاتله ... إن لم تجد ما تأكله

والدليل على ذلك قول الله- تبارك وتعالى-: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾**. أى أن الحسد لا يمنع فضل الله- تعالى- ولا يحول دون عطائه إنما يضر بالحاسد نفسه، حيث إنه يتقطع قلبه حسرة كلما وجد محسوده فى نعمة تزداد أو تتجدد، فليمت بحسرته، وغيظه؛ فهو الغبى الجانى على

نفسه؛ لأنه هو الذى فقأ عينيه بيديه فأصبح لا يضىء له النهار، فما أثار بذلك نفساً تشفق عليه، ولا حرك بذلك قلباً يعطف عليه، وإنما دعا بسوء صنيعه الناس إلى لعنه وبغضه، خلق الله- عز وجل- الكون آية جمال فلم ير الحاسد ملمحاً من ملامح هذا الجمال، وإنما رأى ظلالاً سوداء فوق كل نعمة لا يتجه إليه مسارها، يقول: هبطت فوق وادى غيرى، وكان عليها أن تهبط فوق وادى، وعلى رأسى، فوادى النعم أنا فيه غريب، بينما أنا القريب النسيب وسوف يؤدى به هذا الحسد إلى اتهام المولى عز وجل بالظلم، فهو يرى أن الدنيا هى المعطية، فيقول "تعطى الحلق من لا أذن له" والدنيا لا تعطى، إنما هى برمتها عطاء: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

ولذلك قال فيه الشاعر:

أسأت إلى الله فى حكمه ... فإنك لم ترض لى ما وهب

فما أساء الحاسد الأدب مع المحسود، وإنما هو فى الحقيقة قد أساء الأدب مع الله- عز وجل- لأنه لم يرض بقسمته وعدله، أى رأى نفسه كان مستحقاً للنعم دون غيره وهذا يؤدى به إلى غضب الله- تعالى- والنار.

والفراغ الفكرى هو سبب ذلك الحسد، هنالك ما حمده العلماء، ولم يذموه، وهو الغبطة، التى ظاهرها الحسد، لكنها ليست منه، إنها فرحة العبد بما أوتى أخوه من خير ومن فضل، ويسعى سعيه لكى يصل إلى ما وصل إليه أخوه، إنه يتبع منهجه ويسترشده ويستنصحه كيف فعلت؟ وماذا دفعت، ومن استأجرت حتى بنيت تلك البناية، وماذا فعلت حتى حفظت القرآن الكريم، وحتى عرفت كذا، وكذا، لا متمنياً أن تذهب هذه النعم والخيرات من عنده كما يتمنى الحاسد، الذى يكون حسده على وجهين ذكرهما العلماء، إما أن يتمنى زوال نعمة أخيه وانتقالها إليه وإما

أن يتمنى زوالها وانتقالها إلى البحر، إلى داهية، يعنى هو يتمنى زوال النعمة، ولتذهب فى أى طريق، ليس المهم عنده أن يحصل هو عليها، وإنما المهم أن يرى أخاه عارياً من كل نعمة، مجرداً من كل خير، غاية ما يتمناه أن يراه سائلاً الناس واقفاً على الأبواب يمد يده، ويريق ماء وجهه وكرامته، ولو رآه على الأبواب ما تمنى أن يعطيه أحد شيئاً، إنه ساعتئذ سوف يقول للناس: لا تعطوه شيئاً، اقتلوه، أو اضربوه، وهكذا إنه لا يود أن يرى خيراً عند أحد، وإذا نظرت إلى هذا الحاسد وجد أية الغباء فيه أنه لا يفكر فى أن الله عز وجل لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو القادر أن يعطيه كما يعطى غيره، فمثله مثل جاهل يقول فى دعائه اللهم لا ترزقنى؛ لأن الحاسد لو أراد أن يرزقه ربه لأحب الخير الذى آتاه الله الناس.

اتقوا النار ولو بشق تمرة

فى كل موضع من مواضع الحديث عن الغباء الذى يدخل بسببه الأغبياء النار يتجدد معنى من معانى قول الله- تعالى-: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**.

ومن تلك المعانى أن من الأغبياء من يعرف سبيل الاستحواذ على قلوب الناس من كل طريق، تجد أحدهم وليس شرطاً أن يكون غنياً من نجوم الأغنياء والأعيان، فقد يكون مسكيناً ليس فى بيته كثير خير، تجده إذا دخل مكاناً رحب به كل من فيه، هذا يعانقه، وهذا يصافحه، وهذا يشير إليه من بعيد، وهذا يلقى عليه السلام بالعربية واللهجات المحلية، وذاك يسلم عليه بالإنجليزية، وتسمعه وهو يقول: يا فلان هل وصلت الأمانة، فيقول فلان: نعم يا ذوق، ويقول لفلان: إن شاء الله يصلك مطلوبك الليلة، وفلان يقول: لا حرمنى الله منك، ثم يتوجه إلى عظيم المكان، ويقول له: أما أنت أيها الكبير فقد أحضرت إليك حاجتك بنفسى، وبيدى، لا أستطيع أن أرسلها مع رسول لى، فأنت تاج الرءوس، وبغية البلد، والكبير يقول له: لا أدرى بأى لسان أشكرك، ولا كيف أعبر لك عن تقديرى وامتنانى،

تفضل.. تفضل يا رجل، وفى الغالب يكون معه شخص يريد له وظيفة أو قضاء حاجة، وهى تقضى من أجل ما قدمت يداه لا من أجل عينيه، والناس يطلقون على مثل هذا الإنسان ذكى، يقولون: يعرف من أين تؤكل الكتف، إنه يجيد التصرف، وهو صاحب علاقات قدم التحية لكبير الموظفين، وأرضى سائر العمال والموظفين، وزع الهدايا والتحف، وأوقد الشموع لغيره والنجف، ونسى أن يضئ لنفسه آخرته بأقل من ذلك إن كان عاجزاً عن تقديم الكثير منه فقد روى البخارى عن رسول الله-ﷺ- بسنده قوله "اتقوا النار ولو بشق تمرة"، وصدق الله العظيم حيث يقول **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾**. يسر الله تعالى القرآن ويسر الدين، ومن أقبل وجد من يقبل ويستقبل فأين المتذكر إذ يسر الذكر، وأين المتدين إذ يسر الدين، مثل هذا الذى أنفق وأنفق وأنفق على صغار الموظفين وكبارهم لم ينفق على يتيم محتاج، ولا على مسكين ملتصق بالتراب من شدة الحاجة، ومثله إذا أعطى صغير الموظفين تمرة، وقال له: خذ هذه فلربما أخذها من باب الدعابة، أو ظن أنه يعطيها من باب الغية، أى كى يتذوق طعمها، ويبدى رأيه فى حليتها.

لكن وراءها عمل بعيد فى الطريق إليه، هكذا الناس، أما رب الناس فذو رحمة واسعة، يتقبل من عباده القليل وينميه له حتى يأت يوم القيامة وقد صار هذا القليل مثل جبل أحد، كما يربى إنسان فرسه الصغير حتى يصبح جواداً يخترق ويصول ويجول ويطوى الأرض، فلم هذه التربية؟ إنها من أجل ذلك الذى قصد وجهه عز وجل، وما خاب من قصد وجهه، وما عاد صفراً من دعاه لأنه عز وجل يستحى أن يرفع العبد يديه إليه ثم يعود صفراً خائباً، وله- عز وجل- ملك السماوات والأرض، لو أعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً؛ ولكن أين العبد المكلف الذى وعى قلبه هذا الدرس، فأخرجت يمينه الصدقة التى لم تشعر بها شماله، ولم تشعر بها شماله، والله- عز وجل- يرى، ويأخذ الصدقات، وكلتا يديه- تعالى- يمين.

كيف هانت أموال بلا حصر على مثل ذلك الشخص فاشترى بها مصلحة لغيره أو لنفسه فانية، وغفل عن مصلحة باقية!

أو اشترى بها وجاهة فى الدنيا، ونسي أن يشترى بها لنفسه وجاهة فى الآخرة: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. وهل يكون المرء وجيها فى الآخرة إلا إذا كان من المقربين فى جنات ونعيم، حيث قال الله- تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. إن أصحاب النار كما حدثنا ربنا- عز وجل- كالحون فى النار قال الله- عز وجل- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾. فبأى شيء يتقى المرء سوء هذا المصير؟ إنه بشق تمرة، وبكلمة طيبة، وبدفع شوكة عن طريق الناس، وما أكثر الأعمال الميسرة التى يسرها الحق- تعالى- لعباده كى يرحمهم، وينجيهم من عذاب النار!

لكن أعلاها لو رجعت إلى الكتاب والسنة الإنفاق فى سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وروى البخارى عن رسول الله-ﷺ- قوله: "اتقوا النار ولو بشق تمرة".

كتمان الشهادة من الغباء الذى يدخل النار

ليس فى الإسلام سطر واحد جاء فيه أن المسلم يقبل على هلاكه بقدميه، أو يرى شخصاً عرفت فيه رعونة فيقبل عليه ويلعنه حتى يستثيره فيقتله، أو يهجم على ما لا طاقة له، بل قال ابن عبدالبر: إن ترك المستحيل غير الممكن لا يفكر فيه المسلم أصلاً وما ينبغى أن يشغل به باله، إذ عليه أن يشغل باله بالممكن الميسور وقد هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة، ومنها إلى المدينة المنورة لكى يعبدوا الله- عز وجل- بعيداً عن أذى المشركين، وكانت الهجرة واجبة على كل مسلم إلا العاجز عنها، فهو مستثني، لأنه غير قادر، والقاعدة العامة تتمثل فى قول ربنا- عز وجل-: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾.

لكن إذا كان الأمر بالإمكان، وترتب عليه ما ترتب كان على المسلم أن يفعله، متى أمره الشرع بذلك الفعل سواء أكان ذلك على سبيل الأمر أم على سبيل النهى، فالعامل مثلاً يخرج إلى عمله وهو قادر، لا يخشى أن يقع عليه جدار، أو أن يدهمه مجنون بسيارة، أو يموت فى الطريق، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، قد يخرج المرء إلى عمله فيجد فى الطريق ما يسره، من أدب الناس، ونزول الغيث الخفيف الذى يسبى الأعين رؤيته، وقد نزل على أوراق الشجر، فازدادت خضرة وربيعاً، وسكن الغبار، وبعد حين تشرق الشمس ناعمة رقيقة هادئة، وقد يخرج فيجد ما يسيئه من سوء أدب ومنظر، وهو حال يصلح من ذلك قدر طاقته فى عمل أضيف إلى عمله، وله أجر أضيف إلى أجر عمله الذى من أجله خرج من بيته، فهو فى الحالين خارج، ومجاهد ومأجور من الله ذى الفضل العظيم، ومن هذا القبيل الشهادة كيف يدعى امرؤ مسلم إليها ويأبى، أو يكتمها، والله عز وجل يقول: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

فهل ترى آثم القلب إلا فى النار، فلم يكتم المرء شهادة عنده. لذلك أسباب منها أنه لا يعنيه أن يقال له رجل أو امرأة، صادق، أو كاذب، روى البخارى وغيره أن هرقل سأل أباسفيان وهو يومئذ على شركه عن محمد-ﷺ- ففكر أبوسفيان فى شيء واحد لو قال كلمة ليست فيه-ﷺ- أبى أن يسجل التاريخ عنه كذاب؛ فقال الحق، ولم يكتم شهادته، هذا هو الفرق بين شخص وشخص، شخص لا يريد أن تنكشف سوأة نفسه عن قبيح، وشخص يستدعى القبح إن كان فى القبح بعض منفعة، وكذلك قالت زوجته للنبى-ﷺ- حين بايعها مع النساء على ألا يزنين، قالت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان: وهل تزنى الحرة يا رسول الله؟ يعنى بدين أو بغير دين لا تزنى الحرة لأنها من هؤلاء الذين يشعرون بمعنى الفضيلة وأنها سترهم أو كما يقول العوام: رأس مالهم، وهذا أصدق تعبير لمن عرف

خطورة رأس المال، فبضياعه يضيع، وكذلك الذى يكتم الشهادة لا يعنيه أن يقال فيه: أفاق، جبان، أى كلام وهو فى الغالب يخشى من تكون الشهادة عليه خصوصاً إذا كان من أرباب البطش والعدوان، يقول: إن شهدت خرب بيتى وأذانى، وفعل بأولادى كيت وكيت.

فمن ينصر المظلوم؟ ومن يرد عليه حقه، وقد قال الصديق للأمة "القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أخذ الحق له".

ومن الناس من يلتحف بعباءة الخنوع، ويؤثر السكون على الحركة، والصمت على الكلام، ولو فى مواطن الضرورة، وعلى هذه العباءة عبارة شاعت فى زماننا هى (كبر دماغك) أى ما لنا والناس، وهلم جرا من العبارات التالية لهذه العبارة مثل: لن نصلح الكون، وكم قدمنا للناس من خير ولم نحصد منهم إلا الأذى، وفلان هذا لا يستحق أن تشهد من أجله، ناهيك بشهادة الزور التى هى من الكبائر، والتى ذكرها رسول الله -ﷺ- وكان مضطجعاً فجلس من عظمها، وسوء مصير أصحابها، وما يترتب عليها من ضياع الحقوق، واتهام الأبرياء، وغير ذلك من الفساد، ومن شاهدى الزور من يشهد مجاملة، دون أن يقبض بسببها مالاً، حتى لو قبض أموال الدنيا فإن ذلك لا يغنيه عن عذاب الله- عز وجل، أليس ذلك غباء يفضى بكاتم الشهادة الذى هو كالمجاهد القادر على الجهاد وليس من شرفه أن يعود سليماً بالنصر والغنيمة، وإنما قد يلقى الله شهيداً حياً مرزوقاً، يدخل الجنة راكباً طيراً أخضر كما جاء فى الحديث الشريف، والذى يخاف الناس بسبب الشهادة كالفارس الذى يخاف الموت، فإن خاف لم يجاهد وضاعت البلاد والعباد، وكذلك من يكتم الشهادة إن خاف يشهد فضاعت حقوق بسببه، ولولا غباؤه لما كتم كلمة ينجيه الله بها من النار.

لا يشكر الله من لا يشكر الناس

فى خضم الكفر والعناد، وفى فترة المقاطعة التى أصر المشركون فيها على اعتزال المسلمين والتضييق عليهم كانوا من ألوان التعذيب، قد يعود بسببه من أسلم إلى كفرهم، وقد يحجم من تحدثه نفسه عن الدخول فى دينهم، فمنعوا التعامل معهم، ولم يسمحوا بدخول طعام إلى شعبهم، وحوصر المسلمون فما انحصروا، وعذبوا لكنهم صبروا.

وفى ذات ليلة حمل حكيم بن حزام طعاماً على عاتقه - وهو يومئذ على ملتهم- ولا أراد أن يصل به النبى -ﷺ- ومن معه، وصده أبو جهل ومن معه ومنعوه ولاموه؛ فقال حكيم: هذا طعام كان ديناً على لعمتى خديجة -رضى الله عنها- قالوا: ولو .

وانتفض عرق المروءة فى عنق أبى البحترى بن هشام وهو أخو أبو جهل، وقال: مر ياحكيم بما معك، وضرب أخاه وشجه، وقال: ما هذا؟ تأكلون ولا يأكلون!

وحكى حكيم-ﷺ- ما حدث للنبى -ﷺ-، وحفظ ذلك لأبى البحترى، ومضى ما مضى من الزمان، وكانت الهجرة، وبعدها بعامين كانت غزوة بدر، وتوقع النبى -ﷺ- أن يكون أبو البحترى فى القوم الذين أصروا على القتال، فقال - عليه الصلاة والسلام لأصحابه: من لقى منكم أبا البحترى فلا يقتله وقد حفظ الصحابة الوصية، وحين التقوا به لم يقتلوه وأبلغوه رسالة رسول الله -ﷺ- فلما قال: وزميلى؟

أجابوه بأن وصية النبى الكريم -ﷺ- له وحده دون زميله، فقال:

لا يسلم ابن حرة زميله   حتى يذوق الموت أو يرى سبيله

إما أن نموت معاً، وإما أن نعيش معاً، فقاتلوهما، وبعد انتهاء المعركة سأل النبى -ﷺ- عنه، وعلم قصته.

فانظر كيف كان شكر رسول الله -ﷺ- رجلاً مشركاً، على موقف نبيل، هو أنه سمح لحامل طعام إليه بالمرور فقط، لم يأتهم بطعام من عنده، ولم يدافع عنهم، ولم يقتل رجلاً آذاهم، إنما هو موقف عابر يجوز أن يكون من أى أحد فى لحظة عابرة تشرق فيها المعانى ثم تختفى إلى غروب طويل، لكن العابر من المواقف عند رسول الله -ﷺ- له مكانه ومكانته، ورسول الله -ﷺ- أنبل من كل الناس، وأكرم من كل الناس، وتصور ذلك فى ضوء ما عليه كثير من الناس الذين يقولون لمن أحسن إليهم: "شكراً" فإن كان ذلك المحسن ذات يوم فى حاجة واضطر إلى أن يذكر من كانت حاجته عنده بموقف إحسانه ذات يوم قال له:

- ألم أقل لك شكراً؟!

يعنى لا فضل لك عندى ولا حساب، لقد صرفت حسابك وحصلت على حقك دون نقصان، فكل مالك عندى كلمة، وقد قلتها لك، ألم أقل لك شكراً، أى هيا انصرف من هنا قبل أن أخلع عينك من رأسك والشكر الذى هو قول يتنافى ومعنى الشكر الحقيقى الذى عرفناه هنا من موقف النبى -ﷺ- والذى لن تكون مبالغاً إن قلت فيه حياة، أى إحياء من أسدى إليك معروفاً.

كثير من الناس لا يشكر الناس، وهذا سوء سلوك لا معنى له سوى الغباء، لأن النبى -ﷺ- يقول كما روى أحمد فى المسند: لا يشكر الله من لا يشكر الناس، فلماذا دعا الشرع الحنيف الناس إلى أن يشكر بعضهم بعضاً وعد هذا الشكر شكراً لله - عز وجل؟ الجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: أن الناس سبب من الله، فشكر السبب دليل على شكر المسبب، وهو الله عز وجل، فلا غرابة أن يكون شكرنا للناس شكراً لله عز وجل، ومثال ذلك أن ابن صاحبك إذا جاءك فأكرمته تكون بذلك قد أكرمت أباه مع أن أباه لم يأكل، ولم يشرب، وإنما كأنه أكل وشرب، ونال

ما تمنى، وربما أدخل ولده السرور عليه أشد مما لو كان هو مكانه، وأكرمته.

والثانى: أن ذلك الشكر يعود على الشاكر بالخير؛ لأن المرء إذا شكر من أحسن إليه فقد شرح صدره، واستماله وشجعه على خير جديد يقدمه إليه بخلاف ما لو جحد، صحيح أن العمل لوجه الله، وأن الأبرار قالوا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً، ولكن ليس كل الناس أبراراً فمن الناس من يحمله الشكر على العطاء ومنهم من يحمله الجحود على المنع فأنت إذا شكرت أحسنت لنفسك وشجعت غيرك على العطاء.

تشاؤم فرجع من غبائه

لم ينف النبى -ﷺ- أن يشعر المسلم بشىء من التشاؤم، فهذا أمر يعترى البشر، والمسلم بشر يعتريه ما يعتريهم لكن الفرق بينه وبين غيره أنه يرجو من الله ما لا يرجو غيره كم قال الله- عز وجل- فى آية النساء: **﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾**.

لكنه -ﷺ- نبه الأمة إلى وجوب المضى، قال بالنص "فامضوا" أى إذا شعرتم بهذا التشاؤم فامضوا دون أن يصدكم ذلك الإحساس عن بلوغ غايتكم التى قصدتموها، لأنكم على الله تتوكلون، ومن الناس من يمضى ولا يبالى، حتى لو صادف مكروهاً فى هذا اليوم الذى شعر فى أوله بما شعر، لا يربط، أحس بشىء ثم تذكر توجيه النبى الكريم -ﷺ- ثم طوى الصفحة وفسر ما لقيه من سوء وفق أسبابه، فاتهم نفسه بأنه السبب إن وجد نفسه قد قصر، أو نسب الأشياء إلى ما يجب أن تنسب إليه، وهذا هو الحاصل على تقدير "ممتاز" وهو بلا شك قليل .

وهناك من يشعر بشىء فى صدره كما شعر الأول، وكما يشعر سائر الناس، ومضى، ولكنه ربط فقال: حدث كذا بسبب ما شعرت به أول

الرحلة أو أول النهار، يقول لرفاقه: ألم أقل لكم بأن هذا اليوم لن يمر على خير، أو أن هذه المرحلة لن نوفق فيها، كان قلبى يشعر صدق إحساسى، بل إنه قد يقول: قالت لى أمى، لا تخرج يا ولدى فى هذا اليوم، يداها كانت بها تنميلة، وما أدراكم بتنميلة يد الحاجة، إنها لا تنزل الأرض أبداً، يا ليتنى سمعت كلامها .

ومنهم من إذا شعر بشىء رجع، دله غباؤه على الرجوع، فلا خيراً حقق، ولا نصف خير، فإن تحسس الأخبار وعلم أن السماء أمطرت هناك حيث كان قد نوى المسير قال: ألم أقل، الحمد لله أننى ما ذهبت، وهذا هو الذى قاله المنافق الذى تقاعس عن الجهاد، إن أصيب المسلمون قال كما حكى لنا القرآن الكريم **﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾**.

وإذا علم أن الجو كان صحواً، وأن الدنيا كانت جميلة قال كما حكى الكتاب الكريم: **﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾** إنه البطئ، الذى بسببه تخلف الفرد والأمة حيث زاد عدده فى هذا الزمان، ألا ترى المرء يتخلف دون سبب ظاهر للتخلف، فإن حصل غيره بعض سوء قال كان سيجرى على مثله، بل زيادة، وإن حصل غيره خيراً سوغ لنفسه مسوغات، فقال: من يدرى لعلى كنت سأحصل على هذا الخير ولكن أنفقه على الأطباء والعلاج، أو أذهب به فى داهية، فالحمد لله أننى هنا فى بيت أمى، ولم أذهب فى داهية، لله الحمد والمنة، ثم يقبل كفيه ظاهرهما وباطنهما .

وما أكثر الذين يقبلون أيديهم صباح مساء على قليل حصلوه وكثير ضيعوه؛ لأنهم توهموا أن فى هذا القليل الخير، وفى هذا الكثير السوء.

والدليل على الغباء أن لدينا نموذجين: نموذج من جمع المال وغيره وهو يتقى فيه ربه، ونموذج من جمعه فارتكب به الآثام والجرائم، ولقى أسوأ مصير، فإلى أيهما ينظر كثير من هؤلاء؟ إنهم ينظرون إلى النموذج الثانى، أى يقولون: الحمد لله، نحن فى نعمة وفضل، فلو كان

معنا مثل مال فلان لفعلنا ما فعل من جرائم، وكان الإعدام مصيرنا المؤبد مثله تماماً بتمام، فلماذا غضوا عن الأول؟ لماذا لم يقولوا: لو كان عندنا مال كثير لفعلنا كذا وكذا من الصالحات كما فعل فلان لكن ذلك يسبب لهم ألماً، وهم يرجون دائماً المسكنات، وفى الحديث الذى رواه أبوكبشة الأنمارى "إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يتقى فيه ربه ويصل به رحمه وهذا بأعلى المنازل، وهناك كما جاء فى الحديث رجل آخر أوتى العلم دون المال، فهو يقول: لو كان لى مال لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وبقى اثنان، أحدهما أوتى المال دون العلم فهو يعصى به الله، والآخر لم يؤتى علماً ولا مالاً فهو يتمنى مال صاحبه ليعربد به مثله، والطيور على أشكالها تقع.

والله – عز وجل – يقول: **﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾** ما قال قليلاً وضيقاً والتشاؤم يحول دون ذلك والركون إليه غباء يؤدى إلى النار إذا ارتكب ما يقتضيه الفقر من غرم يؤدى إلى الكذب وسرقة تؤدى إلى النار .

ويمنعون الماعون

الماعون اسم جامع لكل ما يعين الناس على الخير من آلة ووعاء، وورقة، وقلم، وغيرهما، وقد بين لنا ربنا – عز وجل- الذين يكذبون بالدين، فكان من وصفهم أنهم يمنعون الماعون، تسأل الرجل: أأجد معك قلماً؟ فيقول: لا والله والقلم فى يده، أو فى جيبه يبدو للناظرين ومع ذلك يقسم بالله أن ليس معه قلم، فإن كان السائل جريئاً وقال له:

أليس هذا قلماً؟

قال: إنه لا يكتب والله.

أو قال: ليس ملكاً لى، وأنا لا أتصرف فى غير ملكى وما كان أيسر أن يعطيه إياه، لكى يكتب به طلباً أو رقماً أو عنواناً، وفى الصحيح: "والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه".

ولك أن تتأمل تلك الكلمة التى تتكرر فى أحاديثه -ﷺ- وهى "الأخوة" قال فى عون أخيه، الأمر الذى يكشف لنا عن سبب تخلفنا عن سلوكيات ديننا، وهو عدم إحساسنا بالأخوة ابتداء، لأن المرء إذا شعر أنه له أخاً أعانه وقد يسأل سائل فيقول: إن الأخوة بحمد الله متوفرة وشائعة على الألسنة، ألا ترى الرجل يقول للرجل: تفضل يا أخى، ومن فضلك يأخى، والأخت لو سمحت ومن فضلك يا أختى، وهكذا، حتى الذين يخطبون يقولون أيها الأخوة والأخوات، فكيف تقول ذلك؟

والجواب أن اللفظ شائع، لكن معناه مفقود، فما أكثر أن يطلق الناس ألفاظاً دون أن يكون لها معناها فى صدورهم، إنها كما يقول الناس "لغوة" وما أصدق هذا التعبير إذا رجعته إلى اللغو، وقد علمنا الشرع أن هناك فرقاً بين اللغو فى اليمين وبين ما عقد منه وثبت فى القلوب، ومن رحمته تعالى وواسع دينه أنه لم يؤاخذنا باللغو، الذى منه لا والله، ولابالله، اشرب بالله، كل والله، ونحو ذلك مما لا يراد به اليمين، وهكذا: إخوتى وأخواتى، ويا أخى، ويا أختى، وتقتضى الأخوة ما ذكره ربنا -تعالى- فى سورة يوسف: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾. يعنى إذا كنت أشعر بمعنى الأخوة تجاهك فإنى عازم على ألا تبتئس فقد ذهب بؤسك حين لقيتنى، إن كنت فى حاجة أعنتك وإن كنت مريضاً داويتك، وإن كنت مديناً سددت عنك، أما إذا وجدتك فى حال من هذه الأحوال وتركتك وأهملتك وناديتك ألف مرة "يا أخى" فلا تصدق أنك لى أخ إنما هذا من فضول الكلام، وما جرى على اللسان، كاللغو فى اليمين.

كان لى صاحب من الرجال الطيبين من قرية بعيدة، وصحبنى فى عمل تليفزيونى، وكان يحمل معه بناً اشتريناه معاً من أبها السعودية، وكان يعد لى منه فى الاستراحة فنجاناً، وطلبت منه إحدى الممثلات أن يعد لها مثله لما فاحت رائحة البن، فاستأذننى، وحين قدم لها الفنجان قالت له: شكراً يا روح قلبى، سمع الرجل هذه الكلمة، وعاد بعد انتهاء العمل إلى قريته وأهله، وتغير حاله مع زوجته، وزرته فى هذه الأيام

ووجدته فى أسوأ حال، وشكت زوجته تغيره واضطراب مزاجه منذ عاد من القاهرة، فسألته فصارحنى وقال هذه المرأة تزوجتها منذ خمسة عشر عاماً، وأنجبت منها ثلاثة أولاد، وما قالت لى يوماً: يا روح قلبى، وقالتها لى الفنانة ذات المنصب والمال والجمال والدلال، إنى أريد أن أعمل عند هذه الفنانة خادماً يا دكتور، لو سمحت توسط لى عندها، الله عليها، صدق الرجل، وقتله المقتضى؛ فقلت له: لو رأتك ورأتنى لما عرفتنا، جمعتنا صدفة وانتهت، وهى تقول لطوب الأرض الكلمة نفسها، لا تقصدك ولا تعنى مقتضى ما تقول ما تقول إن كنت روح قلب أحد، فأنت روح قلب أم أيمن التى اصطفتك، وصبرت معك، وملأ الله بيتك خيراً على يديها وبفضل إخلاصها ووفائها، ما قال لك لسانها يا روح قلبى ولكن قال لك ذلك كل شىء فيها، والحمد لله أن الرجل كان يثق بى، ويطمئن إلى قولى، وكانت هذه الزيارة علاجاً لحالته، فعاد سيرته الأولى مع زوجته، وقال أعوذ بالله من الخداع، قلت: لا خداع، إنه الإسراف فى إطلاق الألفاظ دون رعاية لمقتضاها، ومنه تلك الأخوة اللغوية اللفظية التى هى أقرب للغو منها إلى الجد، ولو كانت جداً ما منع أحد أحداً ماعوناً، وما كذب بالدين إنه الغباء الذى يذهب بأصحابه .

الذين هم يراءون

يرائى الناس أى يريهم صلاحه وآيات تقواه- ولا تقوى عنده- ويسعده أن يقول الناس فيه خيراً، وهذا منتهى سعيه ومبتغى عمله، هل يحكم على نفسه بما حكم الله عليه، حيث يؤتى من كانت الشهادة ظاهرة ويقول الله تعالى لملائكته خذوه إلى النار، فيقول يا رب قاتلت فى سبيلك حتى قتلت، فيقول الله كذبت، إنما قاتلت من أجل أن يقال شجاع، وقد قيل، ويقول لمن رأى الناس كرمه وهو يقصد به مدحهم وثنائهم: إنما أنفقت ليقال: كريم حتى قارئ القرآن الذى تلاوته عبادة، وكل حرف فيه بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها يقال له: إنما قرأت ليقال قارئ، وقد قيل:

وقد روى البخارى أن النبى -ﷺ- سئل: إن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل للذكر، ويقاتل للمغنم، فمن فى سبيل الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله.

وقد تتحقق له الغنيمة، ويتحقق له الذكر والصيت، ويكتب اسمه فى الميادين، وأطهر منها أن يكتب فى سير المجاهدين، ويذكره الناس بطلا شجاعاً جاهد فى الله حق جهاده، لكنه لم يقصد ذلك ابتداء، تماماً كالذى ينوى أن يصلى فى المسجد صلاة جماعة، لم ينو غير هذا، فيشعر وهو فى الطريق إليه براحة، وقد يشاهد عرساً فيبتهج، وقد يشعر بالأنس فى المسجد لوجوده مع إخوانه، وهذا هو الذى عبر عنه الشاطبى فى الموافقات بالمقاصد الثانوية، وقد جاء رجل النبى -ﷺ- كما روى ابن عبد البر فى التمهيد، وقال له: يا رسول الله إنى أتصدق فى السر، لكن إذا عرف الناس واطلعوا سرنى ذلك!

فقال عليه الصلاة والسلام: لك أجر السر وأجر العلانية لماذا؟ لأن الرجل لم يقصد بصدقته السرية أن يطلع عليها الناس فى الصباح، وأن يقولوا عنه كلاماً طيباً، لكنه كان، فماذا يفعل؟ هل يقول لهم: من فضلكم ذمونى واشتمونى حتى أشعر بالإخلاص، وقد يشعر المرء بالمقاصد الثانوية وهو يؤدى المقاصد الشرعية الأساسية أى يجمع بينهما بأن يقول فى نفسه: أذهب إلى المسجد وأصلى فى جماعة وأحظى بمقابلة أخوانى، وأسرى عن نفسى بالحديث معهم، ولا شىء فى ذلك كما قال الشاطبى، ورد من ذهبوا إلى أن ذلك يبطل عمله، فهؤلاء قوم لا يلتفت إلى كلامهم، وقد رأى الناس فى زمان النبى -ﷺ- رجلاً يؤجر دوابه للحجيج، ويحج معهم، فقالوا: لا حج لك، وحزن الرجل، وسأل رسول الله -ﷺ- فقال له: هل عملت ما عملنا، وهل وقفت بعرفة كما وقفنا، فقال: نعم قال له: لك حج، وأنزل الله - تعالى- فيه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لكن بعض الناس يستكثر على بعض فضل الله عليه، كأنه يقول كيف يتساوى هذا بى، ويكون له حج كالذى يكون لى،

وأنا الذى سافرت للحج فقط، ولم أصحب معى دواباً أؤجرها، ولم أنتفع بشىء، هى ذات الفكرة التى كانت فى عقل الراهب حين أفتى الرجل الذى قتل التسع والتسعين نفساً وسأله: هل لى من توبة؟ فقال: لا؛ فقتله، أفتاه بذلك؛ لأنه يرى أن الناس جميعاً ينبغى أن يكونوا مثله منقطعين للعبادة، معتزلين للحياة. والعلم قواعد وأصول، لا صلة لها بحال المفتى، فلا ينبغى للعالم أن يحمل الناس على سلوكه، وقد قال رسول الله -ﷺ- لست على هيئتكم، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى.

وهذا المرائى الذى توعده الله - عز وجل- بالويل مرجع غبائه إلى أنه قصد من لا يملك، وانصرف بنيته عمن يملك، كالذى يعلم أن الحجر لاينفع ولا يضر وعبده من دون الله، وكالذى قصد غير الطبيب، وضيع الوقت والمال وترك الطبيب الخبير، وكالذى أهمل امرأته وهى خادمته وحلاله، واهتم بغيرها، ولن يبل منها صداه، ولن يروى منها فؤاده، ولن يقضى معها حاجته إلا على سبيل الفاحشة ومصيره ومصيرها غضب الله وناره، فأى ذكاء فى هذا وأى نبل، وأى سواء لسبيل، إن الله -عز وجل- وحده هو الذى يرجى منه الثواب يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

لا يفكر الغبى إلا فى المفقود

يريد حياة ناعمة، لا يبس فيها، قصراً أو شقة واسعة، وزوجة حسناء، وأولاد كلهم ذكور، وبنتاً واحدة يلعب بها؛ وحتى يكون عند الزوجان الذكر والأنثى، وبمجرد أن يولد الولد تبدو عليه آيات العبقرية، ويتفوق على زملائه فى مصر، وأمثاله فى الدول العربية والأجنبية، بدون دروس خصوصية ويكفيه الله شر الأمراض قليلها وكثيرها، خفيفها وثقيلها، ويربح فى تجارته إن كان تاجراً، ويخرج زرعه قبل أن يخرج زرع الناس إن كان مزارعاً، ويملأ من الأموال خزائن تفوق ما كان عند قارون، وإذا طلب شيئاً وجده فى الحال، وأن يكون زعيماً دون أن يبت

يوماً وليلة فى معتقل، ودون أن يجاهد بفكره وماله فى خدمة وطنه، كفاه شرفاً أن ينال الزعامة لأنه مر بمظاهرة، ووقف عندها دقيقة، وصاح مع المتظاهرين صيحة ثم انطلق فى أمان الله قبل أن يهجم على المتظاهرين الأمن المركزى، أو أنه يؤيد الزعيم فلاناً – رحمه الله– وهذا التأييد يكفى أن يحل محله، ولو تفكر بعد حصول كل هذا فلن يرضى؛ لأنه ذلك الغبى الذى لا يفكر إلا فى المفقود، والحياة لا تخلوا أبداً من شىء مفقود، إن كان ضالة أحد، ووفق إليها، وحصل من قريب أو بعيد عليها فكر فى غيرها، ولو فكر فى ميت له، كيف يعود فإن قيل له مع أنه يعلم والموتى يبعثهم الله قال: لم مات أصلاً؟

وهكذا نجد الذى يفكر فى المفقود لن يعدم مفقوداً كما قال القائل من قديم:

لا تعدم الحسناء ذاماً

أى لا تعدم الحسناء من يذمها فضلاً عن أنها لا تعدم شيئاً فيها يذم، من عضو فيها، أو طول أو قصر، أو لون، أو عقل فقد تكون بارعة فى الجمال لكنها ناقصة العقل خفيفة، ومن ثم قيل فى المثل: النظرة الأولى حمقاء، فقد تحمل لك النظرة الأولى صورة للكمال، فإن أعدت النظر بدا لك النقص هنا أو هناك، والحياة هكذا، لا كمال فيها يمكن وصفه بالكمال المطلق إنما هو نسبى، وقد قال العلماء فى قول الله -عزوجل- فى ملكة سبأ: **﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾** قالوا: لم يكن عندها كل شىء على الإطلاق، بدليل أنها لم تكن ذكراً، ولم تكن تعلم منطق الطير كما تعلمه سليمان -عليه السلام-، وذكروا من الآثار أن من أوتى بيتاً ودابة فقد أوتى كل شىء، وقد قال الله عز وجل فى بنى إسرائيل: **﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾** قال العلماء كان الرجل إذا ملك بيتاً ودابة قيل له ملك، وما أكثر الملوك فى زماننا على هذا المعنى، ولكن من قال: أنا ملك ولله الحمد الذى جعلنى ملكاً؟

تلك هى القضية، ترى العاقل من أوتى الكفاية وراحة البال، ومتاعب حياة كريمة طيبة قال: اللهم لك الحمد، وهو ساع من أجل

تحسين أحوال معيشته والحصول على أوسع رزق على وجهه الحلال. لكن الغبى من توفرت له تلك الحياة وزيادة ثم أخذ يفكر فى المفقود الذى ذكرت أن الحياة لا تخلو منه بحال، لأن فى الحياة منغصات يذيبها التفكر فى الموجود من النعم، والصبر، وغير ذلك من معالجة الدين العبقرية لمنغصات الحياة، يقول إذا رزق المال الوفير، والبيت الواسع، والزوجة الصالحة ولم يرزق الولد: كنت أود أن يأخذ الله هذا كله منى، ويعطينى ولداً، أمر به على المساجد والمستشفيات وأسأل الناس، فقط أنظر فى وجهه وأسمع منه كلمة "يا أبى" أليس هذا غباء، إن زكريا -عليه السلام- حين سأل الله الولد ما قال له: خذ منى كل شىء أعطيتنى إياه، وأعطنى الولد، وإنما قال: رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، والله -عزوجل- حين بين لنا أنه أجاب دعاءه ما قال لنا: أخذنا منه كذا وأعطيناه يحيى، وإنما قال: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾**، وقال فى أيوب: **﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾** وهذا دليل على أن الله -عز وجل- يؤتى عبده سؤله وزيادة، ولو أعطى ذلك كل سائل ما نقص من ملكه – عز وجل- شيئاً سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم، والله واسع عليم، ويقول من رزق جملة من الأموال يا ليت الله يأخذهم جميعاً ويرزقنى المال الذى عند فلان فماذا فعلت بالأولاد، وهكذا يبدو الغباء الذى يذهب بصاحبه إلى النار لفقد الأدب مع الله والله الحكيم، ولما يترتب على هذا من احتقار النعمة، واحتقار النعمة يؤدى إلى زوالها وإلى النار!

البلاء موكل بالمنطق

فى توجيه ما فوقه توجيه؛ لأنه توجيه العليم بما يصلح عباده يقول ربنا – تعالى- **﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾**. أى إن جاءك أقاربك والمساكين إليك وقد تعودوا منك العطاء، وكنت فى عسرة تنتظر فرج الله -تعالى وفضله عليك فقل لهم

قولاً ميسوراً، هذا توجيه ربنا – عز وجل لنا، وهو العليم بما يصلح أحوالنا، وتستقيم عليه سعادتنا فى الدنيا والآخرة، فماذا يفعل بعض الناس الذين يستحقون هذا الوصف، وصف الغباء الذى يدخلهم فى قحط الدنيا، وعذاب الآخرة إن لم يغفر الله ويرحم يقول لقريبه: كان زمان، من أين، خلاص، ضاع كل شىء وصرت على الحديدة، فإن كان فى عينيك نظر فانظر إلى حالى هل معك قرشان أسد بهما جوعة الأولاد، وأفك بهما تلك الأزمة، فما أكثر ما أخذت منى، وترى على قلبك كذا وكذا ومنهم من يقول:

انفض المولد، وتفرقت الجموع، بالله عليك حل عن سماى، وافتح لنفسك طريقاً، والله ما ضيعنى مثلك، إنه الوابل نفسه الذى يصر كثير من الناس على إسقاطه فوق رءوس الناس، بسبب ذلك الاحتقان الذى يصيب الأغبياء فجأة ولا يرحل عنهم لأن مثلهم مثل القانط من رحمة الله -عزوجل- لقد حلت كارثة بالمسلمين حين هجم الناس على المدينة من كل صوب وبتعبير القرآن الكريم زلزل المسلمون، وبلغت القلوب الحناجر المشهد واحد، والمعاناة واحدة، لكن انظر إلى المنافقين حيث قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وانظر إلى المؤمنين حيث قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، فكيف اختلف القول لاختلاف التأويل واختلاف ما وقر فى القلب عند كل .

وأكرم الله المؤمنين وكفاهم القتال، **﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾**.

وفى السير أن بعض المنافقين كان يقول: لإن كان ما وعدنا محمد حقاً لنحن أضل من الحمير، وقال بعضهم: كان محمد -ﷺ- يعدنا بملك

كسرى وقيصر والرجل منا لا يستطيع الآن أن يقضى حاجته، وما أكثر الأغبياء من المنافقين الذين يقولون هذا ومثله معه.

إن قوماً ينظرون إلى الليلة السعيدة منذ طلوع فجر اليوم الذى قبلها، فإن لم يجدوا فيه سعادة شعروا بأن الليلة سوداء فاحمة، دائماً يقولون: لا خير تبدو بوادره، وفلان هذا قد بلغ الأربعين فلن يصل إلى شىء، وفلان هذا قال الأطباء إنهم يشكون فى مرضه، فلا رجاء فى حياته.

قالت إحدى الصادقات مع أنفسهن، تزوجت مهندساً على أمل أن يكون ذات يوم وزير إسكان، أو يكون له مكتب استشارى كبير، يصب على الخير صباً، ومرت خمس سنوات، وحالنا لا تقدم فيها، ولا خير رأيته، راتبه فقط كان الذى يدخل بيتنا، قلت: طلقنى لا أطيق، قال: اصبرى قالت: أبداً، وحقق لى رغبتى، وأطلق سراحى، وما مرت خمس مثلهن إلا ولمع وبرق، وصار صاحب شركة كبيرة لم أتحسر، ولكن قلت: حظى ونصيبى، أنا التى لم أصبر ولا ينبغى أن أنظر إلى الوراء.

وياليت الناس جميعاً صادقون مثلها بحيث يتهم المرء نفسه، والاتهام توبة، بدليل قول الله -تعالى- **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** لكن الكثير من الناس يقطع نفسه حسرات وربما عاد إلى الوراء، ولم يكتف بالنظرة، ولكن لا يجد له مكاناً عند رجوعه؛ لأن الرجل كان قد تزوج أو لأن الوظيفة التى غضب عليها شغلها غيره، وغير ذلك من صور المآسى، والبلاء موكل بالمنطق، فالذكى من يستبشر خيراً، والغبى من يقول: من أين يأتى الخير،، ولن يأتيه الخير، والدليل على ذلك قول الله- سبحانه- "أنا عند ظن عبدى بى، فإن ظن بى خيراً فهو خير وإن ظن بى سوءاً فهو سوء".

ولا تنابزوا بالألقاب

جــاء النهى صريحاً فى الكتاب الكريم عن التنابز بالألقاب، قال الله -عز وجل- **﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾** ومعناه النهى عن أن ينـادى المرء أخاه بلقب يكرهه، وقد تجد للرجل أكثر من لقب، كل ما فيها حسن إلا واحداً، والغبى من يصطفى هذا الواحد ليشفى به غليله وما هو بشافيه، وليغيظ به أخاه، وهذا ضرب من الغباء كذلك، وقد تعلمنا أن رسول الله -ﷺ- كان ينادى أصحابه بأحب ما يحبون من ألقابهم، بل كان -ﷺ- يغير الأسماء القبيحة، ويسمى أصحابها أسماء حسنة، ذكر ذلك البخارى فى كتابه الأدب المفرد، ومنه أن علياً - كرم الله وجهه- سمى ولديه حرباً، فسماهما رسول الله -ﷺ- الحسن والحسين، وسمى -ﷺ- رجلاً كان اسمه قليلاً: قال له: أنت كثير وكانت امرأة تسمى عاصية فسماها جميلة، وامرأة تسمى جثامة سماها -ﷺ- حسانة، وكان رجل اسمه "حزن" ومعناه: شدة، فقال له أنت سهل، فقال: لا أغير اسماً سمانيه أبى، فظلت فيه حزونة، أى شدة، وهكذا كان -ﷺ- يحب الاسم الحسن، والفأل الحسن، لكن الذى يتنابز بالألقاب ليضر من يناديه ويؤذيه ويرتكب بذلك مخالفة لشرع الله الذى آمن به ورضى به رباً إنما يوصف بالغباء لأنه حمل نفسه خطيئة كان بوسعه أن ينأى بنفسه عنها.

ومعظم جرائم اللسان سببها الغباء؛ لأن الله قد جعل للإنسان شفتين، قال عزوجل: **﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾** وورد فى بعض الأحاديث القدسية أن الله -عز وجل- يقول للإنسان، جعلت لك شفتين فإذا غلبك لسانك فأطبق شفتيك، وكأنهما حصن خلقه الله -عزوجل- يعين به عبده على أن يصون لسانه، لكنه مصر على أن ينادى خادمه أو عامله، وربما زوجته وولده بأسوأ الألقاب، وهذه الألقاب قد تكون مطلقة على الخادم والعامل قبل أن يلقاه، وصحيح أن العلماء استثنوا من التنابز بالألقاب من كان لقبه السئ قد اشتهر به ولا يغيظه أن

ينادى به، ومثلوا لذلك بأسماء بعض الشعراء مثل الأعمش، والأعرج، وفى زماننا الجحش والبغل والفأر، والقط، فلا حرج ما دام المنادى قد عرف بذلك ولا يضايقه أن ينادى به، ونية عدم الإساءة موجودة والبعد عن المناداة بتلك الألقاب من باب أولى لما ثبت عنه -ﷺ- من تغييرها.

وهناك مع الأسف والألم الشديد مواقف يصطنع منها الأغبياء ألقاباً، هؤلاء هم المخترعون وهل يخترع السئ إلا سوءاً، فمثلاً امرأة سقط منها رغماً عنها طبق صينى، وتكسر، فظل زوجها يناديها بأم طبق، تعالى يا أم طبق، روحى يا أم طبق، هل سمعت يا أم طبق، هل فهمت يا أم طبق، حتى حاكاه ولده، فقال لأمه: وماذا أفعل يا أم طبق إن لم أجد هذا، كان صغيراً لا يدرك فلما بكت أمه، وقالت له: حتى أنت تهين أمك! فقال: إنما قلت ما يقول أبى، ووالله لا أهين أمى أبداً هب أن الولد لم تصرفه دموع أمه، وقال: يا أم طبق ما دام حياً، هل تراه بذلك ولداً باراً بأمه، أم أن أباه علمه السبيل إلى النار بسوء سلوكه مع أمه.

وإذا كان (أم طبق) من الألقاب السيئة فإن امرأة خرج منها ريح، كالذى يخرج من كل الناس، فناداها به زوجها، وشاع اللقب بين أهله، ومع مزيد من الأسف عاشت عمرها فى حزن شديد، لا حول لها ولا قوة فهى أم خمسة، وقد مات والداها، واحتل أخوها شقتهما فلم تدر إلى أين تذهب، وهذا الغبى كأن له شهوة فى إطلاق هذا اللقب البغيض يا أم كذا... يا أم كذا وذات يوم كان فى الحمام وسمعت منه ذلك الريح، وكان كالصاعقة، فقالت له فى دعابة مأساوية: ما رأيك هل يجوز لى أن أناديك بيا أبا كذا، أليس كل الناس يخرج منهم ما خرج منى، وكانت تود أن ترجوه أن يكف عن إطلاق ذلك وكانت المأساة ضربها ضرباً شديداً، وقال: أنا والرجال جميعاً يحق لنا أن نخرج هذه الأصوات أما النساء فلا، وأقول: ألا قاتل الله هذا الفكر الغبى الذى لا صلة له بدين الله!

التجسس

أن تعرف أخبار عدوك كما عرف النبى -ﷺ- عدد القوم يوم بدر من خلال ذبائحهم اليومية شىء مشروع، لكى تستعد، وهناك فرق بين معرفة الأخبار من أجل أن يطلع النهار على بلاد آمنة، وقلوب مطمئنة، وأيد فنية تزرع وتقلع فى أمان الله، وبين التجسس الذى هو استنطاق الصمت، وما رغب الناس المسالمون الآمنون فى إخفائه عنك .

لدينا فى هذا الزمان ما عمت به البلوى فرسان فى هذا المجال قد ينفقون أموالهم من أجل هذا، يسأل هذا ويسأل ذاك، ماذا فعل فلان؟ ومتى ذهب؟ ومتى جاء ومن صحبه؟ وهل عاد معه؟ وهل تشاجرا؟ أما سمعت خبراً، فى الوقت الذى تحتاج فيه بيوتهم إلى هذه المبالغ المدفوعة فى معرفة الأخبار.

وقد كان الناس من قديم يتصنتون خلف الجدران، قبل أن تنتشر الهواتف وغيرها من أجهزة التصنت والله - عز وجل- يقول: ﴿وَلاتَجَسَّسُوا﴾، نهى عباده المكلفين عن التجسس، لما فيه من رغبة فى الحصول على أخبار ومعلومات على غير رضا صاحبها، فكان المتجسس يسرق الأخبار كما أن اللص يسرق الأموال، هذا يأخذ الأموال خلسة، وهذا يأخذ الأخبار خلسة، ولم الخلسة والاختلاس، وصاحب الخبر موجود إن أردت أن تعرف منه شيئاً فاقصده، واسأله فإن صارحك وأخبرك فقد شفيت غليلك، وإن كتم عنك شيئاً فلا تحزن، دعه على راحته، وانشغل بأخبار ولدك وأهلك، وأخبارك.

هناك شهوة معرفة الأخبار، شهوة مجردة من أية مصلحة، إنها إدمان، فهذا لا يرتاح إلا إذا عرف أخبار جاره، أو زميله، وهذه لا ترتاح إلا إذا عرفت أخبار فلانة تذكر أن آخر مرة قالت إنها سوف تطلب الطلاق، فهل طلقت أم هدى الله الحال؟ لن ترتاح حتى تعرف، وبفضل من

الله أنها نسيتها طول هذه المدة، فآخر مرة هذه كانت قبل رمضان، وقد جاء رجب، وما بقى على رمضان الجديد سوى شعبان، أى شهر واحد، مرت سنة يا أولاد، ولا أحد يأتينى بخبرها، وما شغلت عنها عن تدبير زوج وولد، وإصلاح حال، والله الذى لا إله غيره إن بعض الناس حين يحدثك عن أخبار الناس تجده موسوعة مفصلة، فلان، معلوماتك قديمة، من بعد أن قال ذلك فعل كذا، وذهب إلى كذا، ودخل المستشفى.

- هل زرته؟
- لا والله.
- أية مستشفى ؟
- لا أذكر، لكن ما وصلنى أنه كان يعانى أزمة شديدة، يقال: بلغت به الموت، ولكن الله -تعالى- كتب له عمراً جديداً، وخرج من المستشفى.
- هل زرته فى بيته؟
- لا، ألم يبلغك!
- لا، لم يبلغنى .
- لقد ترك سكنه القديم، واشترى عقبى لأملك أن يتحقق.
- وأين سكن؟
- فى التجمع .
- أى تجمع؟
- لا أدرى.
- هل زرته فى مسكنه الجديد، وباركت له؟
- لا، والله. أنت تعلم، أن الدنيا تلاه .
- تلاه نعم، بارك الله له .

- **باع يا سيدى شقته القديمة بسبعين ألفاً وأكمل عليها، واشترى شقة واسعة تجرى فيها الخيول ما شاء الله، تبارك الله، يقال، ولكن ياعينى عليه!**
- **وياعينى أنا أيضاً، ماذا هنالك ؟**
- **ابنته طلقت، ومعها طفل، لا يا ربى، طفلان لم تطلق، لم تطلق، ولكن اختلعت .**
- **خلع؟**
- **نعم، بعد أن أذاقها الذى لا يتسمى الهوان، وعذب أبويها، وكان بخيلاً إلى درجة لا تطاق، وأنت تعلم أن أباها قد كلف الفرح الشىء الفلانى.**
- **هل حضرت الفرح؟**
- **لا والله، دعانى، ولكن أنا متعب وعندى السكر هاه.. الحمد لله الذى خلصها منه .**

ومثل هذا كثير دون سند ودون معاتبة، والعجيب أن حافظ هذه الموسوعات لا يحفظ سورة من القرآن يصلى بها .

البغضاء حالقة الدين

دعا النبى -ﷺ- للمحلقين ثلاثاً،، ودعا للمقصرين مرة واحدة، وفى كل خير، وأنت إذا نظرت إلى المحلقين لم تجد شعرة فى رأس أحدهم، ذهب الشعر كله، وعما قليل سوف ينبت الشعر من جديد، وربما نبت أغزر وأوفر مما كان قبل الحلق، ولكن إذا حلق المرء دينه، فهل يعود الدين من جديد كما عاد شعر الرأس، وهل يعود أغزر وأوفر مما كان قال عليه الصلاة والسلام فيما روى مالك فى الموطأ: "إياكم والبغضاء، فإنها الحالقة، لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين".

كم من الناس يعيش ودينه محلوق، وهل الذى يعرف ذلك، وقد عرفه به رسول الله -ﷺ- يرضى لنفسه أن يكون حليق الدين .

لقد استفتانى بعض الحجيج فى الحلق والتقصير وقال المستفتى: هل على من إثم إذا أنا قصرت شعرى بصراحة يا دكتور أنا نفسياً لاأتحمل الحلق - أستغفر الله العظيم، يا رب، سامحنى يا رب، أرجو ألا يكون ذلك إثماً، وألا تكون تلك مصيبة، ولكن عملى وما اعتاد الناس من شكلى، وعمرى فى حياتى ما حلقت شعرى هكذا، فهل على من إثم؟

قلت: لا، فالله عز وجل يقول: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾**، فذكر ربنا - تعالى - الحلق والتقصير، ودعا النبى -ﷺ- للمحلقين ثلاثاً ودعا للمقصرين مرة، وفى كل خير، فلن تذهب الحجة، ولن تكون آثماً إن شاء الله، ففى الأمر اتساع، والدين كله مبنى على اليسر، بفضل الله .

والشاهد أن من الناس من يشعر بحاجة فى صدره إذا حلق شعره، ألا يشعر بحاجة فيها إذا حلق دينه!

وما سبب حلق الدين؟ إن السبب كما بينه رسول الله -ﷺ- البغضاء، والبغضاء غباء إذ معناه ألا يقبل الإنسان أن يرى أخاه، ألا يحب الخير له، قال رجل لامرأته: أسمع زغاريد، خيراً، اللهم اجعله خير!

قالت له: ابن فلان نجح فى الثانوية العامة بمجموع كبير، ويقولون، سوف يدخل كلية الطب .

وكان مضطجعاً فجلس، وقال: نجح.. كبير.. طب .

- هذا الولد الذى .....
- نعم.
- ابن فلان الذى ..

- نعم ابن فلان الذى ...
- ابن أمس ...
- لا ابن سبعة عشر عاماً.
- يدخل الطب .
- وماذا فى هذا ؟
- قال: اللهم لا تمدنى من العمر حتى أراه طبيباً، اجعل يومى قبل هذا اليوم، وقد كان، لم تمهله المنية إلى ما قبل هذا اليوم، وإنما مات بعد عام، فالبلاء موكل بالمنطق، والله -تعالى- عند ظن عبده به، إن ظن به خيراً فخير، وإن ظن به سوءاً فسوء .

مات كمداً وحزناً وحسرة، بسبب البغضاء، إنه لا يحب الخير لهذا الطالب، لأنه ابن فلان الذى كان يعمل عند أبيه، وسافر إلى العراق أيام كانت أرض الزيت والتمر، وعاد، وبنى له بيتاً وافتتح فيه دكاناً، واستقل، وكان دائماً يقول فيه فلان صار له بيت، صار أبا بيت، احتقاراً وسخرية، أى كان عليه أن يعود من العراق، ويلقى حصيلة عشرة أعوام من غربته وشقائه، فى حجر ذلك الذى توفاه الله، ويقول: مثلى لا يصح أن يكون أبا بيت، يصح فقط أن يكون أبا ضياع وخرابة، أظل عمرى خادماً لكم، فمن أنا؟ ومن أكون، هذا الذى كان يرضيه، أما أن يقول كما يقول بعض الناس من النبلاء: سبحان مغير الأحوال، والله يستحق الخير وزيادة، فقد كافح واغترب، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو مثال لكل طموح بجد، لا لم يقل هذا؛ لأنه من الذين يرون أن الدون يجب أن يظل دوناً طول عمره، أعجبه ذلك أم لم يعجبه، وأبواب السماء ليست مفتحة للأغبياء، وإنما هى مفتحة لأولى الألباب الذين ينصفون أنفسهم من أنفسهم، ويسترون سوأة تلك النفوس كما يسترون أبدانهم، حتى لا تنكشف عن بغضاء، والبغضاء حالقة الدين، ومن ضاع دينه كان مصيره النار.

باع كثيراً لا يحصى بقليل تافه

لا أدل على غباء إنسان من أنه يبيع الكثير العظيم بالقليل التافه.

إن قلت: لا يعرف قيمة ما باع فله وجه من العذر مقبول، وإن كان من آيات العبقرية أن يعرف المرء قيمة ما عنده، فإن جهل سأل، حتى لايقدم على صفقة خاسرة فيندم ندماً عظيماً بعد فوات الأوان .

لكن إذا كان يعرف قيمة الشىء الذى عنده، وأنه عالى الثمن كان من آيات غبائه وقلة عقله أن يبيعه بثمن بخس دراهم معدودة، والذى يزيدك لعنة للغباء أنك تراه سعيداً ببيعه الخاسر، يظن أنه قد ربح ربحاً لم يربح مثله أحد، ولو رأيته على سكينة، لقلت: الرجل يضمر فى نفسه حسرة وندماً على ما كان منه من سوء البيع، أو قلت: إن هذا الرجل كان كالسيارة الذين باعوا يوسف -﵇- بدراهم معدودة؛ لأنهم كانوا فيه من الزاهدين، فليست هذه سلعتهم، ولا حرفتهم، وقيل باعه إخوته، لكن إذا رأيته يطير فرحاً بهذا البيع قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، أى غباء هذا؟ قاتل الله الغباء وأهله، ومن الذين يبيعون الكثير العظيم بالقليل التافه الذين يخونون الأمانة ويأكلون أموال الناس بالباطل، يبيعون الأمانة وهى غالية بدراهم معدودة حتى ولو كان ذلك بملء الأرض ذهباً، وقد قال ذلك العلماء فى الذين اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً قالوا: لو اشتروا به الدنيا وما فيها لكان ذلك ثمناً قليلاً وهذا طبعاً بالنظر إلى النار التى هى مصيرهم ومأواهم ولولاهم وبئس المولى، وبئس القرار، والنار لا ينقذ منها مال الدنيا ومثله معه على فرض أنه موجود "ماتقبل منهم" كما قال ربنا- تعالى.

انظر إلى ما ينجى من النار، وهو الأمانة، فكم هى غالية بالنظر إلى عاقبتها وهى الجنة والنجاة من عذاب أليم مقيم .

روى البخارى عن عروة البارقى -﵁- أن النبى -ﷺ- أعطاه ديناراً يشترى له به شاة، فاشترى له به شاتين، فباع إحداهما بدينار فجاء بدينار وشاة، فدعا له بالبركة فى بيعه، وكان لو اشترى التراب لربح فيه".

تصور هذا الخلق الذى هو آية من آيات عبقرية الإيمان، وتصور ما عليه كثير من الأغبياء الذى ربما أرسلته ليشترى لك شيئاً بثمن معلوم فاشتراه بأقل منه ودس الباقى فى جيبه، وحصل على الإثم بدرهم أو بجنيه ونحوهما، يفرح طرباً به وهو لا يغنيه والنار فى انتظاره إن لم يعف الله عنه .

ولطالما يرتكب الناس هذا، ومنهم من تعطيه مائة جنيه ليشترى لك شيئاً بتسعين، فيعود ويعطيك الشىء دون الباقى، وهو عشرة، تقول له:

- بكم اشتريت؟

فيقول:

- بتسعين. تقول له: وكم أعطيتك؟ يقول لك: مائة فتسأله: أين الباقى؟ فيضع يده على جبينه متظاهراً بالنسيان، ثم يقول لك وهو يضع يده فى جيبه الواسع: معذرة، ويخرج لك العشرة - وهى حقك- كما يخرج القطعة من نفسه، ويتلكأ عند إخراجها منتظراً أن تقول له: خلها.. خلها من أجلك.

ولو أنه قال لك: سوف آخذ الباقى نظير هذا لكان حلاً طيباً له؛ لأن من حق أى عامل يقوم بعمل أن يحصل على مقابل عمله، وهو أجر له، وهو حلال طيب بلا شك لكن ماذا تفعل مع هؤلاء الذين يقولون: إذا عرض عليهم أجر، لا والله، عيب، أتشتمنى؟ أتهين كرامتى؟ أتجرح إحساسى، ألا تعرف مكانتك عندى وقدرك فى قلبى، ومنزلتك، فإذا اطمأننت إليه سرقك، أفما كان من الخير له أن يطلب حقه بعفة وأن يكون أميناً فما أشد غباء من يدخل النار بثمن بخس!

يسأل عن التافه ويرتكب العظيم

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - وسأله رجل عن المحرم يقتل الذباب؟ فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله -ﷺ- وقال النبى -ﷺ-. هما ريحانتاى من الدنيا .

والشاهد من هذا الحديث هنا أن من الناس من يسأل عن التافه، ويرتكب العظيم من الجرائم، فلا يسأل عنه ليعرف ماذا ارتكب. وليعرف أنه من الضرورة أن يتوب ويرجع، وقد سئل ابن عمر عن قتل المحرم الذباب، والجواب: لا شىء فيه ولا فى قتل الحيات وما يؤذى الناس، لكن ابن عمر نظر إلى المفارقة بين السؤال عن شىء صغير، والسائل يرتكب المخاطر، وهذا هو الشاهد؛ إذ قد يكون هذا السائل ليس ممن قتل الحسين -رضي الله عنه-، ولا تزر وازرة وزر أخرى، إنما هو التنبيه إلى درس من دروس الدين الذى بنى على عزم الأمور قال الله -تعالى- **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾**، وقال عز وجل: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾**.

وقد قال النبى -ﷺ- فى رجل سأله عن أركان الدين، وقال له: والذى بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال - عليه الصلاة والسلام- أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق، رواه البخارى ومسلم.

وقد روى أن رجلين من الخوارج دخلا على امرأة مسلمة وكانت حاملاً، فعقر بطنها، ورمى بجنينها، وخرج مع صاحبه الذى وجد تمرة فى الطريق، فالتقطها وأكلها، فقال له صاحبه القاتل: لقد ارتكبت حراماً، حيث إنك أكلت تمرة دون إذن من صاحبها فقال له: أنا ارتكبت حراماً بأكلى تمرة، وأنت لم ترتكب حراماً بقتلك امرأة مسلمة وطفلاً فى بطنها؟!

وروى أن أحد العلماء فطن إلى هذا الفكر، وكان فى صحبة معه، فلما رأى هؤلاء من بعيد قال لصحبته: اسمعوا ولا تعترضوا، ودعونى أتكلم مع هؤلاء؟! فقالوا: لبيك فلما مر بهم بصحبته أوقفوهم، وقالوا: من القوم؟

فأجاب ذلك العلامة المسلم: نحن كفار .

فقالوا: مرحباً، ووصلوهم إلى غايتهم سالمين معززين مكرمين، فلما سأله من معه عن سبب ذلك الجواب قال: لو قلنا نحن مسلمون

لقتلونا، لكن قلت نحن كفار لأنهم يعملون بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

وقد أسمعونا كلام الله، وأبلغونا مأمننا، ولو علموا أننا مسلمون لقتلونا.

منتهى الغباء أن يجير المرء كافراً لأن الله قال ولا يجير مسلماً مع أن الله قال:

يسألك أحد الناس عن ثواب صلة الأرحام وهو عاق لوالديه، وليس هذا من قبيل السؤال عن صلة الرحم.

وباب الأولويات من الأبواب المهملة، ومن الناس من يكرر الحج وهو يعلم أن الحج مرة واحدة فى العمر، وحوله يتامى محرومون ومساكين جائعون، وأحوال متردية، ومنهم من يفخر بأنه اعتمر للمرة العشرين، وما زالت أخته تشكو بثها وحزنها إلى الله فهى ترجو جهازاً إن كانت شابة، أو أرملة تربى يتامى إن كانت عجوزاً، ولا فائدة.

وتارك الصلاة يسألك عن تسبيحة معينة ودعاء معين، ويتناسى أنه هادم دينه، فمن لم يصل ليس بمسلم كما قال -ﷺ- فأى تسبيح يسأل عنه وهو هادم ركن الصلاة الأعظم! وأى دعاء له يستجاب وهو الذى لم يستند دعاؤه على مستند مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام من نحو رصيد له عند الله - عز وجل، ومن نحو اتهام نفسه بالظلم والتقصير!

وتجد من يسأله عن اسم أم موسى -عليه السلام- وهل تزوج موسى -عليه السلام- التى جاءته تمشى على استحياء أم تزوج أختها؟ وهو لايدرى إن كانت التوراة هى التى نزلت على موسى -عليه السلام- أم الإنجيل .

وما أكثر الأسئلة فى الهوامش وما أقلها فى المتون وما أكثر الذين نراهم يتقنون الشكل وقد خربوا فى نفوسهم كل معنى، رأى الناس فى السفر وكنت معهم رجلاً ذا لحية عظيمة وثوب قصير فقدموه إماماً، فصلى المغرب بإذا زلزلت الأرض زلزالها ووالله الذى لا إله غيره ما عرف كيف يقرؤها وما أحسن قراءتها، وكانت ليلة، فهل هذا من الدين.

لو قال آمين لكان خيراً له

طوف ما شئت بكلام البشر فلن تجد خيراً من قول الله - تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾، وقلب ما شئت من صفحات الأمل فلن تجد مثل هذه الصفحة التى يبغيها رسول الله -ﷺ- حين آذاه قومه، ونزل عليه جبريل -عليه السلام- ومعه ملك الجبال، يقول له: إن شئت أطبقت عليهم الجبلين، فكانوا بينهما ذرات من رمال، فقال: عسى الله أن يخلق من أصلابهم من يؤمن بى، ما قال: نعم، إنهم يستحقون فلا أمل ولا رجاء.

وتلك صفحة أخرى حين أراد عمر أن يخلع أسنان رجل يذم الدين فنهاه، وقال له لعله يقوم مقاماً لا تذمه، وأسلم الرجل بعد حين واستحال ذمه مدحاً، فماذا كنا نفعل لو قطعنا لسانه أو أسنانه وهو الفصيح، وتلك من أدوات الفصاحة .

فينا من لا يحسن النظر إلى الخير المرجو ضعيف النظرة والنظر، إن قلت له: سوف يفتح الله لك أو عليك، وسوف يأتيك الخير قال لك العبارة الدالة على منتهى الغباء: ومن أين يأتى الخير؟

قل له إن شئت: من عند الله الذى يولج النهار فى الليل ويولج الليل فى النهار، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .

روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما- أن النبى -ﷺ- دخل على أعرابى يعوده، قال: وكان النبى -ﷺ- إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طهوره إن شاء الله؛ فقال له: لا بأس، طهور إن شاء الله قال: قلت: طهور؟ كلا، بل هى حمى تفور، أو تثور على شيخ كبير، تزيره القبور؛ فقال النبى -ﷺ- فنعم إذاً.

قال أهل العلم: فمات ذلك الأعرابى من غده.

بالله عليك لو أن هذا الرجل قال بعد قول النبى -ﷺ- آمين، فإن عاش عاش على خير، وإن مات مات على خير، لكل أجل والله لا يعذبه، فقد طهره بمرضه الذى مات بسببه من ذنوبه .

كثير من الناس مثل هذا الأعرابى يقول لك أحدهم إن قلت فى ولده: سوف يكون عالماً إن شاء الله قال: قل كفاه أن يحصل على الإعدادية، معقولة إن شاء الله لن يحصل ولده على الابتدائية والدليل على ذلك قول النبى -ﷺ- البلاء موكل بالمنطق .

وقول الله- عز وجل- فى الحديث القدسى: أنا عند ظن عبدى بى فإن ظن بى خيراً فهو خير، وإن ظن بى سوءاً فهو سوء لقد ضاع يوسف وأخوه، وقال أبوهما: "عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً" وقد كان، ورد إليه بصره، وصدق حيث قال لبنيه "وأعلم من الله ما لا تعلمون".

تقول لبعضهم: إن الخير آت؛ فيرد عليك ومن أين يأتى الخير؟ عبارة شائعة لو قال أمين لكان خيراً له، ثم يتمسح بالدين والدين من هذا الغباء براء حيث يقول لك: "ربنا- تعالى- عرفوه بالعقل" فقل له والعقل الذى عرفنا به الله يقول: إن الله على كل شئ قدير، هل قال لنا العقل: إن الله- تعالى- يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء! أم قال لنا "كذلك" تأمل قول الله- سبحانه-: "كذلك هو على هين" فى الرد على مريم- عليها السلام- حين قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. إن مقتضى العقل ألا يكون منها غلام، لكن هذا بالنظر إلى ما جرى عليه عرف البشر، والسنة فيهم، لكن بالنظر إلى قدرته عز وجل فالجواب "كذلك" وما كل "كذلك" على درجة واحدة، فأنت إذا قيل لك: كيف تحصل على كذا وكذا من المال وأنت عاجز وقلت: كذلك لم يلتفت إليك عاقل، ولكن إذا قال الله فقد صدق الله، وصدق الله ورسوله، وكذب الذين يرون أن الخير مع انعدام السبب غباء حتى فى مداعبة الصغار.

سألتك بالله كم مرة وجدت شيخاً أو شيخه داعبا صغيراً فقالا له: تعال يا قبيح (وحش)، مالك هكذا دميم الخلقة، طبعاً طالع لأبيك أو لأمك فإن كان الشيخ أقرب إلى أبيه قال له: مثل أمك أو شبه أمك، أما أبوك فقمر، وإن كان أقرب إلى أمه قال له: أنت دميم مثل أبيك، طبعاً لأن أمك بدر التمام.

ومنهم من إذا وجهته قال لك: دعابة وأبوه لا يغضبه هذا، أو أمه لا يغضبها هذا والدليل هاهو ذا أمامك، ألست ترى أباه يضحك الست ترى أمه تضحك، وربما قال لك أبوه المذموم مدافعاً بنفسه عمن أساء إليه وإلى صغيره فقال: لا، وألف لا؛ إنه جده، أو عمه أو خاله أو قالت لك أمه: لا أحد فى الدنيا يحبه ويحب أباه مثل هذا الذى تعترض عليه، إنه اشترى له كذا وكذا، أو هو الذى أنفق على أبويه عند الأطباء ما شاء الله له أن ينفق من أجل علاجهما حتى أتى هذا المولود، إنها دعابة لا أكثر، إنه مجرد كلام، لكن القلب حامل للود، فياض بالحب.

وإذا كان هذا مجرد كلام أو ليس مقابله من المدح كذلك مجرد كلام؟

فلم نؤثر مجرداً قبيحاً على مجرد جميل إذا كان لا بد من الكلام فلم لا يكون الكلام جميلاً.

وإذا كنا نحب هذا الصغير فلم نداعبه بأسوأ الألقاب، ولم نناديه ونحن نحبه بالكلب والجحش والحمار، والغباء، ومن لا يتسمى، وزفت الطين، ونحو ذلك من معاجم السوء، اقرأ هذا الحديث الشريف الذى رواه البخارى عن عقبة بن الحارث-ؓ- قال: صلى أبوبكر-ؓ- العصر، ثم خرج يمشى فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وقال: بأبى شبيه بالنبى، لا شبيه بعلى، وعلى يضحك".

حمل أبوبكر-ؓ- الحسن على عاتقه ولم يجر وراءه، ولم يروعه، وقال بأبى يمين لغوية، أو بأبى أنت، أنت شبيه بالنبى، والأولى أقرب إلى الصواب، ففى اللغة اتساع والشرع أوسع، وربما وقف إنسان عند مثلها وقال لمن قالها: خرجت من الإسلام إذ لم تحلف بالله وحلفت بأبيك، ولو كان على علم لعرف أنها يمين لغو، وليست يميناً أمام القاضى يترتب عليها حق شرعى وقال: شبيه بالنبى، وما أدراك ما وجه الشبه بالنبى-ﷺ- من جمال بلغ المنتهى، وضياء يفوق ضياء البدر، قال جابر بن سمرة: رأيت رسول الله-ﷺ- بالليل وعليه حلة حمراء، فأخذت أنظر إلى القمر فى السماء، وأنظر إلى وجه رسول الله-ﷺ- فإذا وجه رسول الله-ﷺ- أجمل من القمر، وعلى-ؓ- يضحك سعادة ما قال له أبوبكر: تعال

يا كذا وكذا من نحو قولنا لطفل كالقمر: تعال يا قرد، أو يا قبيح من قبيل المداعبة.

والنبى -ﷺ- قد دخلت عليه أمة بنت خالد بن سعيد مع أبيها- رضى الله عنه وعنها- وعليها حلة صفراء، فقال لها: سناه سناه يا أم خالد، وسناه بالحبشية: حسن، ما قال كما يقول الناس: ما هذا القبح؟ ثم يضحكون، أو يقولون لها: إياك أن تغضبى، نحن نضحك معك، ومن الناس من يقول ذلك ولكن بعد أن يبكى الصبى والصبية إن كان فيهما جينات من الإحساس المبكر ونخشى أن نضيع هذا الإحساس فيهم بسوء ما نصنع وما ننزل عليهم من وابل السوء الذى لا يدل على ذكاء وإنما هو أقرب للغباء.

وضحك الله عز وجل

الله- عز وجل- ليس كمثله شىء، وهو يخاطبنا بلغة نفهمها، فحين يأتى التعبير فى النصوص الصحيحة بضحك الله فمعناه رضى عزو جل وذلك كما جاء فى هذا الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة -رضي الله عنه-، ومعناه أن رجلاً جاء النبى -ﷺ- ضيفاً فسأل نساءه فلم يجد عندهن إلا الماء، أى فى ذلك الوقت؛ فقال -ﷺ- من يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا.

وانطلق هذا الرجل إلى بيته، وسأل امرأته عن طعام فقالت ما عندنا إلا طعام الصبية، فقال: نوميهم بلا طعام، وأصبحى سراجك، لنوهم ضيف رسول الله -ﷺ- بأنا نأكل معه ونحن لا نأكل حتى يشبع، وقد كان، فعلت وجلسا مع الرجل يمدان أيديهما إلى الطعام ولا يعودان بشىء إلى أن أكل الرجل وشبع، فلما أصبح ذلك الرجل غدا إلى رسول الله -ﷺ- فقال: ضحك الله الليلة، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فتأمل كيف جاء التعبير عن الرضا بالضحك وتأمل محل الرضا، إنه ذكاء من أحب الكرم، وآثر غيره عليه، ما ضره أن يطوى الضلوع على

الجوع فهى ليلة، وما أربحها من ليلة، حيث أصبح وقد ضحك الله له، وكم من عمر طويل يمر دون أن يضحك الله، فما عسى أن يكون هذا العمر إلا وباء على صاحبه وما عسى أن تكون هذه الليلة إلا عمراً يفوق كل الأعمار الطويلة، لأن العبرة بالموقف، لا بالوقوف على شاطئ الكمال فرجة ومشاهدة، ومص ليمون، وتعجب، وضرب كف بكف وتسبيح خال من معناه، وإكثار من قول: لا إله إلا الله كثير من الناس يقف على مواضع البؤس مشاهداً، ويقول: ما باليد حيلة، ويعلم الله أنه كذاب، لأن بيده حيلاً لا حيلة، فهذا الرجل الأنصارى الذى هو بطل القصة فى هذا الحديث الصحيح جاع ليلة هو وأهل بيته وما ماتوا، والنتيجة أن ضحك الله، وما أعظمها من نتيجة، وكثير من الناس يخشى أن يموت جوعاً بعد سنة، فعنده قوت سنة، ويقول: أنا مسكين أنا صاحب عيال، أنا على وعلى وعلى، من ينفعنى؟ من يدفع السوء عنى، فليعمل هذا العمل رجال الأعمال الذين يملكون الملايين، ولو أنه أدلى بدلوه فى الدلاء لضحك له الله- عز وجل، فأسبغ عليه رضاه، وأخلف عليه، وتولاه.

وما أكثر المواقف التى تبدو صغيرة الحجم وهى عند الله- تعالى- عظيمة، فهذا رجل ذكره الله- تعالى فى القرآن الكريم فخلده، ما قدم مالاً، وما بنى مسجداً، وما أقام صرحاً للعلم والاستشفاء، وإنما جاء ناصحاً، يقول: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

قال الله فيه ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾. نال شرف الوصف بالرجولة بسبب هذا الموقف، والنبى -ﷺ- يقول: "إنما الدين النصيحة".

وكثير من الناس يؤثر البعد عن النصيحة تحت أوهام أفرغها إبليس فى قلوبهم نحو "ما لنا والناس.. من تنصحه يظن أنك تغشه فدعه، أو ربما نصحناه فلم يوفق إلى ما نصحناه إليه فيظن أننا السبب، ومن ذلك قول الناس "امش فى جنازة ولا تمش فى جوازه" يؤثرون المشى فى ركاب الموت على المشى فى ركاب العرس، وذلك لأن الزواج سوف يفشل، وسوف تتساقط على من مشى فيه اللعنات لأنه كان السبب، وما عليك لو كنت ذكياً، فالأعمال بالنيات، وأنت ما كنت إلا سبباً فى خير

مرجو، ونحو نحن لن نصلح الكون، وغير ذلك من آيات التخلى عن أفضل الأعمال والمواقف التى ترضى الله- عز وجل.

وهذا رجل حدث عنه رسول الله-ﷺ- ورواه البخارى وجد كلباً على عطش فسقاه، فرحمه الله وغفر له، وثالث رفع شوكة من طريق، قال: تؤذى الناس، فنظر الله له، فرحمه رواه البخارى كذلك، وهذه أسماء لم تجد حبلاً تربط به زاد خير من تزود رسول الله-ﷺ- وأبيها فخلعت نطاقها وقدته نصفين، فربطت الزاد بنصفه وانتطقت بنصفه الآخر، فسماها-ﷺ- ذات النطاقين، وكم من أناس يعيشون ويموتون وليس لهم فى المجد من موقف!

كم من الناس مثل هذه الهرة المسكينة

دخلت النار بسبب موقف من مواقف الغباء، حيث جلست هرة (قطة) فلا هى أطعمتها إذ حبستها ولا هى أطلقت لها سراحها، فخرجت تطلب رزقها، وفى الأرض رزق كثير، هذا حديث البخارى الذى ينبه إلى مواقف الغباء، فما عسى أن تأكل القطة وما عسى أن تشرب شىء من بقاياها- أى المرأة- كان يكفيها وزيادة، وقطرات معدودة من الماء كانت ترويها، وتبقى على حياتها وتدخل صاحبتها فى رضوان الله.

قال الناس للنبى-ﷺ- أو إن لنا فى البهائم أجراً يا رسول الله! قال: "فى كل ذات كبد رطبة صدقة".

وكم فى الناس من أمم مثل هذه الهرة المسكينة، جلسوا على ذمة كفيل بإحدى الدول الآخذة بنظامه، فلا هو منحهم أجراً نظير عمل، ولا تركهم يعملون عند غيره، ولا أعطاهم جوازات سفرهم ليعودوا إلى أوطانهم.

وفى الجامعات يحصل عضو هيئة التدريس على عقد محترم بإحدى الدول، والعمل بقسمه يستقيم مع سفره ولا يتأثر به، فزملاؤه كثير لكن

تمنعه اللائحة الجامدة، أو القلوب التى لا ترحم، فهى أشد جموداً من اللوائح.

ولك أن تتصور هذا فى ظل ما تعانيه الأسر المسلمة فى البيوت المظلمة وإن كشفتها أنوار الكهرباء الساطعة، فهذا رجل كريم نبيل، وابن ناس، وذو مركز مرموق، يأبى أن يوصل امرأته بسيارته إلى عملها، ويأبى أن تشترى سيارة من حر مالها، وهى أستاذة فى قيادة السيارات تقودها منذ نعومة أظفارها، يتركها تركب المواصلات العامة، وتطحن داخلها، لا لشىء إلا هكذا، فما هكذا؟ وما فلسفتها؟ شىء فى الدماغ اسمه الغباء.

وهذا رجل يزداد عنه سوءاً وغباء، لا يحسن معاشرة زوجته، ولا يفارقها، فهى معلقة والله- عز وجل- يقول: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾. والهرة كانت معلقة، فلا هى آكلة فى محبسها ولا هى حرة طليقة، وقد دخلت المرأة بسببها النار، إن قيل له: أحسن معاشرتها قال: لا أطيق، فهى لا تعاشر، وإن قيل له: طلقها وخلى سبيلها قال: حين ترى حلمة أذنها، أى شىء يوصف به مثل هذا الرجل!

لا كلمة أبلغ من كلمة الغباء مع قبحها والاعتذار عن إطلاقها.

قال لى أحد طلاب الدراسات العليا إنه كتب بحثه للحصول على الدكتوراه وسلمه المشرف وهو أستاذ كبير، وظل يختلف إليه، أى يتردد عليه

- خيراً يا أستاذنا، لعل البحث أرضاك

فأجابه فى كل مرة: لم أقرأ بعد، وطال الزمن، وذات مرة قال له التلميذ فى أدب جم: إن الوقت يمر، وأنا تلميذك وفى مرتبة ولدك، فإن كنت مشغولاً- كان الله فى عونك فحولنى إلى مشرف آخر، واعتذر عن الإشراف وسأبقى مديناً لك بالفضل والتوجيه ما حييت.

وغضب الرجل وثار، وأرغى وأزبد، وقال: كنت سأقرأ لك، ولكن بعد هذا الكلام الذى يدل على سوء أدبك لن أقرأ، وأعلى ما فى خيلك اركبه وطرده من مكتبه، وهذا الطالب مثل الهرة مسكين فلا هو على ذمة أستاذ محترم يتقى الله فيه ويقرأ له ولا هو عند غيره من الذين ينجزون ولا يعطلون، فإن وصفت مثل هذا الأستاذ بالغباء لم يجانبك الصواب، وإن كان حاملاً للدكتوراه، وحاصلاً على أرقى درجة جامعية درجة الأستاذية، وما أشبه ذلك العالم بمن قال الله تعالى - فيهم: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**. أى أنه أستاذ إذا قرأت له، عرف كيف يعالج فكرته على الأوراق، ويدعمها بمصادر معتمدة، ويأتى بالجديد الذى رقاه، لكن قلبه غير معلق بذكر الله، فهو غبى، وإن كان حاصلاً على أعلى شهادة فى الدنيا وأرقى درجة فيها وكفاه هذا الحديث الذى رواه مسلم: "إن الله أقرب من أن يرعاك...".

كتم الخبر فحصد الشر

فى حديث عبقرى للنبى -ﷺ- رواه البخارى عن أبى بكرة، يقول سيدنا رسول الله -ﷺ- ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه".

ومعناه أن يبلغ المسلم ما سمعه إذ كان حاضراً من لم يحضر، لا لكى يؤدى أمانة التبليغ فحسب، وإنما لثمرة مرجوة هى أن يكون ذلك الذى أبلغه خيراً منه فهماً وإدراكاً، فيفهمه ما لا يفهمه، ويعمل به، على الوجه الصحيح أو الأصح، ويدعو غيره، فيتحقق الرخاء للفرد والأمة، هذا مراد النبى -ﷺ- وقس على ذلك من وصله خبر صحيح، فأبلغه الناس، فإذا فيهم من يفهم سراً فيه، لم يفهمه ذلك الذى وصله الخبر الصحيح والدليل على ذلك أن علماء الحديث اجتهدوا فى جمعه ودراسة رجاله، وسنده، ومتنه، وخرجوه من طرقه وعرفوا صحيحه وضعيفه، وموضوعه، ووضعوا لذلك مصطلحاتهم التى عرفت عنهم، وصار ذلك علماً.

وتلقى عنهم الفقهاء هذه الأحاديث فاستنبطوا منها الأحكام الشرعية، ومعنى هذا أن هناك تواصلاً بين العلماء، ولكل جهده الذى يذكر فيشكر، وقد قال الأئمة الأعلام من الفقهاء: إن صح الحديث فهو مذهبنا وقد ذكر العلماء أن من المحدثين الفحول من لا يحسن الفقه، ولا عيب فيه، فكفاه شرفاً ما بذل من تحقيق النص، وما قدمه للأمة من تراث المعصوم سيدنا محمد -ﷺ- والناس يتفاضلون ويتفاوتون، وهم فى نهاية الأمر يتكاملون.

انظر إلى أى صرح فى الأرض، تجد للعامل الأمى له فيه فضلاً كبيراً، إذ حفر، وحمل الأثقال، ولولاه ما أكمل المهندس العملاق عمله، وهكذا الحال الذى من أجله كان أبدع نظام فى الإسلام؛ لاستقامة الحياة، ألا وهو التشاور قال تعالى: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾**. وقال عز من قائل: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾**. وقد شاور النبى -ﷺ- أصحابه، وأخذ برأى أبى بكر فى أسارى بدر، وأخذ برأى الخباب بن المنذر، وسلمان الفارسى وغيرهم.

لكنك تجد طائفة من أهل الغباء يزعمون أن عقولهم هى أرجح عقول، وأن أحداً فى الدنيا لا يصل إلى مستوى ما وصلوا إليه من فكر راجح ورأى سديد وحولهم طائفة أخرى من المرتزقة يشجعونهم على هذا الغباء، يقول أحدهم: إن عمك الحاج لا يدرى أحد ما الذى فى رأسه، يسكت، ويسكت ويسكت ثم ينطق بما لا يخطر على بال أحد، رأسه كبير، ومخه تبارك الله، وعقله حدث ولا حرج، ينفخون فيه حتى يقع الوقعة التى لا يفيق منها، فمن أرجح عقلاً وأزكى فكراً من رسول الله -ﷺ- وقد نزل عليه الأمر من السماء بأن يشاور أصحابه، وقد فعل!

وفى قصة قديمة كنا ندرسها ونحن أطفال على لسان الحيوان تقول: إن الأفراخ من الطير حدثوا أمهم العجوز حين عادت أخر النهار بما قاله الفلاح لولده، حيث رأى أن يقطعا الشجرة التى فيها عشهم، فقالت لهم: ماذا قال له؟ قالوا: قال له: مر على عمك وأخبره أن يأتينا غداً لنقطع تلك الشجرة؛ فقالت لهم: اطمئنوا وناموا، واسكنوا فلن تقطع، فلما كان اليوم

التالى سألتهم عن الجديد فأخبروها بأن الولد قال لوالده: لقد اعتذر عمى، فقال له: اسأل خالك أن يأتينا غداً ليقطع معنا الشجرة، فقالت لهم كما قالت بالأمس، فلما كان اليوم الثالث أخبروها بأن الرجل عزم أن يقطعها هو وولده دون الاستعانة بأحد فقالت لهم: سوف تقطع غداً، هيا بنا، وارتحلوا، فلولا هذا الإخبار لما كان الفرار قبل فوات الأوان، وهذا شاب زعم أن إخباره أبويه بما قاله له والد عروسه سوف يسد أبواب الأمل فى زواجه، وأخفى عنه كثيراً مما قال كما أخفى عنه كثيراً مما يعرف عن أسرة خطيبته فحصد الشرر، حيث وقع على أوراق أوهمه والد العروس أنها حبر على الورق لكى تطمئن الفتاة إليه لأنها خدعت من خطيبين قبله وظهر بعد ذلك أن الأمر لم يكن حبراً على ورق، وإنما هو الطمع الذى جعل كل قلب فى أسرته يحترق، ولو شاور أهله لكان خيراً له، لكنه ركب رأسه، وما أكثر الذين يركبون رءوساً لا تتحمل أثقالهم!

حملته على الظلم فهى شريك

مذ تزوج عليها، والنار تحرق صدرها، كانت قبيل زواجها بالأخرى سيئة العشرة، وبعد أن هدأت النيران قليلاً أشعلت فى صدرها غيرها، فإذا بها نيران أخرى، وإن كانت كما يقولون: نيران رفيقة، لكنها فى الأول والآخر نيران، أحسنت عشرته، وأعادت إليه ودها القديم الذى كان قبل الزواج على العادة، وبعيده قبل أن تعود إلى ميراث ثقافتها من سوء العشرة التى تظنها الكثيرات نصراً مبيناً، وفوزاً عظيماً، وتمكنا فالزوج على ما عودته زوجته، ولما ضاق الرجل بها ذرعاً، وأبى سراحها من أجل أطفاله تزوج، وحدث ما حدث من ثورة، وبعد أن هدأت وبدأت النيران الجديدة تحش فى الزرع الجديد، وفى مياه المودة ظهرت عكارة النية وقالت له: طلقها، وعد إلينا، فنحن جماعة، وهى فرد، وسأل الرجل نفسه، فقال:

بأى ذنب أطلقها؟ وهى التى لم تفعل بى سوءاً لكنها أصرت، وما زال الرجل يفكر، والعجيب أنه سأل بعض شيوخ غير معترف بهم فأفتوه

بأن ما قالته زوجته الأولى صحيح، وقالوا له قاعدة لم يفهموها وهى ارتكاب أخف الضررين، فما الضرران؟ الحق أنه لا ضرر فقد جاء النبى-ﷺ- رجل على ذمته عشر نساء فقال له: أبق على أربع وطلق الست، ما قال له: طلق تسعاً وأبق على واحدة، فأى ضرر فى الجمع بين اثنتين، والعدل قائم. روى البخارى عن أبى هريرة-رضي الله عنه- عن النبى-ﷺ- قال: لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها، فإنما لها ما قدر لها".

فمن ظن أنه سوف يحصل على رزقه ورزق غيره فهو غبى، إنما يحصل كل حى على رزقه هو دون رزق غيره سواء أكان ذلك زوجة أم كان غير زوجة، وقول النبى-ﷺ-: "لا يحل" معناه يحرم، ارتكبت من تسأل زوجها أن يطلق أختها، وانظر إلى هذا التعبير الذى لم يقف عنده الناس ملياً، وهو "أختها" ما قال "ضرتها" ولا منافستها، ولا الأخرى، وإنما عبر بلفظة توحى بإمكانية الحياة فى ظلال الأخوة، تلك الأخوة التى من مقتضياتها حب الخير للأخ، ألا ترى إلى هذا التعبير نفسه الذى قال فيه-ﷺ-: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" فقال: حتى يحب لأخيه، فالمسلم إذا عد المسلم أخاه أحب له ما يحب لنفسه من خيرى الدنيا والآخرة.

وهذه الزوجة لو عدت زوجة زوجها التى يقال لها (ضرة): أختاً لها، لما سألت زوجها أن يطلقها؟ لأنها لا تحب لأختها الشقيقة أن يطلقها زوجها المهندس أو الطبيب أو المسافر إلى إحدى الدول العربية الشقيقة وإذا سمعت بأن أختها على وشك الطلاق حزنت وقالت: الشر بعيد يا رب!

وهذا التعبير مهم جداً فى فقه الأساليب، وقد عالج به النبى-ﷺ- تلك القضية، فعبر بالأخت بعد أن قال: "لا يحل" وهو تعبير يمهد للنفس المقبلة على السوء حتى ترتدع، ثم قال-ﷺ- لتستفرغ صحفتها وهو من البيان بمكان، فإن الصحفة معروفة، وهى الأنية التى يوضع فيها الطعام، والمراد كى تتفرغ لها حياة زوجها وحدها دون شريك، لكنه عبر بالصحفة إشعاراً بأن هذا السؤال من باب الدناءة التى تشمئز منها النفوس السوية، كما قال العلماء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. ذكر البطون لكى يشمئز آكل مال اليتيم ظلماً، فلا أحد يحب ذكر البطن، هناك فرق بين أن تقول (مال قد أكلته) و(مالى قد أكلته فى بطنك) فالثانى يدل على الاتهام بالبشاعة ويثير الاشمئزاز، ثم قال-ﷺ-: "فإن لها ما قدر لها" ليدل على أن هذه الزوجة لن تحصل على جديد من الخير لو طلق زوجها أختها، وهذا السؤال قد يكون من الثانية تسأل زوجها أن يطلق الأولى سواء أكان ذلك قبل زواجها به أم بعده، إن الزوج ليس وجبة طعام تشترك فيها زوجتان، فإن طلق واحدة شبعت الأخرى وفى الحياة متسع لهما، لكنه الغباء وميراث الثقافة الفاسدة.

الدخول على الأهل بإعلام لا ينافى الحق

صحيح من حقه أن يأتى بيته دون حرج فى أى وقت، ولكن إذا أعلم أهله بأنه فى الطريق حتى يستعدوا للقائه فأية مشكلة فى ذلك؟ خصوصاً أن هذا من توجيه الدين، روى البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبدالله قال: إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة.

لكن يلتزم بذلك من عرف أن للحق وسيلة يتوصل بها إليه، والدليل على ذلك أن للمسكين حقاً فى مال الغنى، لكن لا يتوصل إليه عنوة، ولا يقتحم بيت الغنى ليأخذ حقه، وإنما يسأله إن كان لا بد سائلاً، أو يأتيه الغنى به.

وكذلك للمرء حق فى بيته، لكن أحداً لم يقل إنه يأتيه من ظهره أو من نافذته، وقد قال الله- عز وجل: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. وكذلك الحال هنا، وجه النبى-ﷺ- القادم على أهله ليلاً ألا يدخل عليهم فجأة دون تمهيد وإعلام، وسبب ذلك أن يعطيهم فرصة لكى يستعدوا للقائه.

وما أكثر الوسائل التى توفرت لمن أراد أن يتصل بأهله، ومنها المحمول، الذى يصحب حامله فى كل مكان، ولا يفارق يده، يستعمله الناس فى كل فن إلا فى الخير، ومن هذا الخير أن يخبر أهله بأنه فى

الطريق. فتمتشط الشعثة، المتفرقة الشعر، التى لو رآها زوجها لقال: ما هذه زوجتى، هذا غول، أو وحش، فما الذى يجعله يباغتها فجأة، كأنه مسئول كبير يود أن يفاجئ من تحته ليرى من هو معتكف على عمله ومن هو هارب، ولا شك أن الموظفين ولو بدوا فى هيئة الأشعث الأغبر لكانوا فى قمة الجمال، لأن هيئة فى حال تختلف عنها فى حال أخرى، فعمال الفحم والمناجم والميكانيكا فى قمة الجمال وهم على تلك الهيئة بينما لا تحب أن تراهم على تلك الهيئة فى المساجد أو فى المناسبات التى يجتمع فيها الناس خارج نطاق العمل.

وكذلك تختلف الأحوال باختلاف الأعمار فإنك لا ترى شيئاً من جمال فى رجل يدخل عليك وفى فمه مصاصة، بينما لو دخل عليك طفل بدونها لزعمته مريضاً، وهناك المغيبة التى لم تستحد، يعطيها الاتصال والتمهيد والإعلام فرصة لكى تستعمل خصال الفطرة، وتنظف نفسها وتتخلص مما يمكن أن يسبب رائحة كريهة، كل ذلك وارد ولكن ما تقول فيمن يزعم أنه حمل مفاجأة إذ دق الباب، ووضع كفه على فتحة العين السحرية حتى لا تراه زوجته، ويكون سعيداً إذا قالت: من؟ ويكون أسعد عندما لا يرد، ويزداد سعادة إذا اكتشفت الأمر، وعلمت أن من بالباب قد وضع يده فوق فتحة العين السحرية، فقالت: أتضع يدك فوق فتحة العين السحرية والله لن أفتح، إذاً هى الشريفة العفيفة التى لا تفتح لأحد لا تعرفه، فبيته بذلك مصون كريم، ولكن إذا نزع يده، ورأت جماله من العين السحرية هشت وبشت، وربما أغمى عليها من شدة الفرح، يدخل فيراها منتكشة ذات رائحة كريهة، ربما كان هذا لا يعنيه، لأن هناك من دأب على مشاهدة القبح، واعتاده حتى رآه حسناً أو قطعة من الجمال، وهناك من يتغير مزاجه إذا رأى فى البيت شيئاً غير مرتب.

وقد زار سلمان الفارسى أخاه أبا الدرداء- رضى الله عنهما- فوجد امرأته فى حالة مبتذلة، فسألها عن سبب ذلك، فقالت: أخوك أبوالدرداء لا حاجة له فى الدنيا، فلما دخل ناوله أبوالدرداء طعاماً، فقال له: اجلس وكل معى، قال: إنى اليوم صائم، قال: لن آكل حتى تأكل معى، فقعد وأكل معه،

فلما جاء الليل قام أبوالدرداء ليصلى فقال له سلمان: نم يا أبا الدرداء، فنام، فلما كان الثلث الأخير من الليل قاما معاً. وقال له: إن لبدنك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لربك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه، وحكى أبوالدرداء ذلك للنبى -ﷺ- فقال: صدق سلمان، ومن الحق أن يمهد الرجل لنفسه فلا يفاجئ أهله، لأن المفاجأة نتائجها ليست طيبة.

المن والأذى من الغباء

طبعاً يؤدى إلى النار هذا الغباء الذى بسببه بطلت الصدقات لأن الصدقة تنجى من النار، فإذا بطلت، وصارت جثة هامدة كجهاز الهاتف الذى لا حرارة فيه فماذا بقى لصاحبها الذى ما نال منها غير الخسارة المادية!

وبعض الناس يزعمون أنهم إذا خسروا خسارة مادية عظيمة فإن ذلك لا يعنى شيئاً بالنسبة إلى ما حققوه من نصر معنوى، وهذا أيضاً دليل غباء أخر الأمة عن ركب التقدم، وضيع عليها حظها فى السبق، ففى الوقت الذى تنفق فيه الدول المليارات على البحث العلمى والتعليم تنفق فيه الأمة المليارات وزيادة فى شفاء هذا الغليل الذى لا عبرة به ولا بصاحبه، غليل من يتوهم أن روحه على ظمأ للانتقام، ورد السوء بالسوء، وغليل من يتوهم أن كرامته قد جرحت بسبب كلمة قالها إنسان غير ذى وزن، ولا بد أن يثأر لهذه الكرامة حتى لا يدخل فى سجل التاريخ مجروح الكرامة، أى تاريخ، وأية كرامة، تاريخ الوهم وكرامة المتخلفين، وهل للمتخلف من كرامة!، لو كانت له كرامة ما تخلف وهو يملك أسباب التقدم، إنه الشيطان كما قال الله- عز وجل- يوحى إلى أوليائه كى يجادلوا بالباطل.

ومن هذا القبيل من المتصدق وأزاه من تصدق عليه من المساكين والفقراء، عورة نفس يكشفها أمام من لا عقل له، ومن له عقل، وعورة النفس أشد حاجة إلى الستر من عورة البدن. وذلك عند الذين يدركون

المعانى، ترى الرجل يكشف عن سوأة خسته ولا يبالى حين يسقط وابلاً على مسكين من الكلم الخبيث قائلاً له:

لحم كتفيك وأكتاف أمك وأبيك من خيرى، هل نسيت فضلنا عليك؟ هل نسيت أن كفن أبيك خرج من بيتنا ما عسى أن يبقى فى هذا المسكين وميته الغالى قد تراءى أمام عينيه عارياً، فى حاجة إلى كفن، ولا كفن إلا عند هذا الذى ظنه حج بيت الله الحرام، وزار مسجد النبى-ﷺ- وصلى المسجد الأقصى بأية تأشيرة، وساعتها دافع عنه هذا المسكين وقال العبرة بالمقاصد، والرجل الطيب لا تعنيه السياسة، كان مشتاقاً إلى أولى القبلتين ومسرى النبى الأمين، وثالث الحرمين، فلم يلومه الناس، أما وقد عيره وأذاه فى والده الميت فإنه مجرم حرب، ومجنون سياسة بل إنه ربما يكون من الصهاينة من بنى إسرائيل؛ فإن مسلماً ولو عاصياً ما كان ليخرج الموتى من قبورهم، تراءت له صورة أبيه الميت، وود أن لو دفنه بلا كفن، أو دفنه بثوبه البالى، وكما عيره بأبيه عيره كذلك بأمه، والحديث عن الأمهات بخير قد يسيئ فما بالنا بالحديث عنهن بأبشع ما يطلقه مثل هذا الغبى من صفات، منها العرى والتمزق والخدمة، والتوسل، وأنها كانت تأتى هنا، وتتوسل وتدعو، وترجو، وما فى بطنها لقمة من رغيف يابس، وما على جسدها من ملابس داخلية، فإذا سألت نفسك: ما سبب هذا كله؟

فالجواب: سوأة نفس انكشفت، وآية غباء قد تجلت فما هذه الكلمة التى قالها المسكين تكون سبباً لهذه الرعونة وهذا التوحش، وقد دعا الله- عز وجل- عباده القادرين إلى الإنفاق على المساكين ابتغاء وجهه الكريم، قال لهم **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**. تأمل قوله- عز وجل-: "ويأخذ الصدقات" أى اصرف نظرك عن هذه اليد التى إليك تمتد لتأخذ شيئاً، وانظر إلى يد من خلقك ورزقك، إنها التى تأخذ منك، وارجع إلى ما قالته أمك وأنت طفل صغير، حين أبيت أن تعطى أباك قطعة تافهة من الحلوى التى اشتراها لك، أما قالت لك أمك.

– أعط أباك، عيب يا ولد، أليس هو الذى اشتراها لك عندئذ أعطيت وأنت على حذر من فطرتك أن يغضب أبوك فلا يشترى لك غيرها، فى المستقبل القريب جداً، حيث إنك تود جديداً منها فى كل ساعة، ولله المثل الأعلى، وقد أعطى بلا حد، وأنعم بلا حصر، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة فأنت تعطى من من عليك وأعطاك من ماله لا من مالك ولو تفكرت فى هذا المعنى القرآنى لما وجدت غضاضة فى أن تعطى مسكيناً أساء إليك؛ لأنك فى الحقيقة لا تعطيه وإنما تعطى ربك الذى يأخذ الصدقات، وأنت فى الحقيقة لا تعطى ربك وإنما تعطى نفسك: **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾**. غبى ذلك الذى يؤذى من تصدق عليه فيضيع بذلك ثواب صدقته.

إثارة النفوس ضرب من الغباء

فى مفترق العمر، وفى العاشرة الأولى، حيث بدأ يشعر برائحة الرجولة وما زال فى قلبه دبيب الطفولة عنفه أبوه، لم يعنفه مرة أو مرتين وإنما ليل نهار، صرت طويلاً، صرت أطول منى، ما عندك دم، شاربك من الآن قد خط فى وجهك، أنا أطعمك، أنا أكسوك أنا أشترى لك الغالى، ولنفسى الرخيص، أنا لا أحرمك شيئاً، لم فعلت هذا، أليست فيك نخوة؟ أنت مثل أمك.

تماماً كهذا الرجل الذى جلد ولده، وفى كل جلدة يذكر له ما كان من جده فى معاقبته، مثل هذا الأسلوب فى تربية الأولاد ضرب من ضروب الغباء الموروث، ولعلى فى ضوء قول الله – عز وجل–: **﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾**. أقول: أهذه تربية؟، إنها نقص، والنقص يقابل التربية؛ لأنها من ربا: يربو، أى زاد يزيد يزيد بدن الصبى والصبية بالطعام والشراب والدواء، ويزيد عقله بالعلم والتعليم، ويزيد وجدانه بالعطف والحنان. والرعاية والحنو، والرحمة، مثل هذا العبث ومنه هذه ذقنى إن أفلحت، وتعال لو مت وأنت ألفحت وافعل كذا وكذا على مقبرتى، أنت أخيب ولد، وأنت أشقى بنت، الأولاد، والذين يريدون الأولاد، والله

لولا الله الذى خلق الناس وهو ربهم وإلههم، لولا أن قدر سبحانه وتعالى عمراً مسمى لكل نفس لمات هؤلاء المعذبون بسبب هذه الكلمات الدالة على غباء من رزق الولد، فلم يعرف أنه نعمة يجب أن يشكر الله عليها وأن يصونها، وأن يصبر على تربيتها، وأن يزرع فيها معنى الأمن والاطمئنان لوجوده، وهذا الغباء يؤدى إلى النار؛ لأن الغبى بسبب الضرب الشديد قد يقتل ولده، ولأنه قد يكون سبباً فى أن يخزن ولده ذلك الغباء حتى إذا ما اشتد ساعده بدأ ينتقم، فيضرب أباه، كما عجنه وطحنه، أو كما كان يضرب أمه هكذا يقول علماء النفس والاجتماع، وقد يفر الولد المنبوذ، ويصبح من أطفال الشوارع، وعما قليل يصير مجرماً يهدد الآمنين ويسرق المساكين، ويفعل الأفاعيل، والسبب هو غباء أبيه الذى لقنه الأبوة درساً من العنف، وأطعمه طعامه مغموساً بالسم، وسقاه الويلات.

وفى هذا السياق وعلى هذا المنوال المفترض فى هذا الحديث لو تأملنا لرأينا عجباً، روى البخارى فى أول حديث له فى جامعه الصحيح عن عمر –رضي الله عنه– قول النبى –ﷺ– إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هجر إليه، قال العلماء: إن هذا الحديث له قصة، وقصته أن رجلاً كان يحب امرأة فى مكة تسمى أم القيس، وكان يريد أن يتزوجها، فهاجرت المرأة من مكة إلى المدينة، فلما علم بأنها هاجرت هاجر وراءها يعنى أنه بحسب الظاهر من المهاجرين الذين كانت هجرتهم لله ورسوله، أخرجوا من ديارهم وأموالهم حتى يعبدوا الله بعيداً عن أذى المشركين. فلما دخل المسجد، وليس كل داخل المسجد يبتغى الله ورسوله وعرفه –ﷺ– بنور النبوة، فقال هذا الحديث الشريف الذى قال فيه العلماء: إنه يشمل ثلاثة أرباع الفقه، ولكن لو تفكرنا على هذا المنوال، أن الحوار والعياذ بالله كان هكذا:

– أهلاً وسهلاً بمن هاجروا، هل تزعمون أنكم جميعاً هاجرتم لله ورسوله، إن فيكم رجلاً هو فلان، ذلك القابع القاعد إلى جوار فلان، نعم

نعم، الذى على يمينه يا رجل، ياطويل، يا عريض، أليس عيباً عليك أن تكون هكذا كالجبل، وتهاجر من مكة إلى المدينة وراء امرأة امرأة.. أما كان من الأولى أن تهاجر لله ورسوله، الله الذى خلقك وسواك وعدلك، وفى أى صورة ما شاء ركبك، ورزقك، وأطعمك وسقاك، وأسبغ عليك من نعمه ظاهرة وباطنة، ألا تهاجر من أجله، ورسول الله إليك الذى عرفت صدقه وأمانته ووقاره، وقد بعث إليك، يدعوك إلى خيرى الدنيا والآخرة، وما يسألك على ذلك من أجر، إن أجره إلا على الله، ألا تهاجر من أجل إتباعه، ليخرجك من الظلمات إلى النور لو أن هذا الحوار كان على هذا المنوال الذى يكون فى حياتنا كل يوم ما عسى أن يفعل فى الرجل، وما عسى أن يفعل فيمن حوله من الناس، هل كان ذلك كفيلا بأن يثيرهم فيقوموا فوق رأسه بالنعال! ما بهذا بعث محمد -ﷺ- وهو بالمؤمنين رءوف رحيم!

يا شعيب لا نفقه كثيراً مما تقول

حين تعيد النظر فيما تقرأ يتبين لك من العلم ما لم تقف عليه أول مرة، ومن تلك النظرة أن تقول: سبحان الله العظيم وصدق حيث قال فى الأغبياء فى سورة الروم: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**.

وتجد تطبيقاً عملياً لهذه الآية فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز ففى سورة هود، حوار بين شعيب -عليه السلام-، وبين قومه، قال لهم -عليه السلام- كما قال الله تعالى: **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾**.

ورد عليه قومه، فقالوا: **﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾**. إلى أن قال

لهم -عليه السلام-: **﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾**. فماذا قال قومه؟

قال الله -تعالى-: **﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾**.

فما الذى قاله شعيب مما لا يفقه، إنه يقول استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود. هذا هو الذى لم يفقهه قومه، وهو -مع الأسف- الذى لم يفقهه كثير من الناس، يفقهون فى الأموال، وقد ردوا عليه قائلين: كيف تأمرنا أن نفعل فى أموالنا ما تقول، نحن أدرى الناس بمنافعنا، إن تجارتنا تبور إذا وفينا، فكن حليماً رشيداً علينا.

منتهى الفقه الظاهرى، عشرة فوق خمسة، ومائة أكثر من ثلاثين، بغض النظر عن خبث المائة وطهارة الثلاثين نحن أدرى بأموالنا، نفقه الغش والزور، والتزوير، لكن ما معنى قولك "استغفروا ربكم" لا نفقه ذلك، هذا من باب الكيمياء العويصة واللوغاريتمات الشائكة المتفرعة الجداول واللغات الأجنبية التى ليست من لساننا، ولم ندرج عليها يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ومن هذا الظاهر الذى علموه أن لشعيب رهطاً، أى جماعة، هي ملء السمع والبصر ولولا رهط شعيب لرجموه، ولهذا قال -عليه السلام- **﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾**.

نعم عند الأغبياء: رهط شعيب أعز عليهم من الله وجماعة فلان يأكلون الزلط، ولفلان أخ ضابط كبير لو أغضبته لرمى بك فى داهية... ومعذرة يا سيدى من لم يعرفك جهلك.. إذا علموا أنه ذو شأن.

كثير من الأغبياء يعفر وجهه اعتذاراً للناس ولا يضع جبينه على الأرض اعتذاراً لله الذى أنعم عليه وعصاه.

وصدق الله العلي العظيم حيث يقول: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾**، وحيث يقول: **﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾**.

إنها سوأة النفوس التى انكشفت عن غبائها تعرفها حيناً بسلوكها وتعرفها كثيراً بلسانها وهمزها ولمزها، وفحش ألفاظها وتراكيبها، منهم من يجيد النظم فى الأمراء والمدراء والخفراء فإذا ذكر الله بحث فى أى طريق، وسأل كل من هب ودب فقال: علمنى دعاء، وماذا أقول: يا رب، أم اللهم، وانتظر، انتظر حتى أكتب وراءك، أين القلم؟ أين الورقة؟ ماذا؟ وكيف تكتب؟ أهى سين أم ثاء، بينما يتصل به أحد الممدوحين، فيقول له: اكتب هذا الرقم عندك، فيرد عليه قائلاً: أحفظه يا باشا وراءك، معقول أن تقول شيئاً ينسى، إنك تملى على القلب؛ لأنك ساكن القلب، تفضل، أمك على، آسف، على قلبى، فإن ضلوعى أقلام وقلبى صفحة، ودمائى مداد، كلمات تدل على سوأة النفس التى استترت بلباس البلاغة مع الناس، وكشفت عن غبائها مع الله خالقها ورازقها، ومالك أمرها وأمر كل شىء، وبيده الملك، والأمر كله، سبحان الله أى غباء هذا، إن العزاء الحقيقى يتمثل فى قول الله ربنا- **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**. وما أكثر هؤلاء فى كل زمان، وقد صاروا أكثر فى زماننا.

يجيد كل شىء إلا ما ينفع

من آيات الغباء التى اكتنفتها الآية (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) أن ترى المرء يجيد كل شىء إلا ما ينفعه أولاً قبل غيره، يضر نفسه من حيث يظن أنه نافعها، ويقتل نفسه من حيث يظن أنه محييها، قالت فتاة شابة حاملة ورقة جامعية:

إننى أحب شخصاً، وأموت فيه

قيل لها: وهل يحبك هو أيضاً

قالت بالنص: لا أعرف، يبدو هذا، أشعر أنه يحبنى أكثر مما أحبه.. أحياناً أشعر بذلك، وأحياناً أشعر بأنه لا يكره فى الأرض أحداً كما يكرهنى... وضحكت، ثم بكت، ثم ضحكت وقالت: لا أدرى.. لا أدرى، المهم أنى أحبه وكفى.

- هل طلب أن يتزوجك؟

قالت: أى زواج، أنا لا أفكر فى الزواج، ولا هو أيضاً يفكر فيه.. ثم إنه لو طلب أن يتزوجنى لرفضت.

- لا إله إلا الله، أى كلام هذا؟ ألم تقولى بأنك ميتة فى حبه! فماذا بعد هذا الحب؟

- لا شىء.. لا شىء، لو كنت أرغب فى زواجه ما أحببته أنا أحبه الحب للحب فقط.

مريضة غبية فى زمان شاع فيه الغباء وتفشت فيه الأمراض، تذكرنى كلمتها الأخيرة بما عرف فى الأدب بمدرسة الفن للفن، أى التى لا صلة لها بمعيار دينى ولا خلقى، نزعات وفلسفات، إن سألت عن شىء نافع أجابك أهلوها بحقيقة أنهم لا يدرون، يقولونها مرة صريحة ومرات عديدة بالتضمين، فهم يكثرون الكلام فى كل شىء إلا فيما ينفع الناس، وما أكثر الأخبار التى لم يصل كاتبوها وناقلوها إلى مستوى الهدهد، ذلك الطائر الذى مكث غير بعيد وجاء من سبأ بنبأ يقين، نقل خبر المرأة التى وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وقال: **﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾**.

راعه أن يسجد أحد لغير الله، فنقل الخبر، وكان العزم على التحقيق من سليمان-عليه السلام- **﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾**. ومقتضى السياق أن يقول: أصدقت أم كذبت، لكنه العدول من مقتضى اللفظ إلى مقتضى المعنى؛ لأن (أم كنت من الكاذبين) أخف، فى الاتهام من إسناد الكذب المتوقع إليه، وكان ماكان من القصة حتى جاءت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

ونحن ننقل كل يوم أخباراً نسود به صفحات الجرائد، ونملأ بها أوقات الناس، وضررها أكثر من نفعها قرأت اليوم فى الأهرام الاثنين ٢٠١٠/٥/٣ فى صفحتها الثانية أن زوجة الرئيس الأمريكى باراك أوباما تعيش أوقاتاً عصيبة بسبب إشاعة خيانة زوجها الرئيس مع مساعدته وأن مبلغاً رصد لهذا الغرض قدره مليون دولار، فأى هدف من وراء هذا

الخبر؟ هل يسعد الملايين من سكان القبور والمناطق العشوائية؟ هل يدخل السعادة على قلوب الثكلى والمجروحين؟ أم على أهل الترف والأموال التى ينفقونها على القمار والدجل والغوانى: جمع غانية، ونحن قد نقلنا عن الغرب أسوأ ما فيه من مجون وخمور، وعرى، وما يسمى فناً، وحين وقفنا على حضارته قلنا: لنا الفضل عليه، فقد أخذ عن أجدادنا العلماء يرحمهم الله، وحين توصل الغرب إلى شبكة اتصالات دخل بيوتنا منها مواقع الإباحة ومشاهد الجنس، والشات وصرنا نرى عدداً لا بأس به من المسلمين يعتكفون على تلك المواقع ويهجرون نساءهم، ويخاطبون رجالاً يظنونهم نساء، واتصل بى من لا أحصى عددهم من الشباب والكبار يسألون عن حكم الشرع فى الزواج عن طريق النت، فأجبتهم الزواج زواج ولا يعنى الطريق إلا وسيلة لعقد صحيح، ولكن من يتزوج ابنه عمك وابنة خالتك وجارتك المطحونة التى تصبر عليك وتواسيك، وقد تعودت طعامك الذى تلتهم وشرابك الذى تشرب، والحى الذى تسكن فيه، يقول الغبى التارك للخيرات والقطوف الدانية: إن المرأة المصرية عاشقة نكد، ولا تسعد زوجها، إنها زوجة الخلع ومحاكم الأسرة، وهذه الإيطالية أو الفرنسية تقدس الرجل، وعلى فكرة هى أصلها عربى، جدها من المغرب، وأمها من تونس، وبها عرق مصرى، أو تترك بنياناً مصرياً متكاملاً وتبحث عمن فيها عرق منه، وأى تقديس لتلك المرأة للرجل وأنت غير مقدس، فأنت بشر ممن خلق الله، أما كان أولى أن تعتكف على كتاب تطالع فيه على شاشة النت بدل أن تجرى هنا وهناك بحثاً عن وهم، فالأول نافع والثانى ضار، والغبى يجيد كل شىء إلا ما ينفع.

ويل للمطففين

السوى من الناس من أحب أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، وهو يحب أن يعاملوه بإنصاف، وبرحمة، وبتسامح إذا احتاج أعانوه، وإن تعثر يقيلوه وينعشوه، وإن أخطأ ستروا عليه، ووجهوه، ونصحوا له سراً لا جهراً، وهو يحفظ أن النصيحة على الملأ فضيحة، وأن جرح اللسان اشد من وقع السيوف والسياط، هو دائماً يفكر، ويضع نفسه موضع

الناس، يقول: لو كنت أنا السائل لأحببت العطاء، فلا بد أن أعطى، ولو كنت أنا المخطئ لأحببت من يترفق بى فلأترفق بالمخطئ، ولطالما وجه الناس إلى أصحاب الفحش هذه الكلمات: لو كانت هذه أختك أو بنت حارتك أو تحب أن يفعل بها أحد ما فعلت، والشيطان يملى أرباب الفواحش قبل أن ينزل عليهم الحياء، فهم يقولون بوحى إبليس:

- إن أختى مؤدبة، وابنة حارتى أستاذة فى الأدب لا تفعل مثل هذه أبداً يا هذا، افتح عينك وانظر من ترى، ومن تكلم.

أما الغبى من الناس فلا يضع هذا المعيار نصب عينيه؛ لأنه غير منشغل به، إنه يحب أن يعامل الناس وفق هواه ومصلحته، ولا يحب أن يعاملوه إلا بالعدل والإنصاف، والرحمة والتسامح، ومن هؤلاء من حدثنا القرآن الكريم عنهم، وسمى سورة باسمهم هى سورة المطففين، وأولها ذكر هذا المصير، الويل للأغبياء، إنه الغباء الذى يدخل صاحبه النار، ويزج به فى ويل جهنم عصارة أهل النار، من صديد يغلى، وقيح مستعر، وماء مستقذر يقول الله- عز وجل-: **﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾**.

هذا حكم، وذكر من يشمله، وتفصيل معناهم وما يعملون أما الحكم فالويل والعذاب الأليم، وأما مستحقه فهم المطففون وأما تفصيل معناهم وما يعملون فهم الذين يستوفون حقوقهم ويبخسون الناس أشياءهم. ترى الواحد من هؤلاء المطففين كما يقول الناس يقلع عين البائع إذا اشترى منه شيئاً، يقول: زدنى زدنى، ميزانك غير راجح، وكيلك معيب، وهذا ناقص، ولن آخذه بهذا الثمن، ولن أدفع فيه ما طلبت، وسوف أزن بعد وزنك، وإن كان هذا الشىء ناقصاً خربت بيتك، وأبلغت عنك التموين والبلدية، وقبلهما أخذت منك حقى بذراعى، وجعلت ليلك نهارك، وحملتك على أن تلعن اليوم الذى فتحت فيه دكانك، ونحو هذا.

وإذا باع هو شيئاً نقصه، وزناً إن كان من الموزون وكيلاً إن كان مما يكال، يرضى بالوفاء إذا اشترى ويرضى بالخسران إذا باع، وإذا

عاتبه أحد من المبصرين أملى عليه إبليس ما يمليه على أتباعه، فيقول: هذا هو الواجب، لأ أحد يستطيع أن يضحك على، هذه مهارة، وهكذا ينبغى أن تكون التجارة، فالتاجر الماهر هو الذى يضحك على كل الناس، ولا أحد من الناس يستطيع أن يضحك عليه، ويذكر كل شىء إلا قول رسول الله-ﷺ- التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة.

وإن ذكره أحد به أملى عليه الشيطان؛ فقال: هذا كان أيام رسول الله- عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- حين كان الناس يعرفون ربهم، وكانوا صادقين أوفياء، ولم يكونوا مثلنا، إننى أستوفى لأن البائع حرامى، وأنقصه حقه لأن ميزانى حساس، وأنا رجل أمين، لا أغش فى الميزان، وإنما أنقص منه، لأننى لو وفيته لخسرت، حيث إننى سأرفع السعر، والناس لا يحبون رفع الأسعار، لذلك أنقص الميزان وأرخص عليهم، هم الذين يريدون ذلك، هذه رغبتهم وما يشتهون، فماذا أفعل... أيام يعلم بها ربنا! فلسفة كاذبة، وحكمة غير بالغة إلا من قال له صدقت جنباً، أو كان على شاكلته.

أى ربح هذا الشىء الطفيف الذى إن بلغ ما بلغ فلن يغنى عن صاحبه يوماً من العذاب فى جهنم وينقذه من لظى النار، ومسيل الويل! إنه لو جمع الدنيا بما فيها ومثلها معها ليفتدى به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، فلم المسارعة فى جمع ما لا ينفع شيئاً ولا يغنى إنه الغباء الذى هو سبب فى هذا المصير الأليم الذى ينتظر المطففين وغيرهم من الذين يحبون العاجلة ويذرون الآخرة.

ويل لكل همزة لمزة

عورات النفوس أشد سوأة من عورات الأجساد، إذ إنها تكشف عن بشاعة مستهجنة، وفظاعة غير محتملة، ومفاجأة غير سارة على الإطلاق، وسترها عسير بخلاف عورات الأجساد التى تسفر حيناً عن دمامة وتسفر حيناً آخر عن جمال، وتسفر عما هو غير متوقع حيناً، وعما هو متوقع حيناً آخر، وعما هو فوق المتوقع حيناً ثالثاً، ومن

اليسير سترها، مؤونة وسرعة، فالرجل يستر سوأة جسده فى لحظات معدودة، لكن ربما لا تكفيه السنوات الطويلة كى يستر سوأة نفسه، وهناك فرق جد خطير بين سوأة النفس وسوأة البدن، هو أن سوأة البدن واضحة المعالم والحدود، لكن سوأة النفس صحراء شاسعة، كل ما فيها مخيف، ليلها متاهة ونهارها سراب، فيا طول ما يلقاه السارى فيها من عذاب، ومن سوأة النفس الغباء الذى يذهب بصاحبه إلى النار، حيث تراه همازاً بلسانه، لمازاً بملامح وجهه من عينيه وحاجبيه وشفتيه قال الله- عز وجل-: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾. والتعبير بهذين البناءين (همزة لمزة) على وزن فعلة بضم وفتحتين دليل على المبالغة، والمبالغة واديها الكثرة، فكأن هذا الهمز وذاك اللمز من خلقه وطبعه، من يهمز ويلمز؟ يقول الله- جل شأنه-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾. إن الأغبياء يضحكون إذا مر بهم العلماء، وفى زماننا إذا شاهدوهم على شاشات التليفزيون، يسخرون منهم، وأحياناً يقول بعضهم لبعض: حول حول، كفانا نكداً، ابحث لنا عن شىء يفرج عنا.

وقد صدقوا فإن هؤلاء لا يفرج العلم عنهم شيئاً لأن ما فى نفوسهم ظلمات راسخة غير عابدة، مستقرة غير مسافرة، إنما يفرج العلم عمن كان فى نفسه شىء من الظلمات التى تتردد بين الإقامة والرحيل، وهى إلى الرحيل أقرب. تماماً كما حدثنا رسول الله-ﷺ- عن إسلام أبى بكر الصديق-رضي الله عنه- ما كانت له كبوة حين دعاه إلى الله وماعكم وما انتظر، وإنما قال صدقت، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: لقد دعوت الناس إلى الإسلام فقالوا: كذبت وقال أبوبكر صدقت، رواه البخارى.

كأن أبابكر-رضي الله عنه- كان على انتظار لتلك الدعوة المباركة، فما أن سمع حتى أسلم، والذين ماتوا وهم كافرون وقد دعاهم رسول الله-ﷺ- كما دعا أبابكر إنما حالت الظلمات الراسخة المستبدة دون إيمانهم، لقد

سمعوا مثل الذى سمع الصديق وزيادة، ولكنهم لم يؤمنوا فقد استحوذ عليهم الشيطان، وملكهم، وصاروا من جنوده وحزبه، وحزب الشيطان هم الخاسرون، لقد كشف الهمز واللمز عن غباء نفوس فبدت سوأتها قبيحة، فمن يسترها ومن يصونها؟ لا ثوب فى الدنيا يسترها طال أو قصر، غلا أو رخص، وإنما يسترها الإيمان، والإيمان منها بعيد، لأنها أبعدته، والله غنى عنها. وفى المسلمين تشبه بأخلاق الكاذبين فى هذا، وقد رأينا أمة من الناس، ربما همزت ولمزت قبل خروجها من المسجد بعد الصلاة فى جماعة، همزوا رجلاً تأخر فى ارتداء نعله، أو ضاع منه نعله، أو كان على هيئة غير الهيئة التى هم عليها، أو كان فلاحاً أو من الصعيد، وقد رأينا فى الأسرة الواحدة إخوة يهمزون أخاهم ويلمزونه، وربما حدث هذا من زوج لزوجة عاتبه إذ رآه على تلك الصورة السيئة، فقال بعينى شىء، أو فى فمى بعض طعام، وأقسم بالله كاذباً أنه لا يهمزه ولا يلمزه، وهذا من أثر التربية وما درج عليه الناس، والأطفال يحاكون الكبار، وكما قال تعالى: **﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**. أقول: إن الأطفال الذين يهمزون ويلمزون إنما يفعلون ذلك كما فعل الذين من قبلهم، فللحسن امتداد، وللسوء امتداد كذلك، والأب يعلم ولده أن يهمز أمه ويلمزها والأم تفعل كذلك حتى يدفعا بابن هماز لماز إلى أمة جريحة تتطلع إلى مثله يعيد لها مجدها، ويدفع لها راتبها، ويكمل على خير مسيرتها، فإذا بها تلقاه يحرك شفتيه لمزاً ويطلق لسانه غمزاً وهمزاً، لا يستطيع أن يقيم جملة على ركنين وهو أستاذ فى تحريك الشفتين والعينين يستعدى بها زملاءه، ويغيظ بها رفاقه، وينبت بها غباءه، وذلك الغباء الذى يقود أصحابه إلى النار.

الغيبة والنميمة غباء يدخل النار

من الكبائر ما يستحق به صاحبه النار وهو كما قال الله عز وجل **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾** أى كبيراً جداً، عبدوننا من دون الله وأوصى بعبادته غيره، وقالوا لا تذرن آلهتكم كما قال الله عز وجل – فى سورة نوح، أن امشوا واصبروا على آلهتكم كما قال الله تعالى فى سورة ص، أو قتل نفساً، أو قلع زرعاً أو سرق مالاً عظيماً، أو قال فى كتاب الله بعد أن فكر وقدر فقتل كيف قدر: إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر وقال الله – تعالى- فيه: سأصليه سقر وما أدراكم ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لوحة للبشر .

إن هؤلاء كما يقول أولاد البلد: أبطال، صحيح أن بطولتهم بطولة أبالسة وشياطين، وهم أغبياء بلا شك، لكنه الغباء الذى يجعلك تقف أمام جرائمهم وتقول: يا أولاد الذين ...

لكن ما تقول فى غباء المغتاب الذى يدخل النار بسبب كلام فارغ، لا يعد بطولة، ولا يشفى غليل نفس تواقة للشر، هناك بطولات فى الإسلام استحق أصحابها الجنة، أعلاها الشهادة، هذا الذى رمى تمرة من فمه، لم ينتظر حتى يبتلعها ونزل ساحة الإقدام والكر والفر وقاتل حتى قتل، هناك جعفر الطيار – رحمه الله – الذى حمل راية الإسلام بيمينه فلما قطعت يمينه رفعها بشماله، فلما قطعت شماله رفعها بعضديه، أى شجاعة هذه؟ وأى نبل، وأية قوة وبسالة فى هذا المشهد الباقى ما بقيت الحياة، يرسل النور ويبعث الأمل .

وهناك بطولة الصمت، الصمت عن الشر إن لم يستطع المسلم أن ينطق بالخير، جعلها النبى -ﷺ- صدقة، هناك الإنفاق فى سبيل الله، جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر، تتفاوت الأعمال التى يدخل أصحابها الجنة بتفاوت الأحوال والقدرات.

وكذلك تتفاوت الجرائم التى يدخل أصحابها النار، فهذه امرأة حكم النبى -ﷺ- بأنها فى النار ما قتلت نفساً، ولا جنيناً، ولا قلعت زرعاً، ولا أحرقت بيتاً بالنار، ولا زنت، ولا سرقت، وإنما كانت تؤذى جيرانها بلسانها، دخلت النار غبية، وما كان أهون عليها أن تمسك هذا اللسان، وأن تصونه، سئلت زينب بنت جحش كما سئل غيرها فى حادثة الإفك فقالت: "أصون لسانى" هكذا أعلنتها فأسمعت داعى الهوى فى صدرها قبل أن تسمع غيرها .

وسئل الشافعى - رحمه الله- عن الفتنة التى كانت بين الصحابة، فقال: عصم الله منها سيوفنا فلنعصم منها ألسنتنا، فحفظ اللسان سهل لمن وفقه الله -عز وجل، وأعمل عقله، وأدرك خطره وسوء مصيره إن هو أطلق للسانه العنان، فخاض فى كل ميدان والغيبة والنميمة من هذا الغباء الذى يكشف عن سوأة نفوس ليس فيها شىء من جمال، إذ أى جمال فى اغتياب الناس بما يكره ذلك المغتاب ولا يقوى على ذكره فى حضور من اغتابه، إنه ينتهز فرصة غيابه ليتكلم فيه بما ليس فيه، وكأنه يقول للحضور إنه أفضل من ذلك الغائب الذى صلاته كذا وعبادته كذا، وهو مراء، لا يتقى الله، وفيه من النقص ما يذرى بمثله، ويذكر تفاصيل تافهة حقيرة يشوه بها صورته.

وكذلك الذى يكلف نفسه عناء التجوال فى الشوارع مع أزمة المرور، وسوء المسير، لكى ينقل خبراً، وهو النمام حمال الحطب، الذى يوقع به بين الناس، ويفسد ما بينهم، لا أكل ولا شرب، ولا باع ولا اشترى، ولا تقدم خطوة على طريق المجد، وإنما باع الكلام فى سوق الرخص واشترى به غضب الله - عز وجل، فأى ذكاء فيه! وأى خير يرجى من سعيه، وأى توفيق حالفه، وقد فرق بين الرجل وزوجته، والوالد وولده، والبنت وأمها، يفرح فرحاً غامراً إذا سمع صوت الصراخ وهو على الدرج قبل أن يعود إلى بيته، ولو انشغل بحاله وإصلاح أمره لكان خيراً له علم الحسن البصرى أن رجلاً يعتزل الناس، ويعتزل مجلسه فذهب إليه وقال: لم تعتزل الناس؟ قال: لأمر شغلنى عن الناس قال، ولم

تعتزل مجلس الحسن؟ قال: لأمر شغلنى عن الحسن قال: ناشدتك بالله وما هذا الأمر؟ قال: وجدت نفسى كل يوم فى نعمة من الله وذنب منى، فانشغلت بشكر الله وإصلاح نفسى فقال له الحسن: أنت أفقه من الحسن البصرى.

الإصرار على ماله بديل غباء

غباء حتماً يؤدى إلى نار جهنم إن لم يغفر الله ويرحم، ذلك الغباء على إصرار على شىء معين، له بديل، وإنما أدى إلى الغباء الذى صار به الغبى من أهل النار؛ لأنه ارتكب جريمة شنعاء لولا غباؤه لما ارتكبها.

فهذا شاب خطب فتاة فلم يوافق أهلها، جرحوه أو أهانوه، أو بالذوق طردوه، المهم أنهم قالوا: لا، ماذا على صاحب العقل الرشيد أن يفعل فى تلك الحالة؟ يحاول مرة لا بأس، يحاول مرتين؟ لا بأس، فإن لم تنجح مساعيه خطب غيرها، ويدعو الله لها أن يرزقها رجلاً مسلماً عدلاً، وما زالت الدنيا جميلة، وقد قالت أم من أمهات الزمان الغابر لولدها الذى انفطر أو كاد إثر خطبة كهذه: اسمع يا ولدى، إن الذى خلقها خلق غيرها، وقد تقدمت، وما فيك من عيب يشينك وأهلها أحرار يزوجونها من يرضون، وكن على يقين أن هناك فتاة أخرى فى الغيب غير البعيد، ينتظرك أهلها بفارغ الصبر حتى تأتيهم، وسوف يفرحون بزيارتك وخطبتك، ويسعدون بمصاهرتك، ويرزقك الله -تعالى- منها الذرية الطيبة وكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً، وما مرت أيام حتى كان فى زيارة لصديق له، ورأى هنالك أخت زوجته، وكأنه حين رآها لم ير امرأة قبلها، وسأل عنها صديقه، وأخبره بأنها جامعية، تخرجت منذ شهور، وأن أهلها أنسابه أناس كرام، ما عذبوه حين ناسبوه، وأنه يعيش مع زوجته أسعد حياة، فصارحه برغبته فى الارتباط بها، وقد كان، شعر بأن أهلها يستقبلونه استقبال الفاتحين، وأنه لأول مرة يشعر بأنه ذو قيمة، لما رأى من حفاوتهم به وإكرامهم له، وكانت زيجة ناجحة موفقة، وظل يذكر كلمات أمه ويدعو لها بظهر الغيب .

لكن هذا المصر، ماذا فعل ؟

هناك من سرق الفتاة، وتزوجها بغير علم أهلها، وهذا زواج باطل، لقول النبى -ﷺ- أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل، ناهيك بأن من قصص هذا الزواج قصص أدت إلى مآس لايتسع المجال هنا لذكرها، حيث ذهبت حرارة الحب، وهدأت ثورة العاطفة وساءت الأحوال بينهما، وقد انعزلا عن الأهل، وتلاوما ولكن بعد أن وقعت الفأس فى الرأس.

وهناك من انتقم من أهل الفتاة، فمن الشباب من قتل أباها أو أمها، أو أخاها وهل للقتل جزاء إلا النار، فانظر إلى عاقبة الإصرار على شىء له بديل.

وقد قال الله – تبارك وتعالى– فى آية النساء **﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾** وتفسير هذه الآية فى ضوء عصرنا أن غير القادر على مهر بنت الباشا أو الوزير فليتزوج بنت الخفير أو المدير العام أو من هو تحته، مالها ابنة البواب؟ والعلة كما قال الله –عز وجل– **﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾**.

فلم الإصرار على العنت والبدائل موجودة بنص القرآن الكريم! وهذا فى المسلم الذى يريد أن يتزوج ليعف نفسه ويحفظ فرجه وناظريه، وتستقر نفسه، وتستقيم حياته، وفى حديث النبى -ﷺ- تنكح المرأة لأربع. لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين ما يدل على أن المسألة مسألة رغبة لا مسألة حب، فهذا الحب الموهوم هو سبب ما نعانيه من غباء، ولست أدرى كيف يكون الغبى حبيباً أو محبوباً؟ إنه وهم الحب، الذى ساد وانتشر من خلال الأغانى والأفلام والمسلسلات، فصار شيئاً جاوز الحد، وهو فى الحقيقة وهم، تعلمنا أن حب الله وهو رأس كل حب آيته اتباع رسوله قال الله – عز وجل–: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** فأى اتباع من المحبوبة للمحبوب، ولا معاشرة بينهما إنه إعجاب سرعان ما يتبدد عند أول مطب من مطبات الواقع، وكلها مطبات، ولكنها لذيذة لمن وفقه الله عز وجل!

إن الذى يطلب الزواج كالذى يطلب الطعام، والذكى إن لم يجد مايشتهيه أكل غيره، وإن كان دونه وإلا مات جوعاً، وكذلك من يظن نفسه فى قصة حب إن تزوج ليلى وهو قيس فبها ونعمت، وإلا تزوج غيرها لتستقيم حياته دون أن يقتل أحداً، أو يتزوجها عنوة، أو يبقى عمره على ذكراها وفى الطريق وقوع فى الفاحشة ومصير إلى النار!

ويل للأعقاب من النار

روى مالك فى الموطأ، وروى عنه البخارى فى صحيحه وغيره أن المسلم إذا توضأ، وأحسن الوضوء، خرجت منه ذنوبه، والنص لمالك فى الموطأ بأنه إذا غسل وجهه خرجت ذنوبه من وجهه وكذا إذا غسل يديه ورجليه، قال عليه الصلاة والسلام ثم تكون له الصلاة نافلة.

وإسباغ الوضوء على المكاره من مكفرات الذنوب، بلا خلاف، وروى البخارى قول النبى -ﷺ-: "ويل للأعقاب من النار" ومعنى هذا الحديث الذى لا يكمل غسل أعضاء الوضوء كاملة، كالذى يضرب وجهه بالماء فى عينيه ووجنتيه، فنصف وجهه مغسول، ونصفه الآخر من أعلى ومن أسفل غير مغسول، وترى من يغسل ذراعيه دون مرفقيه، والله تعالى– يقول: **﴿وأيديكم إلى المرافق﴾** أى مع المرافق، وهذا يغسل ذراعيه تاركاً مرفقيه، والله – تعالى– يقول: **﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾** وهذا يغسل رجليه دون كعبيه، نرى ذلك بأعيننا، الكعبان جافتان والوضوء على ذلك غير صحيح، وبالتالى فالصلاة غير صحيحة، والنبى -ﷺ- يقول "تبعث أمتى غراً محجلين من أثر الوضوء" وقال فى حديث البخارى الذى رواه أبو هريرة ومن استطاع أن يطيل غرته فليفعل.

والعجيب أن الذين لا يحسنون الوضوء يستعملون من الماء ما يكفى للغسل، غسلهم، وغسل من معهم، سواء أكان ذلك فى ميضة المسجد، حيث تجد صنابير الماء تقعقع، ولو سلطت على حقل زرع لروته، معظم الماء يضيع هدراً، وفى ذلك جناية أخرى، فقد نهى النبى -ﷺ- عن الإسراف فى الوضوء فقيل: يا رسول الله أفى الوضوء

سرف؟ قال: نعم ولو كنت على نهر جار، أى لو كنت على نهر يجرى ماؤه فلا تأخذ منه للوضوء أكثر مما تحتاج، نعم سواء أكان ذلك فى ميضة المسجد أم كان على حوض حمامه فى بيته، يهدر كثيراً من الماء وينتهى الأمر إلى وضوء غير صحيح، وكلا الأمرين إثم وفساد ودليل واضح على الغباء الذى يفضى إلى النار، وقد كان الصحابة يسأل بعضهم بعضاً عن وضوء رسول الله -ﷺ- وكان معظم المسئولين يطلب ماء، ويتوضأ أمام السائلين، الأمر الذى يدل على أهمية الوضوء فى حياة المسلم لأن الله - تعالى- لا يقبل صلاة بلا طهور، ولا صدقة من غلول كما روى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما- فإذا كان الوضوء غير صحيح كانت الصلاة غير صحيحة، والصلاة عماد الدين وعموده، من أقامها فقد أقامه، ومن هدمها فقد هدمه.

وقد استخف بها بعض المثقفين، فهم يطلقون على فقه الطهارة (فقه دورات المياه) وهذا لا يليق خصوصاً أنا قد رأينا السلف يطلب بعضهم ماء ليعلم بعض وضوء رسول الله -ﷺ- كيف كان .

وقد تواترت الروايات فى وضوء المصطفى -ﷺ- وذكر الإمام الشافعى - رحمه الله- أن رواية ذكرت أنه -ﷺ- توضأ فغسل كل عضو من أعضاء الوضوء مرة واحدة، ورواية ذكرت أنه -ﷺ- غسل كل عضو من أعضاء الوضوء ثلاث مرات، وقال فى الأم: وليس هذا من قبيل التعارض، وإنما توضأ النبى -ﷺ- فغسل كل عضو من أعضاء الوضوء مرة ليبين للأمة أن المرة كافية، وتوضأ -ﷺ- فغسل ثلاثاً ليبين أن الكمال والتمام فى ثلاثة، فمن غسل أعضاء الوضوء مرة واحدة أجزأه ذلك وكفاه، ومن غسل كل عضو ثلاث مرات فقد بلغ الكمال، مع ملاحظة أنه لا إسراف فى المرة ولا إسراف فى الثلاث، وكما ذكرت إننا نرى الذين يسرفون فى الماء عند الوضوء ينتهون منه وقد ارتكبوا جرمين، وحصلوا إثمين الإسراف، وترك الأعقاب دون غسل، وقد رأيت رجلاً فى ميضة مسجد يقف أمام الماء المنهل من الصنبور بعنف ويحدث

زميلاً له على الصنبور الآخر، ويضحكان، ويتضاحكان وقد تأملت عند غسل كل منهما قدمه اكتفى بظاهر قدمه وترك كعبيه دون غسل، قلت: أيها الصاحبان، ليس هذا وضوءاً، وليس هذا سلوكاً لمسلمين، لقد نزف الصنبوران ماء كان يكفى حاجةً حارة بما فيها من السكان، وكلاكما لم يغسل كعبيه، والعجيب أن أحدهما قال لى: نحن هكذا دائماً، وهذا مبلغ علمنا، بينما رأيت ذات مرة رجلاً ثالثاً يغسل رجليه حتى الركبتين، يعنى نصف غسل، فإلى متى نظل نفسد من حيث أردنا إصلاحاً، ونسرف من حيث توهمنا اقتصاداً!

كفران العشير من الغباء الذى يدخل النار

اطلع النبى -ﷺ- على النار، فوجد أكثر أهلها النساء وبين السبب فقال: يكفرن، فقيل: بالله؟ قال: يكفرن العشير والعشير: الزوج، وفسره أى تفسير حين قال: تحسن إلى الواحدة منهن الدهر، فإذا رأت منك شيئاً - أى لا يسر - قالت ما رأيت منك خيراً قط.

كانت فى زمان النبى -ﷺ- تقول هذه العبارة فى موقف لا يسرها، تنسى إحسانه إليها دهراً طويلاً فتقول: ما رأيت منك خيراً قط، واليوم أضافت إلى هذه العبارة غيرها، وغيرها كثير، فقالت: وكما يقول الناس لاأمان للرجال إلا إذا أمن الماء فى الغربال، ما رأيت منك خيراً أبداً، ولا من أهلك، فأنتم فى السوء بعضكم من بعض، فعل بى أبوك ما فعل، وإن كان ميتاً قالت سامحه الله، وفعلت بى أمك ما فعلت، وأختك كالقطة تأكل وتنكر، ومن يوم تزوجتك وأنا صبور، أرجو ثواب امرأة فرعون، أقول: اصبرى يا بنت، تحملى يا بنت يجوز فى يوم ما من الأيام أن ينصلح حاله، ويستقيم أمره، استعيذى بالله من الشيطان الرجيم يا بنت، اعملى حساب العشرة يا بنت، يا بنت لا تضيعى أولادك ولا فائدة، أعوذ بالله من عيشة كهذه العيشة لا أحد فى الوجود، ولا امرأة فى التاريخ مررت بما مررت به من سوء، تحملت ما لا تتحمله الجبال الرواسى والشيطان ينفخ فيها، فتصرخ: ارحمنى يا أخى، ارحمنى يا ابن الناس، أنا من لحم ودم،

وبنت ناس، بنت أصول، ثم تستطرد قائلة: أهذا جزاء عمل الحاج الله يرحمه الذى زوجك ابنته وأنت يومئذ حافى بلا نعلين، عاطل بلا مهنة، وابن فقراء، وقال: خذوهم فقراء يغنهم الله! أتلك هى الأمانة التى صنت، صابرة أنا عليك وعلى سخافة عقلك، وسوء خلقك، احذر أن تظننى على نياتى، وأنى غافلة عن مآسيك وألاعيبك، وأن فلاناً هذا الذى تحدثه فى الرابعة صباح كل يوم هو فلان تجحظ عيناه، والشيطان يقول ويمليها: لا تسكتى، عيناك فارغتان، عينيك فى عينى، على حذف "هات" أليس فلان هذا هو تلك الجارة التى حاربت من أجل تطليقها بالله عليك يا شيخ، ألم تتزوجها، قل... قل ولا تخف ما عاد هناك من داع لسر يكتم، اكشف عن حقيقة أمرك وخفف من الحمل الثقيل على قلبك، أنا لست شيئاً عندك.

ثم يربو الأمر ويتورم، وتقول: أتظن أن صلاتك نافعه، وأن صومك مقبول، هل نسيت ونحن فى العمرة تلك المرأة السورية التى كنت تنظر إليها نظرة من لم تر عينه أنثى، بالله عليك هل كنت مسافراً حتى تقول لبيك لبيك أم من أجل أن تعاكس النساء، كل هذا وأنا صابرة، ولكن لا، لن أسكت بعد ذلك فإن لكل شىء طاقة، ولكل صبر حدوداً...

لم تعد المرأة إلا من رحم الله تقول: ما رأيت منك خيراً قط فى تلك البلاغة المتألقة والإيجاز الذى هو فحش وظلم، لكن كما عنون البخارى فى جامعه الصحيح باب كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، فهذا الفحش الذى هو ترجمة من المرأة فى زمان النبى -ﷺ- صار فحشاً أشد، وظلماً أظلم حين استحال تفنيداً للرجل، وإهداراً لكرامته، وتجريحاً فى أهله، وشكاً فى عقيدته وصالح عمله وعبادته، لقد تحول كفران العشير إلى نسف العشير بالكلية على هذا المنوال.

وللأمانة أقول: يحدث من الرجل ما يحدث من المرأة فهو فى مثل هذا الموقف الذى لا يسره يلعنها ويلعن أبويها ومنهج تربيتها والجامعة التى تخرجت فيها إن كانت جامعية وإن كانت حاصلة على دبلوم وقال

وقتها إن العبرة ليست بالشهادات والأوراق، فكم من امرئ يحمل ورقة هو لا يساويها وكم من امرئ يحمل ورقة وهى لا تساويه، وأنها فى نظره أعظم من حاملى الدكتوراه، إنها ذات عقل مقتدر، وفكر راجح، والتعليم لم يعطها حقها تراه يقول بعد عشرين سنة - الغلطة غلطتى، حيث رضيت بأن أتزوج جاهلة ليست فى مستواى.

وهكذا الحال يكون من الفحش ما يكون بسبب موقف تافه، لايقتضى كل هذه الحرب، إنه الغباء المفضى إلى النار، بلا شك؛ لأنه تجاوز للحد كالإسراف، والمسرفون هم أصحاب النار.

الكبر خلق الأغبياء

لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر كلمات النبى -ﷺ- التى تزلزل كيان من فى جوفه كيان، وتنزع النوم من عينى من وجهه عينان تنظران، ويكاد القلب الحى يقفز من بين الضلوع، فمعنى: لايدخل الجنة يعنى هو فى النار، ونار الله غير أى نار، تفاوتت نيران الدنيا حتى قال الشاعر:

أكل امرئ تحسبين امرءاً ... ونار توقد بالليل نارا

وما بلغت القمة من نار البشر لا شىء بالنسبة إلى نار الله الموقدة.

فبأى شىء يدخلها ذلك الذى تكبر على خلق الله وظن نفسه فوقهم؛ روى الأئمة أن الناس أخبروا رسول الله -ﷺ- عن رجل عابد، بلغ مبلغاً فى العبادة تمناه كل رجل فيهم لنفسه، فما أحسن تلاوته وما أتم صلاته، وذات يوم أقبل ذلك الرجل عليهم فقالوا: هذا هو يا رسول الله، الذى حدثناك عنه، فقال عليه الصلاة والسلام وقد نظر إليه: ما لى أرى على وجهه سفعة من الشيطان، ثم قال له: ادن منى، وسأله: هل حدثتك نفسك بأنك خير من القوم؟ فقال: نعم.

وقد قال النبى -ﷺ- كما روى البخارى: من جر ثوبه خيلاء لاينظر الله إليه، وقع فى نفس أبى بكر ما وقع، فقال له -ﷺ- إنك لست منهم .

وقد ظن كثير من أحداث السن أن تقصير الثوب لازم، وأنه آية الدين، وأن إطالة الثوب من آيات الكبر والحق خلاف ذلك بدليل هذا الحديث، ومرجع إطالة الثوب وعدم إطالته إلى البيئات والعادات، والأعمال – كما قال النبى -ﷺ- بالنيات .

وقد تحقق الصحابة رضوان الله عليهم من معنى الكبر فقالوا له يارسول الله -إن الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، أى أيكون ذلك من الكبر المنهى عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الكبر غمط الحق، وظلم الناس، أى أن الكبر ليس شكلاً، وإنما هو معنى فى الصدور غير السليمة يظن صاحبه أنه فوق الناس، وأنه كفة والعالم كله كفة أخرى، وكفته بلا شك هى الراجحة، كان رجل يقول لابنته التى عذبها برد كل خاطب: نحن نقرة والناس نقرة، وهذا كبر بلا جدال، وتكبر بلا شك، وقد أبى الكفرة الفجرة أن يجلسوا إلى جنب صهيب وبلال وعمار وخباب ابن الأرت، تكبراً واستكباراً، وقالوا للنبى -ﷺ- اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، فأنزل الله -عز وجل- عليه- قوله من سورة الكهف: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾**.

والدليل على أن الكبر من أخلاق الأغبياء قول الله – عزوجل-: **﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾**.

والذى يعلم أنه لن يخرق الأرض ويضربها بقدميه غبى، لن يوجع إلا رجليه، والذى يعلم أنه لن يبلغ الجبال طولاً ويمد عنقه إلى السماء لن ينال إلا وجع رقبته فهو غبى، إذ حاول ما لا ينال، وما زاده إلا سوءاً فى الأحوال.

وقد كان عمدة فى الزمن القديم فى حاجة إلى فتيا، فقيل له: اسأل فلاناً، إنه بحر علم، فانتفض، وقال: أنا أسأل فلاناً؟

قيل له: إنه أزهرى، وأستاذ، ومتمكن.

فقال: هل نسيتم، إن أمه كانت خادمة لنا، تكبر، وأراد أن يرتحل إلى عالم بالمدينة، وركب فرسه فزلت به فسقط عنها، وقال: ولو!

وكم من مثله فى الناس، على الأقل تجد كثيراً منهم لا يرضى بأن يشترى شيئاً ميسوراً من بقال إلى جنب منزله ويشتريه من سوبر ماركت كبير، ولو بضعف ثمنه، يقول: وضعى لا يسمح بذلك، أنا أقف عند هذا الحقير، وأشترى منه، صور متعددة من صور الكبر، ومنها مطل الغنى الذى روى البخارى فيه حديث النبى -ﷺ- مطل الغنى ظلم، أليس مطله تكبراً وآية من آيات الظلم وهل يهدى الظلم إلا إلى النار، فماذا ربح المتكبر من وراء تكبره إلا نار جهنم!

لا بديل والخلق التبديل

من شأن العقلاء أنه إذا كان عندهم شىء لا بديل له ولا عنه حرصوا عليه أشد الحرص، ولا يعنى ذلك أنهم يفرطون فيه إذا وجد البديل، فتلك ورقة أخرى، هى ورقة الموازنة بين البدائل واختيار الأولى الذى يفوق غيره، والمناسب لهم والأنسب لظروفهم.

ومن شأن الأغبياء أنهم يفرطون فى الشىء الذى عندهم، ولابديل لهم عنه، ولا غنى لهم عنه بحال، والأنبياء والمرسلون عليهم السلام أفضل شىء قالوه، كما حدث رسول الله -ﷺ-: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وما من نبى إلا قال لقومه: **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** وزيادة "من" فى قولهم "من إله" دليل على نفى جنس الآلهة من كل طريق

دل عليه العقل قبل النقل، وقد جاء رجل إلى النبى -ﷺ- وأخبره أنه يعبد عشرة آلهة واحداً فى السماء وتسعة فى الأرض، فسأله المصطفى -ﷺ-:

- من فى العشرة يجيبك إذا دعوته ؟
- فقال: الذى فى السماء .

قال له -ﷺ- .

- ومن إذا أجدبت أمطر عليك فسقاك وأنبت لك؟
- قال: الذى فى السماء .

فقال له -ﷺ-

- إذاً لا داعى إلى التسعة، فقال: صدقت، وأسلم .

حوار من محض العقل أهدى، وقد هدى إلى الرشد، وما أجمل محاورة العقلاء، لكن أمة من الكفرة قالوا فيما لا يحصى من عدد ما يعبدون مع الله تعالى: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**، يعنى لافائدة، إنه الغباء.

عرفت رجلاً من قدامى الفلاحين رآه الناس فى وفاق مع زوجته، فغاظهم ما يغيظ الأغبياء الذين يريدون سماع الصراخ، لا البلبل الصداح، ويعشقون معرفة الشقاق لا الوفاق، حسدت النسوة زوجته، فأوقعوا بينه وبينها، إذا قال: هى صابرة على ظروفى؟ أجبنه: وما ظروفك، أنت قطعة على لقمة، أى قطعة لحم طيبة خالصة على لقمة عيش غض، وإذا قال: تخدمنى قلن له: ومن ذا الذى والتى لا يشرفان بخدمتك وإذا قال: هادئة ناعمة قلن له: أنت رجل طيب ولا عهد لك بخبث النساء ومكرهن حتى طردها من داره دون سبب .

ولا شك أنه افتعل سبباً، ثم قعد فى داره وحيداً ظاناً أنه سوف يرهق من فتح الباب وغلقه من كثرة الداخلات عليه يخدمنه ويرفعنه فوق رءوسهن، ولم تأت واحدة منهن، وفى الصباح احتاج إلى ماء، وكانت الفلاحات يأتين به من بعيد، فاستدعى واحدة كى تملأ له جرته فاعتذرت، وقال للأخرى: إنى على ظمأ فقالت: مت على عطش، والحمد لله أن لم يأت المساء حتى هرع إلى امرأته وقبل يدها، واعتذر لها، وقال: هلمى إلى دارك يا أصيلة يا ابنة الأصول، لا حرمنى الله منك أبداً.

وفى هذه الأيام قد يركب الرجل رأسه ويكابر ويفعل فعلة الفلاح القديم، ويطرد زوجته وسوف يجد أخريات يدخلن ويخرجن، ويتركنه من أهل النار، فما أكثر الأغبياء الذين يدخلون النار بسبب هذا الغباء، وقد حذر النبى -ﷺ- المرأة أن تسأل زوجها الطلاق دون ضرر وقال فيما رواه البخارى إنها لا تدخل الجنة، والتى تطلب الطلاق دون ضرر مادى أو معنوى غبية، وقد حكم -ﷺ- أنها فى النار، كما حكم على أختها كذلك التى لا تشكر زوجها وهى فى غير غنى عنه، أى لا بديل لها عنه، وهى لا تشكره على ما يكون منه من إحسان إليها ورفق بها، وحسن عشرة، لأن هذا الجحود قد يصل بها إلى أن يسئ إليها، أو يطلقها، فتتردى بعده فى مهالك تؤدى بها آخر الأمر إلى النار، ولا يعنى هذا كما أشرت أن التى يكون لها من الأهل كرماء، ومن الأولاد نبلاء، ومن المال أرصدة أن تفترى وتظلم، وتتكبر، وترمى بزوجها فى أول عثرة، وإنما مطلوب منها كذلك أن تحفظ عهده، وأن تبادله إحساناً بحسان وجمالاً بجمال، ولكن كما يقول العلماء: ذلك التى لا غنى لها عن زوجها من باب أولى. والأولويات عند الأغبياء معطلة، حيث إنها معطلة تقريباً عند العقلاء فهى عند الأغبياء من باب أولى.

هون عليك... فهان عليه

كلمة قالها سعد بن عبادة للنبى -ﷺ-هونت عليه حزناً شديداً، حيث كان عليه الصلاة والسلام - قد مر برأس المنافقين فى المدينة عبد الله بن أبى بن أبى سلول وسلم عليه، وعلى من معه، وجلس إليه فى أدبه الجم وطيب رائحته، ودعاه إلى الإسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن، فقال ابن أبى: عرفنا ما تدعو إليه، والزم بيتك، ولا تغشانا فى مجالسنا، ومن جاءك فى بيتك فادعه .

أثرت هذه الكلمات فى رسول الله -ﷺ- حتى بدت ظلل سوداء تحت عينيه من شدة الحزن، فلما ذهب إلى صاحبه سعد بن عبادة وحكى له ما كان منه قال سعد:

هون على نفسك يا رسول الله، لقد تزلزل الرجل بقدومك، وكان ينصب نفسه ملكاً علينا، وقد كنا نعد له تاج الملك، والله ما نقص سوى خرزة كانت عند صائغ يهودى، كنا نساومه عليها، وقد أكرمنا الله بك، وأتيت المدينة، فشعر الرجل بأن ملكه قد ضاع، يعنى أنت السبب، فالتمس له عذراً، وذهب الحزن عن رسول الله -ﷺ- بسبب هذه الكلمات التى نفتقد مثلها من مثل سعد فى هذه الأيام التى يتكرر فيها مثل هذا الموقف، لكن من أين نأتى بسعد؟

ترى الرجل يمر بالرجل فيحدث شىء مما يحدث بين الناس، فيحكى لغبى ما كان بينهما فإذا به يقول له:

أعد أعد... وعلى مهل حتى أفهم... قال لك كذا! إذا صحيح ما سمعته من ابن أمه .

- وماذا سمعت من ابن أمه؟
- سوف أقول لك، المهم أن تكمل.. وماذا قال؟
- قال كذا .

- كذا؟ إذاً صحيح ما سمعته من ابن أبيه .
- وماذا سمعت من ابن أبيه ؟
- سوف أقول لك كل شىء..أكمل أكمل.
- وحين قلت له: وحد الله، وصل على النبى احمر وجهه وقال كذا .
- ألم أقل لك، صحيح ما سمعته من الحاج فلان .
- وماذا قال الحاج فلان ؟
- اسمع يا سيدى، القصة وما فيها أن هذا الرجل يكيد لك من زمان، ويؤلب عليك ويمكر بك، وما هذا الذى رأيت منه إلا دخان من النار التى فى قلبه، إنه كذا وكذا والرأى عندى أن تتغدى به قبل أن يتعشى بك، وأن تضربه فى مقتل قبل أن يصيبك وأهلك جميعاً فى مقتل إنه سواد فى سواد، يشعل فى الرجل بركاناً من الإصرار على الانتقام، ويريه أنه لابد أن يبدأ الحرب قبل أن يقضى عليه الرجل وجنوده.

ولو كان مثل هذا من سعد للنبى -ﷺ- لوقعت الواقعة بينه وبين ابن أبى سلول؛ ولتدخل اليهود مع إخوانهم المنافقين، وكان ما كان من سوء ضياع وخسارة .

ترى الرجل يقص على شقيقته الغبية شيئاً مما كان بينه وبين زوجته فأغضبه، ويا ليته ما قص حيث تهب فيه قائلة .

- من زمان وأنا كاتمة، لكن آن الأوان أن أصارحك لقد دخلت عليها يوماً وهى تتحدث فى الهاتف بصوت منخفض جداً، فلما رأتنى سقط منها المحمول على الأرض وارتبكت وعرقت، ولم تدر ماذا تقول، وقالت إنها كانت تحدث أمها، فهل التى تحدث أمها تكتم أنفاسها إلى هذا الحد ويسقط منها جهاز المحمول، ويعرق جبينها، وكذا، إن هذه امرأة لعوب، وأنا قلبى غير مرتاح لها، وما دامت تقول إنها قالت كذا وفعلت

كذا فهذا دليل على أننى لم أكن متوهم، الأمر الذى يجعل أخاها يعود إلى امرأته بوجه غير الذى تركها عليه، إما أن يضرب أو يقتل أو يكتفى بالطلاق وضياع الأولاد، أسهمت الغبية فى إشعال نار الفتنة، ولو التمست عذراً كالذى التمسه سعد لرأس المنافقين، لما كان من سوء، لكنه سلوك الأغبياء، يجاهدون فى الشر وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!

وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله

أخذ الله – عز وجل– العهد على بنى إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضاً، وألا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، فخالفوا العهد وقتلوا وأخرجوا إخوانهم من ديارهم وظاهروا عليهم، واشتروا بذلك الحياة الدنيا، وفعلوا ما فعلوا من صنوف الإثم، وقتلوا الأنبياء، ثم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ البقرة: ٨٨ .

ولقد أردت أن أربط بين قول الله – تعالى–: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وبين قولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ على ما ذكره المفسرون فى معناها وما ذكر يمكن جمعه فى أمرين:

١- أن قلوبنا خالية، فهى مجرد غلاف، لا شىء تحته بمعنى أننا أغبياء.

٢- وأن قلوبنا غلف بالعلم والحكمة، أى مملوءة بالعلم والحكمة، فلسنا فى حاجة إلى شريعة .

وهذا سلوك الأغبياء، تقول للواحد منهم: افهم واحفظ وعليك كذا، وإن كان كذا فافعل كذا، وإن جاء محمد فقل له كذا، أما إن جاء على فقل له كذا، وهكذا .

وتنظر آخر الأمر إلى سوء ما فعل، ما فهم وما حفظ، فعل خلاف ما قلت له، وقال لمحمد ما كان عليه أن يقول لعلى، وقال لعلى ما كان عليه أن يقول لمحمد، قلب الأمور رأساً على عقب .

فإن قلت له: لم فعلت هذا؟ قال لك: قلبى غلف كما قال بنو إسرائيل.

إما أن يقول لك، لقد رأيت أن الذى أوصيتنى به خطأ، أنا كنت فقط أسمعك لكى أعطيك حقك فى الكلام، ولم أكن مقتنعاً بشىء مما قلت، هدانى عقلى الرشيد، وفكرى الراجح إلى أن أفعل ما فعلت، ولو أنى تصرفت وفق ما قلت أنت لى لخسرنا كل شىء، أما وقد خسرنا كل شىء إلا قليلاً فاحمد الله على نعمة وجودى معك، فلولا عقلى وفكرى لخسرت كل شىء.

وإما أن يقول لك: أنا غبى، أنا لا أفهم من هنا وقادم لا تكلفنى بشىء، ثم انظر إلى هذه التكملة المرة التى يريد بها أن يقطع قلبك، وأن يزيدك حسرة وغيظاً، حين يقول لك:

كلف بعد ذلك فلاناً ابن عمتك الذى تناديه فلا يرد .

أو كلف بعد ذلك فلاناً ابن خالتك الذى سرقك عام كذا، تذكر أم أذكرك، إنك أنت الذى قلت لى يبكتك، ويذكرك بأسوأ المواقف فى موقف سئ، أساء فيه، وكأنه يسحبك بذلك إلى أن تلعن نفسك إذا ائتمنته على سر؛ وقلت له شيئاً ربما لم تقله لغيره، أو تلعنه وتلعن ابن عمتك وابن خالتك ومن فى الأرض جميعاً.

قال لى شاب: إنه ندم ندماً شديداً على فرط لسانه حين قال لخطيبته إنه خطب قبلها ابنة عمه، ووجدها بلهاء، عبيطة، لا تفهم شيئاً .

فابتسمت، وقالت له: احك لى.. احك لى، بربك قل لى أنا لا أريد أن تكشف سترها، ولا أن تذيع سرها، ولكنى أريد ألا أقع فيما وقعت هى فيه، فأنا أحبك، وأريد أن أجعلك أسعد زوج فى الدنيا إن شاء الله، وعلى العموم على راحتك، إن لم تكن بك رغبة لكى تقول فلا تقل وهبت واقفة

فى نشاط، واستأذنته، وقالت: سأعد لك كوباً من الشاى، ونظرت إليه ناظرتها اليسرى بنصف نظرة وغمضة، تداعبه وتثيره، وكأنها عرفت فنون المكر وعادت بكوب الشاى وقالت:

هل فكرت؟ هل قررت؟ هل ستحكى لى.. إنى مشتاقة لمعرفة خبر الغبية.. أنا آسفة، إنا قريبتك، ولكنها فعلاً غبية؛ لأنها ضيعت شخصاً عظيماً مثلك وحكى لها المسكين تفاصيل الغباء الذى عهده فى ابنة عمه؛ ولهذا تركها، وانتهى الموقف، وبعد حين تم الزواج، وأوصاها ذات يوم بشىء ففعلت خلافه من تلقاء نفسها، وبنات أفكارها العوانس، فلما عاتبها صاحت فى وجهه: لماذا لم تتزوج ابنة عمك التى ضيعت مالك، وأتعست حالك، والله كانت بنتاً ذكية، ومثلك ما كان يصلح إلا لها، وذكرته بما قال وأضافت إليه من خيالها ما لم يكن، والحمد لله أنه سكت، وجلس تقتله الحسرة، حيث لم يلم إلا نفسه وهذا خلق الأغبياء دائماً، يستثمرون القصص دفاعاً عن غبائهم ويقتلون بها من وثق يوماً بهم .

المحتوى